جوريس كارل ويسمانس



في المرفأ

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

محمّد بنعبود

كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

جوريس كارل ويسمانس



في المرفأ

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

محمّد بنعبود

مراجعة

كاظم جهاد

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2309.H4 A6125 2019

Huysmans, Joris-Karl, 1848- 1907

في المرفأ: رواية / تأليف جوريس كارل ويسمانس ؛ ترجمة محمد بنعبود ؛ مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2019.

213 ص. ؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: En rade

1- القصص الفرنسية- القرن 19. أ- بنعبود، محمد. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسيّ:

Joris-Karl Huysmans

En rade

(صورة الغلاف: ويسمانس في العام 1880 بعدسة مصوّر فوتوغرافيّ مجهول)



ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+


عام التسامح
YEAR OF TOLERANCE


ابوظبي
AbuDhabi
Culture & Tourism للثقافة والسياحة

في المرفأ

رواية

مقدّمة المُراجع

ويسمانس Huysmans هو بلا ريب واحدٌ من أهمّ الرّوائيّين الفرنسيّين في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر. بيد أنّ طبيعة كتاباته، المشحونة بتجارب وجوديّة قصوى والمتميّزة بعناية كبيرة بلغة السّرد، تجعله غير معروف بما فيه الكفاية لدى الجمهور العريض، حتّى في بلده.

وُلد ويسمانس في 5 فبراير 1848 في باريس لأب هولنديّ كان يعمل في الطباعة الحجرية وأمّ فرنسيّة كانت معلّمة في المدرسة الابتدائيّة. واشتغل طيلة حياته موظّفاً في وزارة الداخليّة الفرنسيّة، مكرّساً بقيّة وقته لعمله الأدبيّ عن شغفٍ ومُتعة، وتوفّي عن مرض عُضال في 12 مايو 1907. اسمه بالفرنسية هو شارل ماري جورج ويسمانس، ولكنّه، وفاءً لرنين اللّغة الهولنديّة، لغة أبيه، دأب على التّوقيع باسم جوريس كارل ويسمانس Joris-Karl Huysmans.

برز ويسمانس روائيّاً وناقداً للأدب والفنّ. ساهمت دراساته النقديّة في تجديد الأدب الفرنسي، وخصوصاً في بلورة الفكر الأدبيّ والجماليّ لتيّار الرّواية الطّبيعيّة naturaliste الذي تزعّمه إميل زولا وانخرط ويسمانس فيه لفترة إلى جانب موباسان والأخوين غونكور وآخرين. وساهم من بعدُ في دعم التيّار الرّمزيّ. وكتاباته في الفنّ التّشكيليّ مشهودٌ لها بالمساهمة الجادّة في فرض الرّسم الانطباعيّ في فرنسا، إذ ناضل لإفهام الجمهور عمق أعمال كلود مونيه وإدغار دوغا وبول سيزان وكامي بيسارو وبول غوغان وجورج سورا وجان لوي فوران وآخرين. كما ساعد في إعادة اكتشاف الفرنسيّين لروائع الفنّ الفطريّ. ومع تحوّله من البروتستانتيّة إلى الكاثوليكيّة في

أواخر حياته وضع كتاباتٍ مهمّة في الرّسم والمعمار الدينيّين، وكذلك رواية عن كاتدرائيّة شارتْر حملت عنوان **الكاتدرائيّة** (1898) *La Cathédrale*.

كان قد نشر في 1874 على نفقته الخاصّة مجموعة شعريّة بعنوان علبة **الأفاويه** *Le Drageoir aux épices* ضمّت قصائد وقطعاً من النّثر الشّعريّ وتقريظات لبعض أساطين الرّسم الهولندي والشعر الفرنسي. لم تكن المجموعة خالية من تأثّر بالأدب الرومنطيقيّ، وهو ما يُلاحَظ أيضاً في روايته التي نشرها بعد عامين بعنوان **مارتا، قصّة فتاة** *Marthe, histoire d'une fille*. في العام ذاته جمعته علاقة صداقة بإميل زولا، فكتب في الدّفاع عن روايته **الحانة** *L'Assommoir* مقالة شكّلت أحد أهمّ بيانات التيّار الطّبيعيّ في الرّواية الفرنسيّة. وجاءت رواية ويسمانس الثّانية **الأختان فاتار** (1879) *Les Sœurs Vatard* منضوية تحت لواء الطّبيعيّة، وكذلك قصّته القصيرة **حقيبة ظهر** *Sac au dos* التي نُشرت في 1880 ضمن مجموعة قصصيّة جماعيّة لكتّاب التّيّار الطّبيعيّ، حملت عنوان **أماسي مِيدان** Les Soirées de Médan (نسبةً إلى ضاحيّة باريسيّة كان زولا يُقيم فيها ويستقبل رفاقه الأدباء أسبوعيّاً).

تميّزت رواية ويسمانس التّالية: **الزّيجة** (1881) *En Ménage* وقصّته الطويلة **تبِعاً للتيّار** (*À vau-l›eau* 1882) بأبطال سلبيّين وبنوع من التشاؤم الواضح ورثه من قراءاته للفيلسوف الألماني شوبنهاور. هذا التحوّل المتدرّج مهّد لقطيعته مع جماليّات التّيّار الطّبيعيّ، قطيعة بدت واضحة في روايته **بالمقلوب** (1884) *À rebours*، التي كرّسته هي وأعمال أخرى لاحقة رائداً للتيّار الانحطاطيّ décadente. والحقّ أنّ هذه التّسمية لا تعبّر في العربيّة بدقّة عن حقيقة هذا الأدب الذي يُعنى بوصف جوانب العتمة في مصير شخصيّاتٍ عليلة أو مرتكسة، يدفعها اعتلالها وهامشيّتها المقصودة والتباسات محيطها الاجتماعيّ إلى التركيز على الوجوه المظلمة من وجودها، ومن الوجود بعامّة. وقد رأى النقّاد أنّ ويسمانس أفاد في هذه الرّواية على نحو باهر من النّزعات المَرَضيّة السائدة في بعض أشعار شارل بودلير وقصص إدغار ألن بو، والأجواء الحلميّة في قصائد مالارميه ورسوم غوستاف مورو، والواقعيّة الحادّة في الأدب اللّاتيني في عهد الانحطاط الرّوماني (من القرن الثالث الميلاديّ حتّى سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة 476). وهذا التّشريح لحياةِ فردٍ ولطبائع محيطه الاجتماعيّ يتعزّز في رواياته التّالية، خصوصاً في الرّواية المترجمة هنا، في **المرفأ** *En rade*، التي نشرها مسلسلةً في **المجلّة المستقلّة** *La Revue indépendante* اعتباراً من نوفمبر 1886، ثمّ أصدرها في كتاب في 1887. وعلى النهج ذاته سار ويسمانس في أعمال أخرى من أهمّها روايتاه **هناك** (1891) *Là-bas* **وفي الطريق** (1895) *En route*.

بالرّغم من تحوّلات أسلوب الكاتب العديدة، ثمّة فيه عدد من الثّوابت في أوّلها الأولوية المعطاة للأجواء النفسية والوجودية على حساب الأحداث الخارجية والأفعال، وارتباط مصائر أبطال رواياته إيجاباً وسلباً بسيرته. فهو نفسه انتهت به خياراته الخاصّة وقلقه الفكريّ إلى أن يخوض في أواخر حياته تجربة التنسّك والعزلة الإرادية.

في روايته التي سبق ذكرها، **بالمقلوب**، يتيح ويسمانس لبطل الرواية ديزيسانت Des Esseintes أن يعبّر بعمق وامتداد عن قرفه من الحداثة ونفوره من الحشود. في روايته التي

تلتها والماثلة هنا يبدو وهو يجرّب العثور في الرّيف على مهرب ممكن لبطليها من عالم المدينة الاستلابيّ وعلاقاتها المترهّلة غير العديمة الارتباط بصعود الرّأسماليّة والتّصنيع الطاغي. جعل الشخصيّتين المحوريّتين جاك مارل وزوجته لويزا يلجآن إلى الرّيف بعد انهيارٍ ماليّ مبعثه انعدام روح التّدبير لدى الزّوج، واستغراقه في عوالمه الحلميّة والفنيّة بعيداً عن كلّ حسٍّ عمليّ. جاءا ليقيما في قصرٍ مهجور وضعه تحت تصرّفهما زوج عمّة لويزا، الفلّاح الشّيخ أنطوان، المؤتمَن على القصر.

هرب جاك بنفسه وبزوجته إلى الرّيف بحثاً عن ملاذٍ آمن وعن هدنة مع متاعبه الماليّة وملاحقة الدّائنين له وتهرّب الأصدقاء من مساعدته. وهنا ينتصب عنوان الرواية بكلّ بساطته باعتباره حمّالاً لمعانٍ ودالّاً بقوّة على تأرجح حال هذا البطل الذي لا يبدو سلبيّاً إلّا في الظاهر. فالمفردة الفرنسيّة rade تدلّ على مرسى أو مرفأ، أي مرفأ طبيعيّ، فسحة من الشّاطئ تسمح برسوٍّ مؤقّت وبالاحتماء من الرّيح في انتظار انطلاقة جديدة. بذا يختلف المرفأ عن الميناء بما هو مؤسّسة من صنع البشر لها قواعدها وضماناتها وفروضها. أن يكون المرء في مرفأ هو بهذا المعنى بلوغُ برّ أمانٍ، وإن تكن الإقامة فيه مؤقّتة. بيد أنّ التّعبير نفسه: «être en rade»، ومُعادِله: «tomber en rade» (أن يكون المرء في مرفأ أو ينجرف إليه) يعنيان أن يكون مهجوراً أو مُهمَلاً وبلا حولٍ ولا قوّة. يعني ذلك أنّ إقامته في هذا المرفأ الطّبيعيّ كانت مفروضة عليه فرضاً، أو أنّها طال أمدها ولم تأتِ بثمارها. وكما كتب مؤرّخ أدب القرن التّاسع عشر الفرنسيّ جان بوري Jean Borie في تقديمه لطبعة فوليو-غاليمار لهذه الرّواية، ففي حالٍ كهذه سرعان ما تزحف إلى المرء مشاعر القلق والاضطراب وتداهمه ذكريات عمره كلّه بما يزيد من فاعليّة الأحلام الهذيانيّة عنده. هنا يكون على المرء أن يحاول ترتيب حياته، أو على الأقلّ التّظاهر بالسّعي إلى ذلك. كتب بوري: «يغفو المرء في محطّة الرّسوّ هذه، ولدى استيقاظه يُلفي نفسه سجيناً».

هذا المآل المُحبَط لإقامة الزّوجين في القصر الرّيفيّ المتداعي، المتعذّر على البيع وعلى السّكنى، يتبدّى للزّوجين ما إن يطآ بأقدامهما أرض الرّيف. وسرعان ما تشمل آثار ذلك علاقتهما بالمكان، بسكّانه، وبالقريبَين الفلّاحَين، مضيفَيهما العجوزَين الجشعَين. صفحةً صفحةً يسطّر ويسمانس هذا الانحدار المتدرّج بلغة شديدة التّحديث وعالية التشخيص يرصد فيها أدقّ دقائق المكان، وإسقاطات دوافع البشر عليه، وأدنى الانتحاءات النّفسيّة للأفراد، والتّخبّطات الصّامتة لدواخلهم المكتظّة.

بالرّغم من حاجة جاك إلى رحابة الفضاء، سرعان ما يشكّل له القصر المتآكل ومحيطه الرّيفيّ نوعاً من المعتقل. وإذا بالمقارنة مع نمط العيش ومعانقة المكان في العاصمة تفرض نفسها على نحوٍ أليم. يدور جاك في أروقة القصر وغرفه العديدة المتداعية لا يلوي على شيء. ويتعرّض هو وزوجته للسعات بقّ الخريف الضارية، ويخوضان ضدّها نضالاً مريراً لا طائل فيه. ثمّ يُلفيان نفسيهما مجبرين على اقتسام غرفة واحدة في نوعٍ من التّعايش الاضطراريّ كانت سعة شقّتهما بباريس تحميهما من أضراره. هذا التّلاصق الجسديّ والنّفسيّ الدّائم يسرّع من تباعد الزّوجين الذّهنيّ. وممّا يفاقم من ضيقهما مرض لويزا وتشنّجاتها وأورام ساقيها الغريبة التي تظهر وتغيب بلا منطق. وقد لا يكون من قبيل الصّدفة أنْ تفاقمَ مرضها هذا مع وصولهما إلى الرّيف.

غربتهما هذه في المكان، وفي قلب الزّيجة، تجد ما يؤجّجها لدى المقارنة ببساطة الرّيفيّين وفظاظتهم التي يعيشونها بلا عُقَد. العمّ أنطوان وزوجته نورين يتفاهمان بلا كلام، تجمعهما مصالحهما وجشعهما الذي يقع جاك وزوجته فريستين له.

حتّى يزجي جاك أوقاته ويطوّع قلقه المتصاعد بمواجهة عدوانيّة الرّيف الصّامتة وسكوت زوجته المرتاب، شرع يتأمّل أطوار القمر ومَشاهد الغروب. صار يبحث لها عن دلالات روحيّة أو رمزيّة، ويحاول تفسير أحلامه بمنطقه الخاصّ. في هذه الصّفحات المكرّسة لأحلام جاك، يعرب ويسمانس في سرد شوارد الروح وتجلّيات اللّا شعور عن قدرة عالية في فترة لم تكن أعمال فرويد معروفة فيها بعد. كما أنّ خبراً قرأه جاك في مجلّة عن عطر يُصنّع من جثث الموتى يوحي له بصفحات صادمة يفكّر فيها بشجاعة ونفاذ في معاملة الأموات في الحضارة الحديثة.

ليومٍ أو اثنين، يستعيد الزّوجان الباريسيّان تقاربهما عندما يتعاونان لإنقاذ قطّ جاء ليُحتضر في الغرفة التي كانا يشغلانها في القصر المهجور. ومع تدهور حال القطّ يفرض نداء العودة إلى باريس نفسه، وما عاد في مقدورهما أن يقاوماه.

أن يكون ويسمانس، رغم جهل الجمهور العريض لأعماله، أحد أهمّ الممهّدين لرواية القرن العشرين، فذلك ما أكّد عليه، بين آخرين كثْر، أندريه بروتون في اثنين من مؤلّفاته. كتب في روايته الشّهيرة **نادجا** *Nadja*: «في تقييم ما يَعرض للإنسان والاختيار ممّا هو موجودٌ انطلاقاً من انحيازات اليأس، أجد لي مع ويسمانس، في عملَيه **في المرفأ وهناك**، طرائق مشتركة هي من الوفرة بحيث يبدو لي، وإن لم تُتَح لي للأسف معرفته إلّا من خلال أثره الأدبيّ، أنّه ربّما كان أقلّ أصدقائي بُعداً عنّي». وكتب في **أنطولوجيا الدعابة السوداء** *Anthologie de l’humour noir*: «بوضوحٍ بصيرة لا يُضاهى، وقوّة ابتكارٍ خالصة، صاغ ويسمانس أغلبَ النواميس التي تحكّمت لاحقاً بأشكال العاطفة والانفعال المعاصرة، وكان أوّل من نفذ إلى مكوّنات نسيج الواقع وارتقى في روايته **في المرفأ** إلى ذرى الإلهام».

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

1

كان المساءُ يُقبل، فحثّ جاك مارل خطوه. ترك خلفه ضيعة جوتينيي، وفي الطريق الطّويلة الذاهبة من بريه سور سين إلى لونغفيل شرع يبحث، على يساره، عن الدرب الذي دلّه عليه مُزارع، كي يختصر الطّريق إلى قصر لوربْس.

ما أبأسها من حياة! تمتم مُنكّساً رأسه، وفكّر يائساً في الوضع المزري الذي وصلت إليه أعمالُه. ففي باريس تقبع ثروته الضائعة عقب إفلاس لا يُغتفر لمصرَفيّ مفرط الدهاء، وفي الأفق يرتسم ألفُ غدٍ أسودَ مُنذِر. وعلى باب منزله كان رهط من الدائنين، خمّنوا هذا السقوط الوشيك، فوقفوا نابحين بسُعار، ما جعله يفرّ. وزوجته المريضة، لويزا، التجأت إلى لوربْس عند عمّها القيّم على قصرٍ يملكه خيّاط ثريّ تركه غير مسكون، دون إصلاح وبلا أثاث، في انتظار أن يبيعه.

هذا القصر هو الملجأ الوحيد الذي كان يُمكنهما هو وزوجته أن يفيئا إليه. فعندما تخلّى عنهما الجميع، منذ حصول الكارثة، فكّرا في البحث عن مأوى، عن مرفأ يُلقيان فيه بمرساتهما ليتداولا في شؤونهما، أثناء هدأة وجيزة، قبلَ أن يعودا إلى باريس ليبدآ نضالهما. ولطالما دعا الأب أنطوان، عمُّ الزّوجة، جاك ليقضي الصّيف في هذا القصر الفارغ، وقد قبلَ هذه المرّة. كانت زوجته قد انصرفت إلى بلدة لونغفيل التي ينتصب على تخومها قصر لوربْس، في حين ظلّ هو في القطار حتّى محطّة أورْم، حيث نزل، يحدوه أملٌ في استرداد بعض المبالغ المالية.

زار هناك صديقاً له، مُفلساً أو مُدّعياً الإفلاس، فحصل منه على وعود غير مُؤكّدة، ثمّ مُني في الأخير برفضٍ باتّ. عندئذ، ودون إضاعة المزيد من الوقت، ارتدّ على عقبيه في اتّجاه القصر حيث يُفترَض أن تكون لويزا في انتظاره، بعد أن وصلت إليه صباحاً.

كان القلق يستبدّ به، لأنّ صحّة زوجته جعلتْ تُضلِّل الطّب منذ سنوات. كان مرضها بأطواره غير المفهومة يُحيّر الأطبّاء المختصّين: تناوب مُفاجئ ومستمرّ بين النّحول والسّمنة. يحلّ الهُزال في أقلّ من خمسة عشر يوماً محلّ البدانة ويختفي بالطّريقة نفسها، ثمّ تنبعث آلام غريبة، مثل شرارات كهربائية في السّاقين، واخزةً العقبَين، ناقرةً الرّكبَتين، ومُنتزعةً ارتجافاتٍ وصيحات. موكب كامل من الظّواهر التي تُفضي بها إلى هلوسات وإغماءات وإلى حالات خوَر، حتّى لَتبدو أحياناً وكأنّها تُحتضر، فإذا بها، في اللّحظة ذاتها، وبتقلّب لا تفسير له، تعود إلى وعيها وتحسّ أنّها تحيا. ومنذ حصول هذا الإفلاس الذي جعلهما هي وزوجها في عداد المنبوذين، تفاقمَ المرض واستفحل. لكنّنا لا يُمكننا أن نذهب في كلامنا أبعدَ من هذا، لأنّ الضّعف سرعان ما كان يبدو وكأنّه قد كفَّ، فتستعيد ملامحها نضارتها، والعضلات صلابتها، ويغيب كلّ مظهر يُرهص بالمرض أو يشي باضطراب. كان المرض يبدو إذن روحيّاً، تُطوّره الأحداثُ أو توقفه، حسب طبيعة هذه الأحداث المزعجة أو المؤاتية.

كان السّفر فريداً في رهبته، تخلّلته حالات ضعف وآلامٌ مفاجئة وتشتّت في الدّماغ فظيع. عشرين مرّة، كاد جاك يقطع رحلته، وينزل في إحدى المحطّات، ويذهب ليرتاح في نُزل، لائماً نفسه على تسرّعه في اصطحاب لويزا. لكّنها عاندت في البقاء في القطار، وهو ذاته جعل يتطامن، مُردّداً لنفسه أنّها كانت ستموت في باريس لو لم يخلّصها من فظاعة العوز الماليّ وعارِ المُطالبات المشينة والشّكاوى المُهدِّدة.

كانت قد أراحته رُؤيةُ الأب أنطوان، بالقرب من المحطّة، مُنتظراً ابنة أخيه بعربة ليصطحبها فيها مع أمتعتها. لكنّه لم يعد مهتمّاً، وبات مُنهكاً من هذه الطّريق الرّتيبة والمستوية التي يجتازها، ومسكوناً بقلق يعرف أنّه مُبالَغٌ فيه، لكنّه، مع ذلك، يعصره عصراً ويفرض نفسه عليه. لا بل كان يتوجّس من الوصول إلى القصر، مخافة أن يجد زوجته أكثر معاناة أو ميّتة. كان يجاهد ما في وسعه، وراودته الرّغبة في العدْو كي يُبدّد مخاوفه، غير أنّه ظلّ على قارعة الدرب، مُرتعشاً، ساقاه يتنازعهما السّرعة والبطء.

ثمّ طردت رؤيةُ المنْظر الخارجيّ رؤاه الدّاخلية للحظات. حطّت عيناه على الطّريق، تحاولان أن تُشاهدا ما كان أمامهما، فحوَّل انتباهُهُما ذعرَ قلبه إلى سكينة.

لمح، أخيراً، على اليسار، الدرب الضيّق الذي دُلّ عليه، صاعداً، مُتعرّجاً. سار بحذاء مقبرة صغيرة حاشيةُ أسوارها من لبن ورديّ اللّون، ومشى في طريق محفورة بثَلمين أحدثَهما حديد العجلات. كانت تمتدّ حوله سلسلة من الحقول يُشوّش الغسقُ حدودَها بصبغها بلون داكن. وفي الأفق، بعيداً، تحتلّ بناية كبيرة جزءاً من السّماء، شبيهةٌ بهُري حصيدٍ ضخم، قسماتها سوداء قاسية، تجري فوقها جداول صامتة من سُحب حمراء.

- أنا أقترب، أسرّ لنفسه، لأنّه يعرف أنّ خلف هذه البناية، التي هي كنيسة قديمة، يختفي قصر لوربْس بين أشجار غابته.

عاوده بعضٌ من شجاعته وهو يرى بناية الكنيسة هذه تتقدّم نحوه بثقوب نوافذها المُتقابلة عبر جناحها، والتي جعلت تتّقِدُ وقد عبرَها حريق السّحب.

هذه الكنيسة السّوداء الحمراء، الممتثلة للذوق السائد، بدت له مصاريعُها المتشابهة، بزجاجها المكوكب بقضبان من المعدن، مشؤومة، أشبه ما تكون بأنسجة عناكب عملاقة معلّقة فوقَ أتون. نظر إلى الأعلى. كانت سُحبٌ قرمزية مستمرّة في التّدفق على صفحة السّماء، وكان المنظر في الأسفل مقفراً تماماً، بعد أن لبَد المزارعون وأُدخِلت القُطعان. وفي السّهل الممتدّ، عندما نُصيخ السّمع، لا نسمع، في البعد، على التّلال الصغيرة، سوى نباح كلب لا يكاد يُدرَك.

استولى عليه حُزن مُمضّ، مُختلفٌ عن ذلك الذي رافقه في الطّريق. وكانت حالات قلقه قد فقدت خصوصيّتها وتوسّعت وتمدّدت وفقدت من جوهرها الخاصّ؛ فكأنّها قد خرجت منه كي تتعانق في تناغمٍ مع هذه الكآبة التي تنبو عن الوصف، تنضح بها المناظر الطّبيعية الغافية تحت ثقل هجعة

المساء. كان هذا الضّيق المبهم وغير الواضح يُريحه بإقصائه كلَّ تفكير وبتنظيفه الرّوحَ من حالات ذعرها، وبتسكينه المواضعَ المتألّمة من الجسد، وبتهدئته المعاناةَ بطبيعته الملغزة.

عندما أدرك أعلى المنحدر، التفتَ. كانت الدّنيا قد أظلمت أكثر. وكان المشهد الشّاسع، الذي لا يكون له خلال النّهار عمقٌ، قد انحفر في شكل هوّة، وكان عمق الوادي المختفي في السّواد يبدو وكأنّه يغوص إلى ما لا نهاية، بينما كانت ضفّتاه المُتقاربتان بفعل الظّلام تبدوان أقلّ رحابة. وكان أخدود من العتمة يرتسم في المكان الذي يهبط فيه، أوانَ العصر، مُدرّجٌ عبر طوابقه المشكّلة من مُنحدرٍ غير وعر.

وقف لحظةً في هذا الضّباب، فتحلّلت أفكاره في كتلة الكآبة التي تلفّه، ثمّ عاد للوعي بها وقد أضحت نشِطَةً مُتناغمةً، فأصابته ملء قلبه بضربة مُفاجئة. فكّر من جديدٍ في زوجته فارتعش وواصل مشيه. أدرك الكنيسة، وبالقرب من بوّابتها، عند مُنعرج الطّريق، لمح، على بعد خطوتين منه، قصر لوربْس.

بدّدت رؤيتُه القصرَ قلقه. استولى عليه، لحظةً، فضولُ اكتشاف هذا القصر الذي سبق له أن سمع أحاديث عنه، دون أن يكون قد رآه. كانت السّحب المتصارعة في السّماء قد اختفت، والاحتفالية الصّاخبة للمغيب المشتعل أخلت مكانها للصّمت الكئيب للسماء الرّمادية. غير أنّ جمراتٍ لا تزال جذوتُها حيّةً كانت، مع ذلك، تُرى هنا وهناك، تَحمرّ في دخان السّحب، مُنيرةً القصرَ من الخلف، متفاديةً القمّة المتعرّجة للسطح وهيكل المدخنة وبرجين يعلوهما غطاءان كأنّهما قبّعتان، إحداهما مُربّعة والثّانية مستديرة. كان القصر، المُنار بهذه الطّريقة، يبدو وكأنّه خرابٌ مُتفحّم يكمن خلفه حريقٌ لم ينطفئ بكامله. فما كان من جاك إلّا أن تذكّر الحكايات التي رواها له المزارع الذي دلّه على الدرب. فالطّريق المتعرّجة التي قطعها تُسمّى طريق النّار لأنّها شُقّت قديماً عبر الحقول، ليلاً، بدعساتِ أقدامِ سكّان قرية جوتينيي وقد هبّوا جميعاً لنجدة القصر المحترق.

وكان من رؤية القصر الذي كان يبدو وكأنّه يحترق بطريقة مُبهمة أن هيّجت اضطرابه العصبيّ الذي كان لا ينفكّ يتأجّج منذ الصّباح. جعلت انتفاضاتُ توجّساتِه تنقطع ثمّ تتواصل، وشرعت رجّات رعبه تتضاعف. قرعَ قرعاً محموماً جرسَ باب صغير محفور في الجدار، فهدّأه صوته. أنصت، واضعاً أذنه لصقَ خشب الباب. لا صوت يدلّ على حياةٍ خلف هذا الباب المغلق، فعدا الرّعب في صدره على الفور. تعلّق، خائر القوّى، بحبل الجرس. وأخيراً سمع وقع حذاء يُصدي على الحصى، ثمّ صريرَ حديد قديم يعتمل في القفل. كان الباب يُسحَب بقوّة، غير أنّه اختلج دون أن يتحرّك من مكانه.

- ادفعْ إذَن!، هتَف صوت.

وجّه جاك للباب ضربة قوية من كتفه فمال إلى الأمام مع المصراع الذي انفتح، وسط الظّلام.

وهتف به طيفُ مُزارعٍ أمسك به بين ذراعيه وحكّ وجنتيه بشعر لحيته السيّئة الحلاقة:

- هذا أنت يا ابن الأخ؟

- نعم، يا عمّ، وأين لويزا؟

- هي هنا تُرتّب أمرها لتستقرّ. آه، لا، أنت تدري يا رجل أنّ الريف ليس كالمدينة. ليس فيها، كما عندكم، كثيرٌ من وسائل الرّاحة.

- أجل، أعرف ذلك. وكيف هي حالها؟

- لويزا، حالها حسنة، هي برفقة نورين، وهما تشتغلان وتكنسان وتدُقّان، اللعنة! لكن ذلك يسلّيهما، تتوردّ وجناتهما وتُقهقهان معاً بصوت مرتفع حتّى أنّنا لا نعرف إلى أيٍّ منهما نستمع!

تنهّد جاك.

- هيا نذهب إليهما، يا فتى، واصل الشيخ القول. سنُقدّم لهما العون، لأنّ على نورين أن تذهب لتُعنى بالدّواب. ثمّ لنُسرع، لأنّنا قد نتبلّل. إنّك وصلت في الوقت المناسب، فأنت ترى أنّ السّماء تتلبّد بالغيوم!

مشى جاك خلف العمّ أنطوان. كان أثناء سيره ينظر حوله وهما يمشيان في ممرّات غير مرئية محفوفة بأجماتِ أشجارٍ تكشف عنها احتكاكات أغصانها المنحنية في سماء بالغة الصفاء تتوالى فيها سحائب ممزّقة كالشّفت، وكانت أوراق إبريّة كأوراق شجر الصنوبر تنشر في علوّ شاهقٍ ذرى مسنّنة لا نرى جذوعها المغروسة في العتمة. لم يكن بإمكان جاك أن يرى هيئة الحديقة التي يعبرانها. وفجأة حدثت انفراجة، وانتهت الأشجار، فانكشف اللّيل عارياً. وفي طرف انفراجة الأجمة، بدت كُتلة شاحبة، هي القصر الذي كانت تتقدّم على عتبته امرأتان.

- حسناً، هل الحال على ما يُرام؟ صاحت العمّة نورين التي ألقت بحركة آليّة لدمية خشبيّة بذراعيها الجافّتين حول عنقه.

وبكلمتين، تفاهم جاك ولويزا.

هي، حالها أحسن، وهو عاد خالي الوفاض من المال.

- هل وضعتِ الشّراب لكي يبرد يا نورين؟ سأل الأب أنطوان.

- نعم، وخوفاً من تأخّر جاك، لم أُقطّع بعد خضارَ الحساء.

- وهل كلّ شيء جاهز، هناك فوق؟ عاد الشيخ يسأل، موجّهاً حديثه هذه المرّة للويزا.

- نعم، يا عمّ، لكن ليس هناك ماء!

- الماء! لا يوجد! حسناً، سأجلب منه دلواً.

اختفت العمّة نورين بخطوات واسعة في الظّلام، وغاص الأب أنطوان بين الأشجار في اتّجاه مُعاكس، فبقي جاك وزوجته وحيدين.

- نعم، أنا في حال أحسن، قالت وهي تُقبّله. هذا المجهود الذي بذلته جعلني أسترجع عافيتي، لكن هيّا نصعد، فقد عثرت، أخيراً، في هذا القصر، على غرفة تصلح للسّكن.

ولجا ممرّاً شبيهاً بدهليزِ سجنٍ. لمح جاك، على ضوء عودِ كبريتٍ أشعله، جدراناً ضخمة من حجارة كبيرة لونها قاتم، محفورة فيها أبواب زنازين للحبس الانفراديّ، وفوقها قبّة على قوس قوطيّ، ناتئة وكأنّها منحوتة في حجر. كانت رائحة شبيهة برائحة صهريج تغمر هذا الدهليز الذي كانت مُربّعات بلاطه تهتزّ مع كلّ خطوة.

انعطف الدهليز، فوجد جاك نفسه في ردهة ضخمة جُدرانها رُخامية مُقشّرة، أمام سلّمٍ له دربزين من حديد مُطّرق، فصعد ناظراً إلى بئر السلّم المربّعة الصّخرية، المثقوبة بنوافذ صغيرة بمصراعين.

كانت الرّيح تدلف من الزّجاج المكسور، فيهتزّ الظّلام المكوّم تحت القبّة، وتضطرب منها الأبواب في طوابق عليا فتئنّ مصاريعها في الهواء.

توقّفا في الطّابق الأوّل. إنّها هنا، قالت لويزا. كان ثمّة ثلاث أبواب، واحد أمامهما والثّاني في استطالة على يسارَهما، والثّالث استطالة أخرى على يمينهما.

تسلّل شُعاعُ ضوء من أسفل الباب الأوّل. دخل فاستولى عليه فوراً ضيق يصعب التّعبير عنه. كانت الغرفة التي ولجها واسعة جدّاً، مُنجّدة على الجدران والسّقف بورق رُسمتْ عليه عريشة وتخترقه قضبان لونها أخضر فاقع على خلفيّة شديدة الملوحة. وكانت دعائم خشبية رمادية تتسلّق الأبواب، وعلى المدفأة ذات الرّخام المرقّط، تقوم مرآة مُخضرّة ترشح نقَطاً من الزّئبق، إطارُها خشبيّ رماديّ بدوره.

أمّا الأرضية فمن مربّعات خشبية كانت قديماً مصبوغة باللّون البرتقاليّ، وعلى طول الجدران كانت تنتصب خزائن أبوابها من ورق مقوّى مقام على قاعدة ومخترَق بحزوزٍ وخدوش.

ومع أنّ الغرفة كانت قد نُظّفت، وفُتحت نافذتها، فإنّ رائحة الخشب القديم والجبس الرّخو والنّسالة الرّطبة ورائحة شبيهة برائحة الأقبية، كانت تفوح من هذا الملجأ الذاوي.

هذا مكان مشؤوم!، فكّر جاك. نظر إلى لويزا، فبدت له غير مرعوبة من الوحدة المثلّجة لهذه الغرفة. بل على العكس كانت تتفحّصها بإعجاب باسمةً للمرآة التي تعكس لها وجهها المشوّه بلطخات قصدير المرآة المتداعي.

بالفعل، كانت لويزا تشعر بنفسها، كمثل غالبية النّساء، مُحفّزة بهذه الحال غير المنتظَرة الشّبيهة بتخييمٍ مُرتجلٍ أو بإقامة امرأة بوهيميّة تنصب خيمتها حيثما اتّفق. فهذه السّعادة التي تستشعرها المرأة عندما تكسر عادةً جاريةً، وترى جديداً ما، فتتفنّن في التّحايل الحاذق كي توفّر لنفسها مسكناً، وهذا الإحساس بضرورة التّفكير بطريقة تُخالف المعهود، وبوجوب إنشاء مأوىً شبيه بمأوى الفنّانة التي تقوم بجولة في البلد، والذي تتشهّاه النّساء البورجوازيات كلّهن خفيةً، على أمل أن يكون هذا المأوى خفيفاً ولا خطرَ حقيقياً يحدق به، وهذه المسؤولية الشّبيهة بتلك التي يشعر بها مموّنُ قصرٍ مكلّف بضمان المبيت والتّغذية، وهذا الجانب الأموميّ الذي يتقمّص المرأة، وهي تُرتّب فراش الرّجل الذي لا يعود أمامه سوى التّمدّد عندما يُصبح كلّ شيء جاهزاً؛ هذا كلّه كان يضغط عليها بقوّة ويُوتّر أعصابها.

- التّأثيث سيّئ، قالت، وهي تُشير في مخدع النّوم إلى سرير خشبيّ عتيق يمتدّ عليه فراش من التّبْن، ثمّ إلى كرسيّين من قشّ وسط الغرفة ومائدة مستديرة يبدو أنّها استُقدمت من الحديقة إذ كانت قوائمها قد انتفخت بينما تقَشّر سطحها بفعل ضربات الشّمس والمطر، وأضافت:

- لكنّنا، على أيّ حال، سنرى غداً ما ينقصنا من أثاث فنقتنيه.

أيّدها جاك بحركة من رأسه في ما قالت، ثمّ جال بنظره في الغرفة المشغولة، خاصّةً، بالحقائب المفتوحة على امتداد الجدار. الحقّ، كان حمّامُ حُزنٍ ينزل من السّقف العالي جدّاً على هذه الأرضية الباردة.

فكّرت لويزا أنّ زوجها مشغول بهمومه المالية، فقبّلته، وقالت:

- هيّا، سنتخلّص من هذه الهموم، رغم كلّ شيء.

وعندما رأته باقياً على حاله، أضافت:

- من المفترض أن تكون جائعاً، هيّا نلتحق بالعمّ، وسنتحدّث لاحقاً.

عندما ألفى جاك نفسه في الفسحة أمام الغرفة، وارب بابَي اليسار واليمين، فلمح دهاليز شاسعة، لا غور لها، تنفتح عليها غرفٌ. كان الإهمال ضارباً أطنابه، وتسري فيها برودة القبر، جُدرانها في حالة مُزرية من جرّاء الرّياح والأمطار.

نزل السّلّم، لكنّه توقّف فجأة. كانت تقطع صمتَ اللّيل جلبةُ سلاسل صدئة وصخبُ عجلات غير مُشحّمة وصرير بكْرة عنيدة.

- ما هذا؟

- إنّه العمّ يغترف الماء من البئر، قالت ضاحكة، ثمّ فسّرت له أنّ الماء نادر على هذا المستوى، وأنّ البئر العميقة جدّاً، المحفورة في الحوش، هي الوحيدة التي تُزوّد القصر بالماء. تلزم خمس

دقائق كاملة لسحب الماء، وما نسمعه هو ضجيج الحبل الذي يحزّ الرّافعة حزّاً.

- أنتما هناك! صاح العمّ أنطوان ما إن أصبحا في الحوش، هو ذا ماءٌ، ماء بارد لأنّه خارج من حجر الكلس، ثمّ أمسك بالسّطل الخشبيّ الضّخم المتلاطم فيه الماء، وحمله على طرف ذراعه وكأنّه يحمل ريشة والتحق بهما، قائلاً:

- هيّا نلتحق بنورين، فأنا أتصوّر أنّها عيل صبرها وقد تُعنّفنا إن نحن أطلنا انتظارها أكثر.

كان اللّيل مُظلماً ورطباً من المطر. مشوا في خطّ مستقيم، في ممرّ، رافعين أيديهم كي يتّقوا ضربات الأغصان السّوداء. كان جاك ولويزا يمشيان في أثر الشّيخ الذي يتقدّم مُطمئنّاً وواثقاً، كأنّه يمشي في وضح النّهار.

ثمّ لمع ضوءٌ مُنجّم، على مُستوىً مُنخفض، وجعل يكبر رويداً رويداً، فتفرّع وامتدّ وغدا منتشراً بموازاة تقدّمهم. لكنّه سرعان ما تخفّف، مُجرّداً من الأشعّة وغير لامع، في الإطار المربّع لنافذة. وصلوا إلى كوخ مسقوف بالقشّ، لا طابق له، مُشكّل من غرفة واحدة. وفي الموقد الضّخم، الذي أُنشئ فوقه عارضة صغيرة مكتظّة بأوانٍ ملوّنة، كانت نار تشتعل بأغصان كرمة تفرقع تحت قدر يغلي، ناشراً عبرَ رقصِ غطائِهِ الرّائحةَ القويّة للملفوف المسلوق.

- ها أنتم أتيتم، قالت العمّة نورين، هل أنتم جائعون؟

- أجل، يا عمّة.

- حسناً، ليكن! قالت، مُتلفّظةً بهذه العبارة التي يستعملها مُزارعو هذا الجانب من لا بْري[1] في كلّ سياقٍ، ودون أن يكون لها أيّ معنى مُحدّد.

- تذوّق هذا، يا ابن الأخ، قال الأب أنطوان، وستُنبئني بالخبر. هذه خمرة معصورة من قطاف عنبي في لاغرافين.

قرعا كأسيهما وشربا خمرة خفيفة وردية حامضة، أفسدها طعمُ الغبار غير المستساغ الذي تتّصف به الخمور المصنّعة في الأحواض التي سبق لها أن حوت شوفاناً.

- نعم، بها طعم الكلس، لقد خدعني الحوض، قال الشّيخ متنهّداً، وهو يُفرقع بلسانه. القرية ليست كالمدينة، فليس لنا خمرة معتّقة في مطمورة، لكنّ هذا، أتسمع، شراب له، مع ذلك، مذاق طيّب.

- أوه! لا حقّ لنا، يا عمّ، في أن نكون مُتطلّبين. فنحن في باريس لا نشرب إلاّ خمرة عنب مطحون لا يُوضع فيها سوى القليل من العنب الطّازج.

- آه! عجباً، عجباً! ثمّ أضاف، بعد صمت قصير: ذلك ممكن، مع ذلك، يا رجل.

- حسناً، ليكن! قالت العمّة نورين، مُتنهّدةً، وهي تجمع يديها.

أخرج الأب أنطوان سكّينه من جيبه وأفردها وشرع يُقطّع الخبز.

الأب أنطوان شيخ قصير، نحيف مثل مِسمَاك[2]، أعقَدُ كمثلِ كرمة، جافّ مثل شجرة بقس قديمة. وجهه المُتغضّن والمعلّمة وجنتاه بخطوط مورّدة، مثقوب بعينين زرقاوين مُخضرّتين تعتليان أنفاً عظميّاً قصيراً جافّاً ملويّاً إلى اليسار قليلاً، ينفتح تحته فم عريض تبدو فيه أسنان بيضاء حادّة. بجانبي أذنيه المفصولتين عن قحف رأسه، ينزل فودان في شكل قائمتي أرنب، وفي كلّ مكان، على وجهه وفوق شفتيه ووسط خدّيه وفي فتحتَي أنفه وتجويف العنق، ينمو شعر كثيف، صلبٌ كمثل زغب فرشاة، مائل إلى اللّون الرّماديّ مثل شعر رأسه الغزير الذي يُمرّره بأصابعه تحت طاقيّته. عندما يقف يبدو مُقوّساً قليلاً، وكمثل كلّ مُزارعي جوتينيي الذين اشتغلوا في ترب المَناقع، كان له ساقا فارس، مُتباعدتان قليلاً مع بعض التّقوّس. من النّظرة الأولى يبدو أعجفَ هزيلاً، لكن بالنّظر إلى قوس جذعه، مع الذّراعين المفتولتي العضلات وأصابعه المدبوغة الشّبيهة بملاقط، نتبيّن قوّة هذا الشّيخ الشّبيه بجرادة، والذي لن تستطيع أثقَل الأحمال ثنيَ قامته.

وكانت زوجته نورين أصلب منه؛ هي أيضاً كانت تخطّت السّتين، أطول من زوجها وأنحَف منه. لم يكن لها بطنٌ، ولا امتلاء في عنقها وظهرها، أمّا ردفاها فكأنّهما من حديد كحديد المعول. لا شيء فيها يُوحي بأنّها امرأة. وجهها أصفر، تتشابك فيه التّجاعيد والتّغضّنات كمثل خريطة طُرقٍ، عنقها كلّه موشّح بجلد شبيه بقماشةٍ، تلمع عيناها بزرقة واضحة غريبة، عينان حاسمتان، شابّتان، شبه داعرتين، في هذا الوجه الذي تتحرّك أخاديده وشبكات تجاعيده مع أدنى حركة من الجفنين أو الفم. ينضاف إلى هذا أنف مستقيم دقيق تتحرّك أرنبته في ذات الوقت الذي يتحرّك فيه نظرها. كانت في الأوان نفسه مُثيرة للقلق ودعوباً. وإلى غرابة حركاتها ينضاف الضّيقُ الذي توحي به عيناها الشّديدتا الصّفاء وانكماشُ فمها الأدرد. كانت تبدو وكأنّها تتحرّك آليّاً وبلا مفاصل، فتنهض قطعة واحدة، وتمشي مثل عريفٍ، مادّةً ذراعيها كمثل إنسان آليّ يُدفع بنوابض. عندما تجلس، ودون أن تكون على بيّنة من ذلك، تقعد في أوضاع ينتهي طابعها المُضحك إلى إثارة الغيظ. كانت تتّخذ الوضع الحالم للنّساء المجسّدات في اللّوحات الفنّية لزمن الإمبراطورية الأولى، العين في السّماء، واليد اليسرى على الفم، والمرفق مسنود براحة الكفّ اليمنى.

كان جاك يتفحّص هذين الزّوجين على الضوء الخافت لشمعة من شموع الريف، طويلة كمثل شمعدان، وكان الضوء يُبرز، بأكثر ممّا بإمكان نور النّهار أن يفعل، قسماتِهما الخشنة الدّاكنة.

كانا مُنحنيين معاً على حسائهما وقد جعلا يشربان آخر قطراته مُباشرةً من الصّحن ويمسحان شفاههما بكمّيهما. بعد ذلك أترع الشّيخ الكؤوس، ثمّ شرع، وهو ينقّي أسنانه بسكّينه، يتأوّه:

- ربّما ستكون الحال جيّدة هذه اللّيلة!

- ربّما تكون جيّدة، أجابت نورين.

- أعتزم النّوم في الإسطبل، ما رأيكِ؟

- لا، حتّى تلد، وهي ستلد، لكنّنا لا نعرف على وجه الدّقة متى ستلد. حسناً، لن يُصدّق أحدٌ ما عانته بقرتي المسكينة «عظاية». انتبه، اسمع!

فسمعوا، بالفعل، خُواراً بهيماً يعبر صمت الحجرة.

- هي كالإنسان، يجعلها هذا الأمر ترتجف! واصلت العمّة نورين قائلةً، بادياً عليها التّعب، ففسّرت أنّ «عظاية»، بقرتَها المفضّلة، ستلد.

- لكنّ العجل، قال جاك، يُباع بثمن جيّد، فهو بالنّسبة لكما نعمة طيّبة.

- أجل... أجل... لكنّها تجد صعوبة في الوضع، قد يأتيها ذلك ليلاً ويستمرّ إلى غدٍ مساءً. ثمّ كم ارتفعت حرارتها!، وإن مات العجل وحصل سوء للعظاية، فستكون الخسارة حتماً خمسمائة فرنك. وعلى هذا يحقّ لنا أن نقلق، هيّا!

ثمّ شرعا في التّلفّظ بالشّكاوى المعتادة لدى الفلاّحين:

- لقد عانينا كثيراً من أجل أن نعيش. نحن نُنهك نفسينا، لكن ما المردود الذي تدرّه الأرض؟ لا يكاد يبلغ مائتين ونصف. ماذا كان سيحلّ بنا لو لم نكن نُربّي المواشي؟ الزّرع يُشترى اليوم بثمن بخس مقارنة بما يبيعه الأجانب. سينتهي بنا الأمر إلى زرع شجر الحوْر، واصل الشيخ القول، فمردوده وحده يصل إلى فرنك في السّنة، لكلّ قدم. أجل، بالطّبع، فالأمر مُختلف عمّا هو عندكم، حيث يُربح المرء - المعذرة!- ريالين في زمن وجيز!

وصمت كي يصل بيده إلى الشّمعة التي كان فتيلها يتصلّب. ما باله يتذبذب هكذا، قال، ثمّ أطبق عليها سكّينه، قاطعاً ما بين الشّفرة وحزّة المقبض، الجزءَ المتفحّم من خيوط الفتيل، مواصلاً كلامه:

- ما هذا، ألا تأكل؟

- بلى... بلى... لا يا عمّة، حقّاً، أنا لست جائعاً، قال جاك مُحاولاً ثني العجوز التي كانت تُحاول أن تُقدّم له فخذ أرنب.

- بالتّأكيد ستأكلها، سنرى. فأنت لم تأت هنا لتصوم، على ما أحسب، ثمّ أزلقت الفخذ من الملعقة. وبعد لحظةِ صمتٍ، قالت مُتنهّدة:

- آه! ليكن! ثمّ نهضت فجأة وخرجت.

- ستذهب إلى العظاءة، قال الشّيخ، مُجيباً عن النّظرات المتسائلة لجاك ولويزا. إن حصل الأمر هذه اللّيلة، آه، فكيف سنتصرّف؟ سيكون الرّاعي بعيداً في هذه السّاعة، وستجد الوقت لتنفق، الدّابةُ الشّقية، وهو بعد يستعدّ للقدوم. رحماك، يا إلهي! ثمّ هزّ رأسه، وهو ينقر على المائدة بمقبض السّكين.

- حسناً، وأنت يا رجل، ألا تشرب البتّة؟ ألا يلذّ لك شرابي؟

شعر جاك برأسه يدوخ في هذه الغرفة الصّغيرة التي تمتلئ بروائح أغصان الكرمة المحترقة في الموقد، فقال:

- أنا أختنق. ثمّ نهض ووارب الباب وتنفّس هواءً نقيّاً، هواءً مُعطّراً بالرّائحة المفاجِئة للخشب المبلّل المخلوطة بالرّائحة الدافئة المعطّرة بروث البقر. هذا جيّد، قال، ومكث على عتبة هذا اللّيل الريفيّ الذي لا نستطيع أن نرى فيه شيئاً على بعد خطوتين أمامنا. كانت خيوط مطرية دودية تسقط أمام حدقتيه الموسّعتين في الظّلام. غير أنّ خِذلان النّظر هذا لم يدم سوى لحظة، لأنّ اللّيل استنار في البعد، فثقبت العتمةَ نُقطةُ ضوء، وامتدّ لسانها وقسم الضّوءُ العمّةَ نورين التي بدا جسدها ضخماً ومُنثنياً قسمين كما لو على مفصلة، السّاقان مخفيّتان أسفلَ في العشب وجذعها مع الرّأس مستقيمان، فوقُ، على قمّة شجرة.

كانت بالفعل تتقدّم، يسبقها ظلّها المهتزّ على وقع ضوء المصباح.

- ماذا وراءك يا عمّة، كيف هي حال العظاءة؟

- لا أعتقد أنّ الأمر سيحدث فعلاً هذه اللّيلة. ستلد لاحقاً، في منتصف نهار يوم غد.

دخلا وجلسا إلى المائدة.

- خذ، تذوّق كي ترى، قال الشيخ، وهو يُقدّم لجاك جبن البلد الرّهيب، الجبن الحائل، كما يُسمّونه، وهو نوع من جُبن طريّ يُعدّ في منطقة بْري، صلب، لونه شبيه بلون ضرس قديم، تفوح منه رائحة الأسنان النّخرة وبيوت الرّاحة.

رفض جاك قائلاً:

- غلب النّوم لويزا، هيّا لننام.

- الأمر يا صغيرتي هو أنّنا لا نسمع صوتك البتّة، لكن، هنا، النّوم ليس مستعجلاً إلى درجة أنْ لا نشرب كأس نعناع. فحرّكت العمّة نورين النّار، وهي تُغمغم: أَبَرُدَ قعر هذا الموقد إذن؟ في حين كان الشّيخ يُخرج من الخزانة علبة أعشاب.

- ليس ثمّة ما هو أفيد منه للمعدة، قال مُؤكّداً وهو ينتقي الأوراق، لكنّ الباريسيَّين كشّرا بوجهيهما عندما تذوّقا هذه النّقاعة التي كانت تبدو كمثل ماء غسل الفم بمعجون.

فضلاً شراب الكونياك الذي أتت به العمّة في قنّينة مجزّأة بعلامات، وبإلحاح منهما، لبس الأب أنطوان خفّيه وأنار مصباحه فقادهما إلى القصر.

2

عندما ولجا الغرفة، تهالكت لويزا على كرسيّ. كانت الإثارة القوية للنهار قد بلغت بها كلّ مبلغ، فشعرت بتعب شديد، دماغُها موحش ونُخاعها مُنهك.

أعدّ جاك الألحفة حتّى تستطيع لويزا أن تنام، ثمّ وضع حقيبته على المائدة وأخذ، جالساً أمامها، يُخرج أوراقه، موطّناً على أن يربطها وأن يُرتّبها في خزانة في صباح الغد عندما يستيقظ.

رغم المسافة الطّويلة التي كان جاك قد ذرعها هذا اليوم، فإنّه لم يكن يُحسّ البتّة بالإنهاك الذي عادة ما يُدفئ الأطراف، لكنّه كان يشعر، بالمقابل، بأنّه ينهدّ بتعب روحيّ لا نهائيّ، وبإحباط لا حدود له.

كان ينظر، مرفقاه على المائدة، إلى الشّمعة التي لم يستطع نورها أن يُبدّد ظلمة الغرفة، فاستولى عليه إحساس بضيق شديد. بدا له أنّ هناك امتداداً مائيّاً خلفه، في الظّلمة، يُثلّجه بنفَسِه المبقبق. انتصب واقفاً وهزّ كتفيه، مُرجعاً هذه الارتعاشة إلى الرّطوبة المفرطة وإلى البرد الكثيف المخيّم في هذه الغرفة.

تفحّص زوجته. كانت مضطجعة على السّرير، شاحبة، عيناها مُواربتان، وقد شاخت عشر سنوات بفعل الانشداد المفاجئ لأعصابها.

ذهب ليطمئنّ على الأبواب، لكنّ المزاليج بدت مُعطّلة، ورغم المجهود الذي بذله عاندت المفاتيح رافضةً أن تدور، فوضع في نهاية المطاف كرسيّاً لصق باب المدخل ليحول دون انفتاح المصراع، وعاد إلى النّافذة، مُتملّياً العتمة عبر الزّجاج، ثمّ نام وقد أضناه الانزعاج.

بدا له الفراش خشناً والوسادةُ واخزةً بألياف التبن المسّننة التي حُشيت بها. تكوّم على جانب السّرير حتّى لا يُوقظ زوجته الغافية، وشرع، مُمدّداً على ظهره، يتفحّص، قبل أن يُطفئ الشّمعة، جدارَ مخدع النّوم المنجّد كمثْل جدران الغرفة كلّها بالورق المتعرّشة عليه أغصانُ كرمة.

جعل يُلطّف قلقه بانشغالات آليّة لا جدوى منها. راح يَعدّ مُعيّنات التّلبيس الخشبيّ، مُدقّقاً في قطع الورق المُتلاصقة وغير المتناغمة رسوماتُها، وفجأة حدثت ظاهرة غريبة: جعلت الأغصان الخضراء للدّاليات، على التّنجيد الورقيّ، تتموّج بينما شرع يهتزّ العمقُ المالح للتّلبيسات وكأنّه مجرى مائيّ.

تسرّعت هذه الرّعشة المستولية على الجدار، غير أنّه بقي ثابتاً حتّى تلك اللّحظة، ثمّ أضحى سائلاً يهتزّ، لكن دون أن ينتشر. وسرعان ما ارتفع هذا الجدار وثقبَ السّقف فأضحى شاسعاً وتباعدت حِجَارته السّائلة ثمّ انفتحت ثغرة عظيمة، في شكل قوس رائع تمتدّ تحته طريق.

ورويداً رويدا، انبثق قصر، في عمق هذه الطّريق، وبدأ يقترب فأدرك التّلبيسات ودفعها واختزل هذا الرّواقَ السّائل إلى إطار مُستدير كمثل مشكاة، في الأعلى، ومستقيمٍ في الأسفل.

هذا القصر الذي كان يصعد في السّحب بتنضيدات أسطحه وبأفنيته وبحيراته المطوّقة بشطآن برونزية، وصوامعِه بياقاتِ شُرفاتها الحديدية، وقبابه الصّدفية، ومسلاّته المتعدّدة ذات القمم المغشّاة مثل قمم جبال بثلج أزليّ، هذا القصر انبقر دون ضجيج، ثمّ تبخّر، فبدت قاعة عملاقة مُبلّطة بالرّخام ومسنودة بأعمدة واسعة تويجاتها مُزخرفة برسومِ حنظلٍ من برونز وزنابقَ من ذهب.

وخلف هذه الأعمدة كانت تمتدّ أروقة جانبية مبلّطة بحجر البازلت الأزرق وبالمرمر، وعوارضُ سقوفِ هذه الأروقة من خشب الشّوك والأرز، أمّ الأسّقف فمُجوّفة ومُذهبّة كالصّناديق التي تحوي رفات القدّيسين، ثمّ، في الجناح نفسه، في طرف القصر المستدير كالقباب الزّجاجية في بعض الكنائس، تنطلق أعمدة أخرى إلى مَساند قبّة ضائعةٍ، كأنّها مُنقذفة، حائمة في الفضاءات الهاربة ولا ضفاف لها.

وحول هذه الأعمدة المجتمعة فيما بينها بتعريشات من نحاس مورّد، كانت تنتصب دالية من الجواهر المُصلصِلة، تشتبك فيها خيوط تطريز من فولاذ رابطةً أغصاناً لحاؤها من برونز وتنزّ بصمغ لامع من زبرجد وبشمع مُتقزّح لأحجار كريمة لبَنِية اللّون.

كانت تتسلّق في كلّ مكان أغصانٌ قصيرة مُثقلة بالعناقيد الموزّعة على حجارة متفرّدة، وفي كلّ مكان كان يتّقد أتون بخشب كرمة غير قابل للاحتراق، تُغذّيه جمرات معدنية من أوراق مقدودة من الأشعّة الخضراء، الأشعّة الخضراء المنيرة للزّبرجد، والخضراءِ الصّافية للزّمرّد والخضراء المزرقّة للزّمرّد الرّيحانيّ. في كلّ مكان، من الأعلى إلى الأسفل، في قمم الأعمدة وفي أسفل سيقانها، كانت الكرمات تُبدي عنباً من ياقوت أحمر ومن جواهر، وعناقيدَ من الحجر الصّوانيّ والبِجاد، وعنباً أبيض من حجر يمانيّ وعنبَاً مِسكِياً رمادياً من زبرجد زيتونيّ ومن مروٍ، ناشرة باقات رائعة من ألقٍ أحمر وألق أرجوانيّ وألق أصفر، صاعدة في تسلّق شبيه بألسنة لهب النّار، فتجعلنا رؤيتُها نعتقد بالاحتمالية المضلّلة لقطافِ عنبٍ مستعدّ لأن يلفظ تحت برغيّ المعصرة عصيرَ خمرته الطّريّ المُبهر بتأجّجه.

هنا وهناك، في فوضى الأوراق والتعريشات، كانت الدّاليات تسيح، في الهواء، فتتلقّفها أوراقها التي انقلبت حبالاً في أغصان شكّلت مهداً، تتأرجح في أطرافها رُمّانات رمزية تُداعب فتحاتُها النّحاسية القرمزية قمّةَ التُّويجات القضيبيّة المنبثقة من الأرض.

كانت هذه النّباتات العجيبة تُشرق في ذاتها. ومن كلّ الجهات كانت أحجار السّبج والجواهر المِرآوِيةُ التي تُرصّع الأعمدة، تُكسّر الأشعّةَ وتُشتّتُها، فإذا بأشعّةِ الجواهرِ التي يعكسها في الأوان نفسه بلاطُ حجرِ البازلت الأزرق، تغمر الأرضيةَ بِهَمرةٍ من النّجوم.

فجأةً دوّى أتون الكرمة وكأنّ تأجّجه قد وصل أقصاه، فأُنير القصر من أسفله إلى أعلاه، وبدا ملك على ضرب من سرير، جامداً في لباسه المخمليّ، مُستقيماً وسط صدريات من ذهب مُطرّق، تلمع بأحجار كريمة ومُرصّعة بفصوص رفيعة، يعتمر رأسُه تاجاً في شكل بُرج، لحيته مفصولة خصلاتُها ومفتولة على منوال أنابيب صغيرة، وجهه ذو لون رماديّ خمريّ كلون الحِمم، ووجنتاه العظميتان ناتئتان أسفل عينيه.

ركّز نظره على رجليه، وكان هائماً في خيالاته، مُستغرقاً في صراع روحيّ، مُتعباً ربّما من لا جدوى السّلطة المطلقة ومن الآمال التي تَبعثُها ولا يُمكن إدراكها. يُستشعَرُ المحْلُ من كلّ فرحةٍ في عينيه النّديتين والمغمّمتين كمثل سماء دانية، كما يُستشعر منهما البرءُ من كلّ ألم، واندحارُ الكراهيةِ المتأجّجة والعدوانيةِ الخالية من المتعة التي عادة ما تنتج عنها.

رفع رأسه أخيراً، ببطء، ورأى فتاةً واقفة، مائلة، لاهثة وصامتة، أمام شيخ ذي رأس بيضاويّ الشّكل وعينين مثقوبتين منحرفتين على أنف يقطينيّ، وجنتاه خاليتان من الشّعر ومُحبّبتان كمثل جلد الدّجاجة، ورخوتان.

كان رأسها عارياً وشعرُها الشديد الشّقرة والباهت بفعل المساحيق والمحشور في مَشابكَ ينعكس منها لون بنفسجيّ، يبدو مثل خوذة تُغطّي مُجمل رأسها، حاجبة أعلى أذنيها ونازلة على أعلى جبهتها كمثل قُبّعة شمسية قصيرة.

كان عنقها الصّافي بقي عارياً، ليس فيه أيّ حلية، خالياً من أيّة جواهر، لكن كتفيها كانتا بارزتين، ولباس ضيّق يُظهر تفاصيل جسدها، ضاغِطاً على شَكلِ ثدييها الوَجِلين، شاحذاً حلمتيهما الصّغيرتين، مُبرزاً بوضوحٍ جذعها المتموّج، مُظهراً ردفها، زاحفاً على القوس الضّيّق للبطن، مُنسدلاً على السّاقين المجتمعتين والواضحتين، فتبدوان كأنّهما في غمد. هو لباس لونه لون حجر كريم برتقاليّ مُحمرّ، مشوب بلون بنفسجيّ أزرقَ، في شكل ذيل طاووس، مُبقّع بعيون بآبِئُها من ياقوت على حدقات من ستان فضّي.

كانت حديثة السّن، لم تكد تبدأ تنمو، شكلها شبيه بشكل غلام، ميّالة إلى البدانة، شديدة الرِّقة بادية عليها الهشاشة. عيناها ذواتا الزّرقة النباتية منسحبتان نحو الصّدغين بفعل خطوطٍ صباغةٍ ليلكية، مظلّلتان من أعلى لجعلهما تتراجعان. وشفتاها الجميلتان متأجّجتان بامتقاعٍ ما فوق إنسانيّ، امتقاع نهائيّ ناتج عن إزاحة مقصودةٍ للأصباغ. وكان العطر الغريب الذي يتضوّع منها، عطرُ الأرواح المترابطة، والقابلُ للتّمييز، يُفسِّر هذا البياض المخدوع بقدرة العطور على جعل الجلد يتحلّل ونسيجِ الأدمة يفسُدُ إلى الأبد.

كان هذا العطر يطفو حولها، ويُبهجها، إن أردنا التّعبير بهذه الطّريقة، بفعل هالةٍ من روائح، ويتبخّر من جسدها بدفقات خفيفة أحياناً وكثيفة أخرى.

على طبقة أولى من المرّ المكّاويّ، الموسوم برائحة صمغيّة مباغتة، وبانبجاسات ذات مرارة تكاد تكون فظّة، والذي يفوح منه أريج أسود، كان زيتُ ثمر الأترجة قد أخذ مكانه، مُتحرّكاً وطريّاً، يفوح برائحة خضراء، وضَعت لها حدّاً الخلاصة الاحتفاليّة لبلسم يهودا الذي يُهيمن فيه اللّوين الأصهب، والذي بدوره تُطوّعه، وكأنّها تسترقُّه، الانبعاثاتُ الحمراء للُّبَان[3].

كانت واقفة هكذا في لباسها الذي تتأكّله ألسنة لهب زرقاء، والرّطبِ بما يفوح منه من روائح، يداها خلف ظهرها، قفاها مندفع قليلاً على عنقها المنتصب، فظلّت ساكنة، لكن كانت تعبرها بين لحظة وأخرى ارتعاشات، فتضطرب عيناها الشّبيهتان بياقوتتين، متلألئتين، في حدقتيهما النّسيجيتين المتحرّكتين بفعل عَجَلَة الثّديين.

عندئذ اقترب منها الرّجل ذو الرّأس الأملس والبيضاويّ، فأمسك بكلتا يديه باللّباس الذي انزلق، فانبثقت المرأة، عارية تماماً، بيضاء وكامدة، حنجرتها تكاد لا تبرز، مُحاطة بخيط من ذهب، ساقاها رشيقتان، فاتنتان، بطنها مُزدانٌ بسرّة مزيّنة بذهب مصقول، مموّجٌ من أسفل بما يُشبه شعيرات ذات انعكاسات خبّازية اللّون.

تقدّمت خطوات، في صمت القباب، ثمّ جثت وقد تضاعف الامتقاعُ الثّابت لوجهها.

عكَس رُخام البلاطات جسدها، فبدا لها كامل العراء. كانت ترى نفسها كما هي، دون أن يسترها ثوب رقيق أو يحجبها حجاب، تحت النّظرة المذهولة لرجل. الاحترام الوجِل الذي كان يجعلها، قبل لحظة، ترتعش أمام الامتحان الصّامت لملكٍ، وهو ينظر في تفاصيلها ويسبرها ببطء لذيذ، قادراً، إن جعلها تنصرف بحركة منه، على الحطّ من هذا الجمال الذي يرى كبرياؤها بوصفها امرأة أنّه جمال دائم ومرغوب فيه، قريبٌ من أن يكون ربّانيّاً - هذا الاحترام تحوّل إلى حشمة مُدلّهة، إلى قلق متحفّز لعذراء سُلّمت إلى المداعبات الباترة لسيّد لا تعرفه.

كان رُعبُ ضمّةٍ مدمّرةٍ يعنّف جلدَها الذي زادته العطور رفعةً، ويهرس جسدَها المحتفظ بكلّ بهائه، ويفترع حُقّةَ كشحها المغلقة ويغتَصبها، فيما ينبعث، متجاوزاً خيلاء المجد، نوع من التقزّز من محرقةٍ مذمومةٍ، دون أدنى ارتباط بالغد ربّما، ودون لعثماتِ حبّ شخصيّ يخاتل الألمَ الجسديّ للجرح بتصنّعاتٍ متأجّجةٍ للرّوح؛ ذلك كلّه دمّرها. ومن الوضع الذي احتفظت به، مُباعدة ما بين أطرافها، لمحت أمامها، في مرآة البلاط الأسود، التّويجين الذّهبيين لثدييها ونجمةَ الذّهب في بطنها، وتحت ردفها المفتوح رأت نقطة ذهب أخرى.

سبرت عينُ الملك هذا العري الطّفوليّ، وببطء مدّ في اتّجاهها زهرة الخزامى الألماسية المثبتة في طرف صولجانه، فاقتربت هي، خائرة القوى، لتُقبّل طرف الصّولجان.

حصل ترنّح داخل القاعة الفسيحة. انتشرت كُتل ضباب، وكذلك دوائر دخان، ما جعل اتّجاهات الشّهب، بعد الألعاب النّارية، تتغمّم، والمُثُل تتقنّع باللّهب، فارتفع القصر، وكأنّه مرفوع بهذا الضّباب، يزداد ضخامة، محلّقاً، ضائعاً في السّماء، مُبعثِراً، كيفما اتّفق، بذورَ جواهره في الحرث الأسود حيث يلمع، هناك فوق، الحصادُ الفاتن للكواكب.

ثمّ تبدّد الضّباب، شيئاً فشيئاً، وبدت المرأة منقلبة، شديدة البياض، على الرّكبتين المخمليّتين، جدعها حرون تحت الذّراع الحمراء التي تحرّك جمراته.

....

قطعتِ الصّمتَ صرخة عاليةٌ تردّدت تحت القباب.

- يا أنتم، ماذا هناك؟

كانت الغرفة مُظلمة كمثل ظلام قبّة نصفية. ظلّ جاك مبهوتاً، خافق القلب، تُحرّك ذارعَه أيادٍ متشنّجة.

فتح عينيه واسعتين في الظّلمة. القصر والمرأة العارية والملك؛ كلّ ذلك كان قد اختفى.

استرجع إحساسه بما حوله، وتلمّس بالقرب منه امرأته المرتعشة.

- لكن ماذا يحصل؟

- هناك شخص ما على السّلم.

دخل فجأة في الحقيقة المطلقة. كان الأمر بالفعل حقيقياً، فهو يوجد في قصر لوربْس.

- اسمع!

سمع على السّلم، عبر الباب غير المغلق بإحكام، صوت خطوات يُلامس في البداية السلالم بلطفٍ، ثمّ يتقدّم شبهَ مترنّح، ويصطدم أخيراً بقوّة بحواجز الدرابزين.

قفز من السّرير وأمسك بعلبة أعواد كبريت. من المفترض أن يكون قد نام مدّة طويلة، لأنّ الشّمعة التي أنارت الغرفة كانت قد استُنفدت. كان قراطها ممدّداً والفتيل غارقاً في عجينه الذي يسيل في شكل هَابِطَاتٍ خضراء على طول الشّمعدان النّحاسيّ. أخذ شمعة أخرى من علبة كانت قد استُقدمت لحسن الحظّ في صناديق الأمتعة، فثبّتها في الشّمعدان وأمسك بعصاه.

كانت زوجته قد نهضت أيضاً، فارتدت ثيابها وانتعلت خفّيها، قائلة:

- سأُرافقك.

- لا، ابقي هنا، ثمّ فتح الباب بعد أن أزاح الكرسيّ.

علينا، مع ذلك، قال مُخاطباً نفسه، وهو يتفحّص الطّابق العلويّ، أن نترك لأنفسنا مجالاً للعودة. تردّد لحظة، لكنّ ضجّة صغيرة سمعها تحت، في الدهليز، جعلته يشدّ أزره. تقدّم ممسكاً بعصاه، وعند المنعطف، نزل إلى الأسفل.

لا شيء. كان ظلّه وحده يتردّد في شعاع الشّمعة المتذبذب، مُظلماً القبّةَ، متمدّداً على المدارج الرأسُ إلى الأسفل.

وصل إلى آخر الدّرجات فمشى في رواق المدخل، ودفع بقوّة باباً كبيراً ذا مصراعين فأصدر ضجيجاً شبيهاً بهزيم الرّعد في المنزل الفارغ، وولج غرفة طويلة.

هو يوجد الآن في غرفة الطّعام المتهدّمة. كان الفرن منفصلاً عن مكانه في البناء، عليه غبار كثيف، مُتفتّتاً مشمولاً بأنسجة عناكب ضخمة معلّقة كمثل أكياس صغيرة في الزّوايا كلّها. كانت ورود عفنة تلوّن الحيطان المشجّرة بشقوق، وكانت البلاطات تصطفّ، بيضاء وسوداء، بالتّناوب، أحياناً مُحدّبة وأخرى مُجوّفة.

فتح باباً آخر، فولج غرفة استقبال فسيحة، خالية من الأثاث، بستّ نوافذ ذات مصارع عليها طلاء قديم. كانت الرّطوبة قد قوّضت بوضوحٍ تلبيسات هذه الغرفة، وكانت قطع خشب كاملة قد سقطت

وأضحت مجرّد غبار. وكانت قطع من الأرضية الخشبية ممدّدة على الأرض وسط نُشارة خشب قديم شبيه بمسحوق سكّر أسمر. كما كانت أجزاء من الجدران تنسحق بمجرّد الضّرب بالقدم على الأرض، فتسقط في شكل رمل دقيق. كانت تصدّعات تتعرّج على الحيطان وتُشقّق الأفاريز مُنثنيةً من أعلى الأبواب إلى أسفلها، عابرةً المدخنة التي أصبحت المرآة فوقها سائلة في إطارها المجرّد من لونه الذّهبيّ، فأضحت حمراء قابلة للتّفتّت.

وكان السّقف، في مواضع منه، قد انثقب كاشفاً عن قرميده المُتلف وعارضاته الخشبية، وفي أخرى، احتفظ بملاطه، لكن التّسرّبات كانت قد رسمت عليه، كما لو أنّ ذلك تمّ برَشّات بول، أنصافَ كرة أرضية يصعب تخيّلها، فشابهت شقوقُه، كما يكون الأمر على تصميم مجسّم، أوديةً وجداول، ورسمت انتفاخاتُ جبس مُقشّرة قممَ جبال رقيقة وسلسلة جبال كأنّها جبال الألب.

كان ذلك كلّه، في أحايين، يُصدي، فيلتفت جاك بسرعة مُنيراً المكان الذي انبعث منه الضّجيج، لكنّ زوايا الغرفة المعتمة التي كان يستكشفها لم تكن تُخفي أحداً، وفي الجهات كلّها، كانت الأبواب التي يُواربها تُبدي مُتوالية من الغرف الخرساء والمتعفّنة، تنبعث منها رائحة القبر، في تدمّرها البطيء، مفتقدة للهواء.

ارتدّ على عقبيه، مُوطّناً نفسه على تفحّص هذه الغرف كلّها تفصيلاً، ما إن يطلع النّهار، مفكّراً في إغلاقها بصفة نهائية إن كان ذلك ممكناً. مرّ ثانيةً بالغرف التي كان عبرها عند مجيئه، مُلتفتاً مع كلّ خطوة، لأنّ الجدران كانت تتمطّط فتُسمَع فرقعات جديدة.

بدأ يفقد أعصابه من جرّاء ضغط هذا البحث الذي لا يُفضي إلى شيء. كانت العزلة المزرية لهذه الغرف تُبئسه، مع شُعور بخوف غير مُنتظر ومُرعب؛ خوف لا من خطر معروف، مؤكّد، لأنّه كان يشعر أنّ هذا الرّعب لو وجد لتبدّد عند العثور على رجل مُنكفئٍ في زاوية، هناك، ولكنّه خوف من المجهول، رعبُ أعصاب مشدودة بفعل ضجيج مقلق ينبعث في بيداء مُظلمة.

حاول استعادة هدوئه، مُتخيّلاً أنّ القصر مسكون بالأرواح، مُتوجّهاً رأساً إلى الأفكار الأكثر خبالاً، عمداً كي يُطمئن نفسه، مُحاججاً إيّاها، بطريقة حاسمة، بأنّ مخاوفها باطلة. لكن، مهما فعل، كان قلقه يتضاعف. صدّ هذا القلقَ، مع ذلك، لحظة، وتخيّل خطراً محدقاً فورياً، وصراعاً مُفاجئاً، جسداً لجسد، فولج الدهليز، باحثاً فيه بحميّة، متميّزاً من الغيظ، عاملاً بكلّ ثمن على كشف خطر حقيقيّ كي يتخلّص من خوفه.

كان قد قرّر، محبطاً، أن يعاود الصّعود، عندما دوّى ضجيج عاصف فجأةً فوق رأسه في السّلّم. كان يبدو في الهواء شيءٌ ما ضخم مالئاً بئر السلّم، مُهوّيه.

أمالت الشّمعة لسان لهبها، كما لو أنّ عاصفة دبدبته، وألقت بقذفات دخانٍ غامقٍ، مُضيئة ما حولها قليلاً. لم يُسعفه الوقت إلاّ في التّراجع وفي أن يَتثبَّتَ على قدم وأن يضرب بكلّ قوّة بعصاه الشّوكية الصلبة الجوانب، الكتلةَ المترنّحة التي خرّت وسط صرخة حادّة.

صدرت صرخة أخرى، هي صرخة لويزا التي خرجت مرعوبة وهي تميل بجسدها على الدّرابزين.

- حاذر! حاذر!

ومع نفَس قويّ كأنّه نفسُ مِصهرٍ حديدٍ، انقذفت عليه قطعتان فسفوريتان مستديرتان ملتهبتان.

عندئذ، تقهقر ثمّ ضرب، مُقارعاً كما بسيفٍ ثُقبَي النّار هذين، قاطعاً كما بحسام، ضارباً بكلّ قواه الكتلة الصّارخة المتخبّطة، وهي تصطدم بالجدران وترجّ الدرابزين.

توقّف أخيراً، مُنهكاً، ونظر ببلاهة إلى جثّة طائر خَبلٍ[4] ضخم، آخذة مخالبه المتشنّجة في خطّ خطوط دموية على الخشب.

- أوف! هتفَ جاك وهو يمسح كفّيه المبقّعتين بنقَط حمراء، لحسن الحظّ كانت عصاي معي، ثمّ صعد بالقرب من زوجته التي تهالكت، أكثر بياضاً من الغسيل، على الكرسيّ. رشّ وجهها بالماء وساعدها على العودة إلى النّوم، مُفسّراً لها بشكل سيّئ، وبصوت متقطّع، أنّ القصر كان خالياً وأنّ صوت الخطوات المسموع عن بعدٍ كان صوت أجنحة تلامس جدران السّلم، صادمةً درابزينه، خادشةً قبّته. ابتسمت بلطف وتمدّدت، مُنهكة، على الأرضية.

أمّا هو فلم يكن لديه أيّ رغبة في النّوم. وبالرّغم من ارتعاش ساقيه وعجزه عن ضمّ قبضتيه، لفرط ما كانت أصابعه فاترة ورخوة، فضّل أن يبقى مرتدياً ملابسه مُنتظراً طلوع النّهار، جالساً على كرسيّ.

عندئذ اعتور تفكيرَه تشوّشٌ غير قابل للتّفسير. كانت سُبحة أفكار متشكّلة من حبّات متنوّعة ومختلفة، تنفرط، ضاربةً ببرودٍ ذهنَه، دون أيّ رابطٍ يربط بينها، أو تتابعٍ تتلاحق حلقاته.

فكّر في البداية في الحظّ الذي أسعفه في شجّ رأس الحيوان، مانعاً إيّاه من أن يفقأ عينيه، ثمّ في هذه المرأة العارية المصقولة بالذّهب، والتي امّحت بفعل الاستيقاظ كما يُمسح رسم بممحاة. كيف أمكنه أن يرى حلماً مثل هذا؟ آه، النّهار تأخّر في البزوغ! يا لها من بداية سيّئة لقدومهما إلى الرّيف! من المفترض أنّه سيجد عنتاً في الاستقرار هنا، لأنّ هذا القصر المعزول، إن حكمنا اعتماداً على ما رأيناه حتى الآن، والبعيد عن القرية، لا يشكّل ملجأً البتّة! أيّ وضع هو وضعه، وكيف سيفعل، مع ذلك، عندما يعود إلى باريس، لكسب لقمة عيشه؟ سيّان، فللعمّة نورين عينان مُتفرّدتان! لكن، في النّهاية، بأيّة طريقة يُمكننا تفسير هذا الحلم الغريب؟ فقط لو كان هذا الصّديق القديم الذي أسدى هو

له خدمة، ذات يوم، قد أعاد له بعضاً من ماله، لكن لا، لم يردّ إليه شيئاً. يا للمرأة المسكينة!، أسرّ لنفسه وهو ينظر إلى لويزا، البيضاء في سريرها، عيناها مُغلقتان والشّفتان مُتعبتان.

ثمّ نظر عبر النّافذة، واقفاً. النّهار يطلع أخيراً، لكنّه غسقيّ جدّاً وشاحب! وكي يضع حدّاً لانعدام التّجانس ذاك في أفكاره الحزينة، أرغم نفسه على ترتيب أوراقه وربطها بخيط في حزَم، وانتهى به المطاف إلى أن نام، رأسه على المائدة، ثمّ أفاق مُنتفضاً.

كانت الشّمس على وشك الطّلوع، فأشارت السّاعة إلى الخامسة. أطلق تنهيدة رضاً رضى ثمّ أمسك بقبّعته ونزل على أطراف بنانه تفادياً لإيقاظ زوجته.

3

وقف مُنذهلاً على عتبة الباب. كان يمتدّ أمامه حوش واسع مُجتاح بدوّارات الهندباء البرية البارزة فوق أوراق خضراء زاحفة على الأرض، مُنتأة بأهداب صلبة. وكان على يمينه بئر يعلوها نوع من هيكل بوذيّ مُشكّل من صفيحة حديدية تنتهي بهلال حديديّ موضوع على قُبيبة صغيرة. وأبعد من ذلك، كانت توجد صفوف من الدُّراقِن متقطّعة على طول جدار، وفوق، كانت تبرز الكنيسة التي يختفي مظهرُها الرّماديّ الفاتر، في أماكن منها، تحت الشّبكة المبرنقة لنبات اللّبلاب، وفي أماكن أخرى، تحت اللّون الأصفر المحمرّ لكتلة من الطّحالب.

على يساره وخلفه، يقوم القصر، ضخماً، بجناح ذي طابق واحد به ثماني نوافذ، مع بُرج مربّع يحوي بئر السّلم، ثمّ، عند انثناءة الزّاوية، جناح آخر، بنوافذه السّفلية ذات الشّكل القوطيّ.

كانت هذه البناية التي شجّها العمر ورجّتها الأمطار وتآكلت بقوّة الرياح، ترفع واجهتها المُنارة بنوافذ ذات صلبان ثلاثة يتموّج عليها زجاجٌ يُشبه لونه لون الماء، مسقوفةً بقرميد داكن مشوب

بفضلات الطّيور البيضاء، في خضمّ جوّ نهارٍ باهت يسم بالشّقرة أديمَ هذا القرميد الحجريّ الملفوح.

نسي جاك الانطباع المشؤوم الذي حصل لديه بالأمس؛ فقد جمّل شعاعُ الشمس شيخوخَة القصر وتبسّمت تجاعيده الظّاهرة، وكأنّها قد تذهّبت بالنّور، على الجدران حيث يظهر صدأُ مَماسكَ حديدية متباعدة بمسافات متساوية على أديم الملاط الخشن.

ما كان عاد من وجود لذلك الصّمت الجامد ولذلك الإهمال اللّذين كانا جعلا قلبه ينقبض، اللّيلة الماضية؛ فقد بدا وكأنّ الحياة المنتهية لهذه الأمكنة، والتي كانت تدلّ عليها النّوافذُ العارية عن الستائر والمفتوحةُ على الدهاليز الموحشة، والغرفُ الفارغة - كانت مستعدّة للعودة، وسيكون كافياً تهويةُ الغرف وإيقاظُ، بصرخاتٍ، التّصويتَ الغافي فيها، حتّى يعود القصر ليحيا وجوده المتوقّف منذ سنوات.

ثمّ، وفي الوقت الذي كان الرّجل يتفحّص فيه القصر ويُدقّق في الواجهة، مُكتشفاً أن تاريخ الطّابق والسّقف يعود إلى القرن الماضي، بينما يصعد تاريخ قواعِدِه إلى زمن القرون الوسطى، جعله ضجيج عالٍ يلتفت. وأثناء رفعه رأسَه لاحظ أنّ هذا البرج المستدير، الذي لمحه بالأمس، لم يكن جزءاً من القصر كما كان اعتقد؛ فهو معزول في فناء دواجن ويقوم مقام برج للحمام. اقترب وتسلّق سلّماً خرباً فأزاح مزلاج الباب ومرّر عنقه.

أصابه بالرّعب هياجُ أجنحة تتكادم محموقةً في أعلى البرج، في الأوان نفسه الذي وخزته في «موكوز» أنفه وجوانب عينيه رائحةٌ قوية لمحلول النّشادر. تراجع إلى الوراء، يكاد لا يلمح، عبر دمعاته، ما يوجد داخل برج الحمام هذا المجوّف كمثل خلية نحل، موجودٌ به في الوسط سلّم منتصب. وقد لمح أيضاً أثناء انسحابه ثلجاً من بياض زغب الطّيور مشمولاً بشعاع من نور يمتدّ من كوّةٍ أعلى البرج إلى الأسفل.

التجأ كلّ حمام البرج الهارب إلى سطح القصر، فكان جميعه يصطخب بأجنحته ويتمطّى ويُنفخ ريشه مزدهياً، مُحرّكاً، في نور الشّمس، ظهوره ذات الانعكاسات المعدنية، وصدوراً كأنّها من فضّة مشرقة مُلمّعة بلون أخضر ضارب إلى الصّفرة وبآخر ورديّ، وحناجرَ من ساتان مُرتعش؛ كان ذلك كلّه كأنّه التماعة من شراب وقشدة، من لون فجريّ وآخر رماديّ.

بعد ذلك طارت مجموعة منه، في دائرة، حول قمم مَداخن عالية، ثمّ انفرط الإكليل، فجأة، فتناثر الحمام من جديد على البرج الذي أضحى سقفه مُعتمِراً قلنسوة من الرّيش هادلةً.

أدار جاك ظهره للقصر، ورأى، قبالته، في طرف الحوش، حديقة خرقاء، وأشجاراً تصعد بجنون في السّماء.

اقترب، فتبيّن حدائق عتيقة في شكل لوزيّ، لكنّ شكلها هذا كان يكاد لا يظهر. أغراس البقس التي كانت تحفّها قديماً، صار بعضُها ذاوياً ونبتت أخرى، كما كانت قد نبتت أيضاً أشجار، فبدت، كما

يكون الشّأن في المقابر، وكأنّها تُظلّل قبوراً ضائعة تحت النّباتات. هنا وهناك، وسط هذه الأشكال البيضاوية العتيقة المجتاحة بنبات الحرّق والعلّيق، كانت تنبثق بعض أيكات زهور وقد عادت إلى طابعها الوحشيّ، باذرةً هذا الرّكام من الحبّات الشّبيهة بحبّات الزيتون الوليدة لثمر الورد البرّيّ الضّارب إلى الحمرة. أبعد من ذلك، كانت تنبت بطاطس قادمة من حيث لا ندري، مثلها مثل نبات خشخاش وأعشاب نفلٍ تسلّلت إلى هناك، دون شكّ، من الحقول. أخيراً، في حوض آخر، كانت نباتات أفسنتين تُخالط نباتات خرقاء ذات شذىً هشّ شكلها شكل أقراص مذهّبة.

مشى جاك في اتّجاه بساط عشبيّ، لكنّ عشبه كان قد ذبل مخنوقاً بالطّحالب. كانت قدماه تغوصان مصطدمتين بقاعدة البناء المدفونة وببقايا جذوع الشّجر المطمورة منذ غابر الأزمنة. حاول اتّباع ممرّ ظلّ شكله ظاهراً قليلاً، مُعرقَلاً بأغصان الشّجر التي لم يسبق لها أن شُذّبت.

من المفترض أن تكون هذه الحديقة قد غُرست قديماً بأشجار فاكهة وبورود؛ ففيها أشجار بندق ضخمة كمثل أشجار السنديان، وأشجارُ سمّاق ذات جذوع قصيرة لونها بنفسجيّ مسودّ مُزَقّت كمثل الكشمش، مُدخلةً أذرعها في الرّؤوس المفلوجة لأشجار تفّاح قديمة ذات جذوع مقطومة وجروح مُضمّدة بنبات بهق الحجر. تجمّعات من ثَمرِ سَنَا الكاذب تُحرّك فصوص تَفتِتها تحت الأشجار الغريبة التي كان جاك يجهل موطنها واسمها، أشجار مُدبّبة بقبيبات رمادية، هي نوع من جوز الطّيب، رخوة، تخرج منها أصابع صغيرة بأظافر، رطبة، وردية اللّون.

في تزاحم النّباتات هذا، وفي هذا الخليط من الخضرة، تنطلق، على هواها، وفي كلّ الاتّجاهات، أشجار الصّنوبر وما يدخل في جنسها وأشجار التّنوب وأشجار الرّاتنجية والسّرو؛ بعضها ضخم في شكل هياكل بوذيّة ذات طوابق متعدّدة، مُؤرجحةً الأجراس السّمراء لفاكهتها، وفي بعضها الآخر تلمع حبّات بلّوط حمراء، وأخرى مُحمّلة بحبّات مزرقّة مُضلّعة الشّكل. وكانت كلّها ترفع كتلتها المنتأّة المدبّبة، بجذوعها المستديرة العملاقة، تتخلّلها تشقّقات تسيل منها دموع راتنج أبيض، كأنّه قطرات سكّر مُذاب.

تقدّم جاك على مهله، مزيحاً من طريقه أغصان الشّجيرات الطّرية، واطئاً تجمّعات نباتية صغيرة، لكنّ الطّريق سرعان ما أضحت غير سالكة. كانت أغصان دانية تقطع الممرّ، مُنسحبةً على الأرض ومفتولة، قاتلةً كلّ نبات يقع تحتها، زارعةً الأرض بآلاف الأشواك السّمراء، بينما كانت أغصان كرمة تمتدّ من طرف الطّريق إلى الطّرف الآخر في الفراغ، فتتشبّث بجذوع شجر الصّنوبر مُتسلّقةً حولها مُنفتلةً حتّى تُدرك قممها، فتعمل، عالياً، في السّماء، على تحريك عناقيد عنبها الأخضر المظفّرة.

كان جاك يتفحّص، مُنبهراً، هذه الجمهرة من النّباتات والأشجار. مُنذ متى تُركت هذه الحديقة وأهملت؟ هنا وهناك تنمو سنديانات وتتقاطع، ولكونها ماتت بسبب عمرها المديد، فقد أضحت سنداً للنّباتات الطّفيلية المنتشرة بينها والمتعرّشة في شكل حبال رقيقة مشكّلةً دوائر، مُعلّقة، وكأنّها شبكات ذات زردات خضراء، مملوءة بصيد ريفيّ من الأوراق. شجرات سفرجل وكمّثرى تنتصب أبعد، لكنّ نسغها الضّعيف كان أهمَدَ من أن يُنتج فاكهة. كلّ زهور الحديقة المفلوحة كانت قد ذوت، فيبدو حالها شبيهاً بمتاهة من الجذور لا مخرج منها ومتعرّشة، بسبب اجتياح نباتات النّجيل

وترامي البقليات ذات البذور التي استقدمتها الرّياحُ، والخضارِ غير الصّالحة للأكل والألباب الصّوفاء والأشكال المشوّهة والمحمّضة بالعزلة التي تجتاح هذه الأرض الموات.

وكان الصّمت المقطوع أحياناً بصيحات طيور مذعورة ونطّات أرانب منزعجة فارّة، يسود هذه الطّبيعة الفوضوية، هذه الثّورةَ التي أطلقتها أصناف نباتات المَزارع وشيلمُها، فأضحت أخيراً سيّدة لأرض مُخصّبة بمقتلة العطور الإقطاعيّة والزّهور الأميريّة.

فكّر جاك، بألم، في هذه الطّريقة الصّلفة التي تقطع بها الطّبيعةُ الطّريق والتي استلفها الإنسان منها، بخنوعٍ، بتفاصيلها كلّها.

ما أبدع جموع النّباتات، وما أروع جمهرتها! أسرّ لنفسه، رافعاً رأسه، ثمّ قفز فوق الغصون الدّانية وأزاح أغصان الشّجيرات الطّرية التي عادت للانغلاق خلفه، سادّةً الطّريق، فأفضى به السّير إلى سياج حديديّ. هذه الحديقة لم تكن، في المجمل، واسعة جدّاً كما كانت بدت له أوّل الأمر، لكنّ مُلحقاتها كانت تبتدئ بعد السّياج. ممرّ أسياد، تتخلّله قطائع، ينزل عبر الغابة نحو باب بسيط من خشب السنديان، مُتّصلاً بطريق لونغفيل.

ضغط على هذا السّياج، فارتجّ لكنّه لم ينزح، مُعاقاً بطحالب ملتوية ومتقصّفة في أسفله، بينما كانت نباتات متسلّقة قد تشبّكت على أعمدته التي التفّت حولها أيضاً تعليقات لبلاب تُعطّر الجوّ بشذى لوزيّ. التفت من جديد ووطأ أشجاراً طريّة نابتة على بقايا أيكة قديمة تتكسّر أغصانها الميّتة تحت حذائه فتنطّ كمثل شظِيّات زجاج، وانتهى به المطاف إلى ثقبٍ محفورٍ في الجدار، خرج منه فألفى نفسه خلف السّياج.

عندئذ لمح آثاراً لقنوات لا يزال بعضٌ منها مُحتفظاً بمزَق مجارير مياه فاغرة أفواهها بنبات خشخاش، أعناقها مشدودة بحبال من نبات الدّودية الأرجوانية وأغصان كرمة برّية مُلتفّة. ألفى نفسه في طرف غابة من السّنديان وأشجار البلّوط. مشى في ممرّ، لكنّ الطّريق سرعان ما غدا غير سالك. كان نبات اللّبلاب يلتهم هذه الغابة التهاماً، مُغشّياً الأرض، مالئاً التّلاع، مُسوّياً الأكمات، خانقاً الأشجار، ممتدّاً إلى أعلى كمثل غربال واسع الثّقوب، وإلى أسفل كأنّه حقل مثقوب، بلون أخضر مسودّ، يتخلّله هنا وهناك نبات كأنّه ريش بلشون لونه أحمر قانٍ.

كان إحساس بالغسق وبالبرد ينزل من قباب الشّجر الكثيفة هذه، وهي تَنخُل ضوءاً مُجرّداً من النّور الذّهبيّ مُقتصرةً على تصفية نور بنفسجيّ على الكتل المعتّمة للأرض. وكانت رائحة قويّة لاذعة شبيهة برائحة بول الخنازير البرّية تصعد من الأرض المتلفة بركام الأوراق والآهلة بحيوانات الخلد والمرتجّة بالجذور والمهدّمة بالماء.

استولى عليه من جديدٍ هذا الانطباع بالرّطوبة الذي كان أصابه بالبرد، أمس، عندما خطا خطواته الأولى في القصر. اضطرّ للوقوف، لأنّ ساقيه كانتا تغوصان في الحفر، مُتعثّرتين في الفخاخ التي ينصبها نبات اللّبلاب.

عاد أدراجه، مُتّبعاً حاشية الغابة وسار على طول خلفية القصر التي لم يكن قد رآها بعدُ. كان هذا الجانب المحروم من الشّمس يكتسي طابعاً حزيناً. القصر منظوراً إليه من الأمام، كان يبقى جليلاً، برغم بؤس هيئته وخراب واجهته؛ لأنّ شيخوخته تعود، في وضح النّهار، لتتملّكها الحياة، فتغدو، بشكل من الأشكال، مضيافة ولطيفة؛ أمّا منظوراً إليه من الخلف، فإنّه يبدو كئيباً وقديماً ووسخاً ومظلماً.

الأسطح التي تبدو بهيجة في الشّمس، بلونها المُسمَرّ المبقّع بذَرقِ الذّباب الأبيض، كانت تصير في هذا الظّل شديدةَ القذارة، كقعرٍ قفص مهمل، وكان كلّ شيء فيها مُتلفاً: المزاريب وقد امتلأت بالأوراق واختنقت بقطع القرميد، فانبقرت وأهرقت سائلاً شبيهاً بسائل ورمٍ على التّلبيسات المخدوشة برياح الشّمال، وواصِلاَت أقنيةِ تصريفِ الماء انفكّت وبقي بعضها معلّقاً مقلوباً مؤرجِحاً في الهواء أذرعَه الخاوية، والنّوافذ انخلعت، مُنكسرة المصاريع وقد أُعيد تسميرها ارتجالاً، مجبورةً بقطع ألواح، مُترنّحةً مجرّدَةً من العوارض الخشبية الصّغيرة التي تملأ فراغها، فاقدةً توازنها من جرّاء سقوط المفاصل التي تُثبّتها.

في الأسفل، كان سلّم المدخل المشكّل من ستّ درجات، مُنهاراً، واقعاً أسفل تجمّع نبات مشعّث، يُؤدّي إلى باب منخور اجتمعت ألواحه المشقوقة، فبدت وكأنّها مُغلقة بسواد المدخل المسدود خلفها.

وفي المجمل، فإنّ عاهاتِ شيخوخةٍ مرعبةٍ والصّرفَ المبلّل للمياه وكبريتات الجبس ووسخَ النّوافذ وقروح الحجر وبرص الآجرّ؛ كلّ ذلك شكّل نزيف قاذورات ألمّ بهذا المسكن الحقير الذي يتحلّل وحيداً في هذا الإهمال، وفي هذه العزلة المستورة بالغابة.

افتتان الأنوار هذا، وهذا الرّذاذ الشّمسيّ الذي سكّن رياح القلق العاتية التي كانت اجتاحته، بالأمس، وصل إلى حدّه، فانقبض قلبه من جديد بحزن يدقّ عن الوصف. انبعثت من جديد ذكرى اللّيلة الرّهيبة التي قضاها في هذا الخراب، مع الشّعور بالخجل -بعدما استنارت الدّنيا وأصبح النّهار وضّاحاً ينعكس نوره في ذهنه- من أن تكون أعصابه قد انشدّت بتلك القوّة في وضعه ذاك وسط العتمة.

غير أنّه شعر، مع ذلك، بأنّه لا يزال مُجتاحاً بحالات ضيق فريدة. فهذه العزلة وهذه الغابة الرّطبة وهذا النّور الذي غدا ضارباً إلى اللّون البنفسجيّ غير الصّافي تحت هذه القباب، كلّ ذلك كان مفعوله عليه شبيهاً بمفعول عتمة القصر وبرده، اللّذين يُذكّرانه بالكآبة المرَضية والبهيمة.

ارتعش وشعر، في الأوان نفسه، بالغيظ من الذّكرى المُثيرة للسّخرية المرتبطة بصراعه على السلالم مع طائر الخبَل. أراد أن يُحلّل وضعه ذاك، فاعترف لنفسه بأنّه كان آنئذ خارجاً عن أطواره، خاضعاً، ضدّ إرادته، لتأثيرات خارجية ناتجة عن أعصاب منفلتة ثائرة على عقله الذي تخلّص، مع ذلك، من حالات خوره البائسة بمجرّد عودة نور النّهار.

أرهقه هذا الصّراع الدّاخليّ مع نفسه، فعمل على التّخلّص منه بسرعة، آملاً أن يتبدّد ضيقه عندما يحلّ بأماكن أقلّ تعتيماً.

أدرك بخطىً واسعة طريقاً مُوشّى بخيوط الشّمس التي لمحها على طرف القصر وأيكة الأشجار الطريّة العود، فبدا أنّ توقّعاته جعلت تتحقّق ما إن وصل إلى الطّريق الذي يفصل بين مُلحقات القصر وممتلكات البلدة. شعر بنفْسه خفيفاً. كانت المنحدرات المُعشبة جافّة. جلس ومسح بنظرة الأبراج والبساتين والغابات، ناسياً همومه، تحت تأثير مُفاجئ لخدَرٍ دفءِ ذلك المنظر الذي كانت روائحه غير المرئية تُخلّص روحه من بردها.

مكث على تلك الحال لحظة وجيزة، فانطلقت من جديد مسيرة أفكاره العائدة إلى الوراء على الطّرقات المرعبة، التي عبرها ليلاً، لكنّها الآن مسيرة تتّصف بقدر أكبر من الدّقة. ولمّا كان قد خرج من هذه الغابة التي تثير أجواؤُها -بعودة وَسَطٍ مُماثلٍ مُتخيّل- مشاعرَ مشابهة لتلك التي عانى منها في القصر بالأمس، شعر بالخجل من تخوّفاته، مُغتاظاً من حالات ضيقه ورعبه.

مع هذا الشّعور المبهم بالخجل الذي أحسّ به وهو يلج الغابة قبل قليل، وأثناء تفكيره في الأحداث التي طرأت ليلاً، قرّ قراره، فتنفّس بعمقٍ، في الشّمس، رافضاً أن يستمرّ، كما كان الأمر تحت الأقواس الباردة للّبلاب، في هذه الارتعاشات اللاّإرادية التي سبق لها أن برَدَت فقرات ظهره، في القصر. حاول تحويل اتّجاه ذاكرته عن هذا الطّريق، والإلقاء بها في سبيل عرْضيّ، بعيداً عن القرية، بعيداً عن قصر لوربْس، غير أنّ ذاكرته عادت به مع ذلك إلى حياته الحاضرة، قافزةً فوق سنوات الطّفولة التي تذكّرها، وفوق باريس التي كان يُجهد نفسه ليضع لها في ذهنه صورة، وفوق حتّى هموم المال التي كان يستنجد بها ليتخلّص من ذكرى ليلة القصر.

هزّ كتفيه وقد فهم أنّ فكره لن يحيد عن أحداث الأمس المتسلّطة هذه، وأنّه لن يستطيع التّخلّص منها مهما تكن الجهود التي يبذلها. عندئذ أجهد نفسه في أن يجعل فكره على الأقلّ ينزاح عن حالات رعبه وأن يقوده ويُثبّته فقط على أحداث اللّيلة الماضية التي بدت له عودتها المتكرّرة أخيراً غير قبيحة. أغلق عينيه كي يصفو ذهنه أحسن، وفكّر من جديد في ذلك الحلم المبهر الذي رآه يدور أمامه، أثناء غفوته.

حاول أن يجد له تفسيراً. أين، في أيّ زمان، تحت أيّ علوّ، وفي أيّة أنحاء، يمكن لهذا القصر الضّخم أن يرتفع، بقبابه المنطلقة في العراء، وأعمدته القضيبية ودعاماته المنبثقة من بلاط مائيّ لامع وصلب؟

تاه في الأقوال العتيقة وفي الأساطير القديمة مُلتقطاً إشارات من وسط غمام التّاريخ، مفكّراً في سكّان مبهمين لباخترِيا[5] وسكانٍ لكبادوكيا[6] محتملين وشوشانيّين[7] غير مؤكّدين، مُتخيّلاً شعوباً مستحيلة الوجود يمكن أن يحكمها هذا الملك المتوّج بالذّهب والموشّى بالأحجار الكريمة.

غير أنّ شُعاعاً انبثق في ذهنه، مع ذلك، فجعلت ذكريات الكتب المقدّسة التي تتلاطم في ذاكرته، تلتحم بعضها ببعض، فتشعّبت إلى هذا السّفر حيث نجد أحشويروش، الذي يسترق السّمع إلى رجولةٍ تفنَى، ينتصب أمام ابنة أخي مردخاي، الوسيطِ المهيب، والمتحدّثِ الجليل باسم ربّ اليهود[8].

بدأت الشّخوص تتّضح على ضوء هذا الشّعاع، مرتسمةً حدودها على نور ذكريات الإنجيل، وأضحى ممكناً التّعرف عليها: الملك الصّامت باحثاً عن لحظة شبق، وإستير منقوعة، خلال اثني عشر شهراً، في الطّيب، مغطّسة في الزّيوت، مُدحرجة في المساحيق، يقودها هَيْجَايُ خصيّ الملك، عاريةً، نحو الفراش المخلِّص للشّعب.

كما اتّضح أيضاً رمز الكرمة العملاقة، أختِ العراء الشّهوانيّ -عن طريق نوح- وأختِ إستير، أخت الكرمة المتحالفةِ مع فتنة المرأة من أجل إنقاذ بني إسرائيل، بانتزاع وعد جوهريّ أثناء سُكرة باذخة للملك.

يبدو هذا التّفسير صائباً، أسرّ لنفسه، لكن كيف أتت صورة استير لتجتاحه، بينما لم يطرأ أيُّ ظرف من شأنه أن يُحيي هذه الذّكريات التي كانت خبت منذ أمد بعيد.

لكنّها لم تكن خابية إلى تلك الدّرجة، واصل القول، ما دام موضوع سفْر استير، إن لم يكن النّصُّ ذاته، يعود إلى ذاكرتي، في هذه اللّحظة، شديدَ الوضوح.

وقد عاند، رغم كلّ شيء، مواصلاً البحث عن أصول هذا الحلم ضمن العلاقات المنطقية بهذا القدر أو ذاك، والتي تصل بين أفكاره. لكنّه لم يقرأ كُتباً قد تُثير بمقطع موجود فيها تذكّراً ممكناً لاستير، كما لم يرَ أيّ منحوتة ولا أيّ لوحة يمكن لموضوعها أن يقود إلى التّفكير فيها. عليه إذن أن يُصدّق أنّ قراءة الإنجيل هذه قد كمنت سنوات في إحدى زوايا ذاكرته، حتّى إذا ما انتهت فترة الحضانة، انبثقت استير كمثل وردة ملغزة في بلد الحلم.

يتّسم هذا كلّه بغرابة شديدة، خاطبَ نفسه مُلخّصاً، وظلّ مُتفكّراً، لأنّ لغز الحلم غير القابل للسّبر ظلّ يُنغّص عليه. هذه الرّؤى، هل هي، كما اعتقد الإنسان بذلك زمناً طويلاً، رحلةٌ تقوم بها الرّوح خارج الجسد، هل هي عَدوٌ خارج الكون، وتسكّعٌ للذّهن، مُنفلت من إقامته الشّهوانية، تائهاً كيفما اتّفق في المناطق الخفيّة، نحو يمابيس سابقة أو لاحقة؟

هل للأحلام في جنونها المُحكَمِ الإغلاقِ معنىً؟ هل كان أرتميدوروس[9] على حقّ عندما دافع عن فكرة كون الحلم تخييلاً تقوم به الرّوح، دالاً على خير أو على شرّ؟ وهل كانت نظرة الشيخ بورفيريوس صائبة عندما عزا مكوّنات الحلم إلى جنّيّ يُنذرنا أثناء النّوم بالفخاخ والمكائد التي تنصبها لنا الحياة اليقِظة؟

هل تستبق الأحلام المستقبلَ وتُنذرنا بالأحداث التي ستطرأ؟ أليس إذن غيرَ معقول تماماً هذا الهذرُ العتيق الذي تلفّظَ به مفسّرو الأحلام ومستحضرو الأرواح؟

أم هل تراه، أيضاً، بحسب النّظريات العلمية الحديثة، مُجرّد تحوّل لانطباعات الحياة الواقعية وتشوّهٌ بسيط للمدارك المحصّلة سلفاً؟

لكن كيف يُمكننا إذن أن نُفسّر، اعتماداً على ذكريات، هذه التّحليقات في فضاءات لا يُمكن تصوّرها في حالة اليقظة؟

وهل هناك، من جهة أخرى، نَظْمٌ دقيق حتميّ يجمع بين الأفكار ويتمنّع خيطه على التّحليل، لأنّه خيط غير ظاهر يشتغل في ظلمة الرّوح، حاملاً الشّرارة، مُضيئاً فجأة أقبيتها المنسية، مُعيداً الرّبط بين مخازنها غير المعمورة منذ الطّفولة؟ وهل هناك، بين ظواهر الحلم وظواهر الوجود المعيش، قرابةٌ هي أشدّ إخلاصاً ممّا يقدر الإنسان على إدراكه؟ أم هل يكون الحلم بكلّ بساطة ارتعاشةً لا واعية مُفاجئة لأعصاب الدّماغ، فضلةَ نشاطٍ روحيٍّ، استمرارَ الذّهن في اليقظة، مُنشئاً أجنّةَ أفكارٍ، مزقَ صور، تمرّ عبر ثقوب مِصفَاةِ آلةٍ لم يُحكَم إغلاقُها، ماضغة في الفراغ أثناء نومها؟

وهل يجب، أخيراً، قبول أسباب ما فوق طبيعية، والإيمانُ بتخطيطات قوّة ربّانية وهي تُؤجّج الاعتمالات غير المتجانسة للأحلام، والقبولُ، في الأوان نفسه، بالزّيارات اللّيلية التي لا مفرّ منها للحُضُون وللسّقُوبة[10]، وبكلِّ الفرضيات المستبعدة التي يقول بها عبدة الشّيطان، أم أنّ الأنسب هو أن نتوقّف عند الأسباب المادّية وأن نردّ هذياناتِ الرّوح المستهامة هذه، تحديداً، إلى مؤثّرات خارجية وإلى اضطرابات في المعدة أو إلى الحركة اللاإرادية للجسد؟

من المهمّ، في هذه الحال، أن لا نشكّ أبداً في ادّعاء العلم القدرةَ على تفسير كلّ شيء، فنقتنع، مثلاً، بأنّ الكوابيسَ تنتج عن فترات الهضم، وبأنّ الحلم بالبرد القارس ينتُجُ عن برد الجسد الذي يسقط عنه اللّحاف فيبقى عارياً، والاختناقُ عن ثقل اللّحاف، وأن نعترفَ أيضاً أنّ هذا الوهم الذي يُساور النّائم بأنّه يقفز في نومه، مُتصوّراً نفسه يتدحرج على السلالم أو يسقط في هوّة سحيقة من أعلى برج، يعود فقط، كما يُؤكّد فوندت،[11] إلى مدّ لا وعٍ للقدم.

لكن، وحتّى عندما نفترض وجودَ تأثير للمثيرات الخارجية، كضجيج خافت أو ملامسة خفيفة أو رائحة مكثت في غرفة؛ وحتّى لو قبلنا بعامل احتقان الدّم في الأوردة أو بطء نبض القلب أو سرعته؛ وحتّى لو رضينا بالاعتقاد، مثل راديستوك، بأنّ أشعّة القمر تُؤدّي بالنّائم إلى الوصول إلى رؤىً رمزية؛ فإنّ هذا كلّه لا يُفسّر لغز الرّوح التي تغدو حرّة مُنطلقة في تحليقها وسط مناظر من عالم سحريّ، تحت سماوات جديدة، عبر مُدن منبعثة من جديد وقصور مستقبلية ومناطق ستوجد لاحقاً. ثمّ إنّ هذا كلّه لا يُفسّر بالخصوص هذا الدّخول الوهميّ لاستير إلى قصر لوربْس!

إنّ هذا لأمر مُحيّر، غير أنّ من المؤكّد أيضاً، أسرّ لنفسه، أنّ العلماءَ يُبدون بعض التردّد، مهما يكن الرّأي الذي يرفعون صوتهم دفاعاً عنه.

هذه التّأملات التي هي بلا طائل عملت، على الأقلّ، على تحويل مجرى جدول أفكار جاك التي انزاحت عن منبعها الأوّل. بدأت الشّمس تُدفئ ظهره، مُجريةً، بالرّغم منه، ابتهاجاً سائلاً في عروقه. انتصب واقفاً ونظر خلفه إلى المنظر الذي يبتدئ امتداده من أمام قدميه. على مدى البصر، على مسافة فراسخ تامّة الانبساط، كان ثمّة منظر مُقسّم بطريقين مُتقاطعتين في شكل صليب أبيض طويل، يسري بين ذراعيه، مَدفوعاً بالرّيح، دُخانٌ مشوبٌ بخضرةِ نباتِ الجودر وباللّون البنفسجيّ للبرسيم، والورديّ لعشب العنبريس ونبات النّفل.

شعر بالحاجة إلى المشي، لكنّه لم يُرد العودة من الطّريق نفسه، فسار على طول جُدران صاعدة، يعُوج أحياناً، مُتقدّماً بتوءدة، مُحدّب الظّهر، مُستمعاً للأزيز البطيء للهواء، مستنشقاً رائحة الأرض في الرّيح التي تكنس الطّريق. شرع يتجوّل بين أشجار التّفاح والكروم، وفجأةً لمح باباً مواربا، فوجد نفسه في بستان يبدو في طرفه برج الحمام.

- أنت هناك! قال صوت قادم من جهة اليسار، بينما كانت جلبة عجلةٍ ناقلةٍ تقترب منه.

إنّها العمّة نورين.

- قل لي! هل الأحوال على ما يُرام هذا الصّباح، يا ابن الأخ؟

ثمّ وضعت ذراعي النّاقلة على الأرض.

- نعم... والعمّ أنطوان؟

- هو يشتغل في الحوش الآن، هو يغسل النّحاس.

- يفعل ماذا؟

- يغسل النّحاس.

وأمام هيئة جاك المتسائلة، أطلقت العمّة نورين قهقهة.

- أجل، هو يغسل برملٍ صلصاليٍّ القدرَ الوسخ.

فهم جاك، أخيراً، فقال:

- يغسل نحاس القدر؟

- نعم يغسل نحاس القدر، فمن أيّ شيء هي مصنوعةٌ القدْر؟

- وبقرتك الحامل؟

- لا تُحدّثني عنها، لا تُحدّثني يا ولدي. يا للدّابة المسكينة، عندما أُفكّر فيها! الأمر يُزعجها، هو ينجذب لكنّه لم يخرج بعد. سأذهب، لأنّ عليّ كما تعلم أن أمشي للإتيان بالرّاعي، فهو أعلم بها.

ثمّ واصلت طريقها، مستقيمةً تحت قبّعة القشّ التي تعتمرها، ملفوفة في صدريّتها التي هي بلا أكمام، الكليتان تهتزّان بفعل خطوها العسكريّ، يرتعش مرفقاها بفعل تحرّك النّاقلة التي تمشي قُدّامها.

- نلتقي بعد قليل، مُرّ من هنا -ودلّته بحركة من رأسها على ممرّ صغير ليتّبعه، فلمح في آخره، فعلاً، في بركة من نور، العمَّ أنطوان آخذاً في تجلية قدر من نحاس.

لامس بأصابعه أصابع العمّ.

- كنت منذ قليل برفقة لويزا، قال الأب أنطوان وهو يضع قدره على الأرض.

- هي استيقظت إذن؟

- أجل، ويبدو حتّى أنّ اللّيلة لم تكن طيّبة. ثمّ أضاف أنّه وزوجته كانا مضطرّين، بالأمس، لقتل خبَلَين جاءا ليستقرّا في الغرفة.

- أوه، لا وجود لخطر هنا، واصل الشيخ القول، بعد لحظة صمت، كما لو كان يُحدّث نفسه أو يُعيدُ الجواب الذي ساقه عن سؤال كانت لويزا دون شكّ قد طرحته عليه. غير أنّه، على أيّ حال، وأنت تعرف ذلك، عليك ألّا تُخاطر بالذّهاب بعيداً جهة الغابة.

- آه! ولماذا؟

- حسناً، لأنّ فيها صيّادين خارج القانون لا يُحبّون أن يُزعجهم أحد.

- لكن ما دُمتَ حارساً، عليك بمطاردتهم، أعتقد.

- دون شكّ، دون شكّ، لكن هل تعلم يا ولدي أنّني في هذه المهنة لا أجني شيئاً، أفليس أحسن أن يأكلوا هم الأرانب وأن يبيعوها لي بثمن بخس. وغمز الشّيخُ بعينه. لكن اجلس، أمامك ما يكفي من الوقت، ما دامت زوجتك توجد الآن في مكان بعيد، في سافين، برفقة أختي. وأنت تعرف أنّ أرماندينا، أختي الشّقيقة، التي اصطحبتها في سيارتها قصد التّبضّع، لن تعود قبل حلول السّاعة الواحدة.

جلس جاك قريباً من أنطوان على جذع شجرة.

عندئذ تعرّف على المنزل الصّغير الذي تناول فيه عشاءه أمس. بدا له في ضوء النّهار أشدّ بؤساً، وأوطأ، بسقفه الذي أُتلف قشّه وبابِه الشّبيه بباب إسطبل وحظيرته المترنّحة المستندة إليه، مليئة بحزم الكلأ والبراميل وأدوات تجريف الأرض.

أقبلت في اتّجاهه رائحة زريبة البقر، دافئة، تحت سماء صفيحيّة صفَت خلال اللّيل فأضحت مُسطّحة لا سحاب فيها، تكاد تكون زرقتها قاسية. انتهى الأمر بجاك إلى أن لم يعد يُنصت للشّيخ الذي واصل ثرثرته بلغته المحلّية، وجهه مُذهّب بانعكاسات قدْره.

جعل يُدير بين أصابعه، بآليّة، ساق هندباء برّية جوفاء فيسقط زغبها على سرواله ويُزيحه نقراً بأظافر أصابعه، ثمّ راح ينظر إلى الدّجاجات، دجاجات مُنقّطة بالأسود وهي تنقر بطرف منقارها، ثمّ تحفر بحميّةٍ الأرض بنجمة قوائمها وتعاود النّقر من جديد بطريقة خاطفة. وهنا وهناك تفرّ كتاكيت شبيهة بجرذان ما إن يقترب منها ديك، مادّاً عنقه فجأة، نافشاً ريشه وكأنّه يستعدّ للطّيران.

نام جاك، في آخر المطاف، ثملاً من رائحة المدخنة وروث البقر. لكنّ صيحة ديك أخرجته من خدره ففتح عينيه. كان الأب أنطوان عندئذ يشتغل في الزّريبة. تثاءب جاك، ثمّ أبدى اهتماماً بمجموعة بطّ تمشي في اتّجاهه، مُتأرجحة. توقّفت البّطات على بعد ستّ خطوات منه، وعادت أدراجها، وشرعت تنقر بملقاط منقارها قطعة خشب قديمة، مُقشّرةً إياها ومُزدردةً الدّويبات التي ما إن انكشفت حتّى شرعت تعدو مُسرعة.

- آه! أنت نائم، قال العمّ أنطوان، هيّا معي إلى شاطئ غرافيني، فمن شأن ذلك أن يُذهب النّوم عن عينيك.

لكنّ الشّاب رفض، فهو يُفضّل زيارة غرف القصر.

هو كان ينتابه الفضول، بالفعل، لاكتشاف داخل هذه البناية والتّأكّد، قبل حلول اللّيل، ممّا إذا كان بالإمكان الاستقرار في غرفة تُقفل بطريقة أحسن وتكون أقلّ كآبة.

كان يشعر بالإنهاك من سفره بالقطار ومشيه راجلاً، ومن ليلته الفارغة. كان يُخيل إليه أنّ في راحتَي كفّيه ناراً، وكانت نفثات حرارة تمرّ بالقرب من صُدغيه. أثناء مشيه، راح يُحلّل وضعه: فهو إن كان مُضطرباً بفعل هذا الخوف المبهم والمتسلّط، ومشغولاً بهمّ الأمن، وبالحاجة إلى حراسة، مسكوناً بهذا الحلم غير القابل للتّفسير الذي لا يزال متمكّناً منه، فإنّ ذلك يعود فحَسْبُ إلى أعصابه المشدودة وإلى تعبه وفقدانه لتوازنه النّاتج عن حالات قلقه وعن همومه وتغييره المفاجئ لمكان إقامته.

ليلة جيّدة ستُخلّصني من هذا الانقباض، وفي الانتظار، أسرّ لنفسه وهو يلج مدخل القصر، لأتفقّد غرف الطّابق السّفليّ كلّها.

دخل المطبخ الدّاكن، المضاءَ بكوّات صغيرة، والشبيه بمقصورة مسرح، بقبّته المستديرة وأبوابه الواطئة المّقوّسة من أعلى، ومدفأته ذات الظهرية، خشن البلاط. وبعد المطبخ، عثر على سلسلة من المخابئ الكئيبة، أرضيتها مُتربة، تتخلّلها حفر بماء أسود. عاد على عقبيه، عابراً الغرف التي مرّ منها ليلاً. بدا له حالها أكثر تدهوراً مُجتاحة بآثارِ مُلوحة، قذارتها واضحة في نور هذا الحمّام الشّمسيّ الذي يعمّ مزق الورق الرّطبة المعلّقة إلى الجدران. دلف أخيراً إلى الجناح الآخر وراح

يجول عبر الغرف المقفرّة. كانت جميعها مُتشابهة، واسعة يرتفع فوقها سقف عالٍ، أرضيّتها سيّئة، بادية عوارضها المنخورة، وتنبعث منها روائح كريهة. هي غرف غير صالحة للإقامة، قال مُخاطباً نفسه. أدرك في الأخير غرفة نوم واسعة جدّاً فيها مدفأتان، واحدة في كلّ زاوية.

كانت هذه الغرفة رائعة، تلبيسها الرّمادي مُشجّر ومزيّنٌ برسوم ملائكة، تعلو أبوابَها فُسح واسعة، فيها نافذتان كبيرتان مصاريعهما مُغلقة.

- هو ذا ما أبحث عنه! لنستكشفها عن قرب.

حلّ مغلاقَي النّافذتين وكسّر أظفاره عاملاً على فتح المصاريع التي استسلمت أخيراً مُصدرة صريراً. عندئذ بهت خائباً: كانت هذه الغرفة تحتفظ في العتمة بمظهر عافيةٍ، لكنّها عندما أنيرت أضحت مُتّصفة بشيخوخة متقدّمة، بشعة. كان سقفها مُتضرّراً، والأوراق الكثيرة تذروها الرّيح على الأرضية، والخزائن التي أُلصقت أوراق على أبوابها الرّقيقة كانت مثقوبة، تظهر فيها لوحة كأنّها مُضمَّدَة بالعفونة. كان عرَق بلون القهوة يسيل بلا انقطاع على الحوافّ المبقّعة بالأخضر لقواعد الأعمدة، وارتسمت على الجدران أشكالُ سُبحاتٍ خيوطها مُتعرّجة، حبّاتها هي الحبيبات الشّاحبة للعفن.

اقترب من المخدع فلاحظ أنّ حشرات شَعَريةً تعبره وأنّ الأرضة قد ثقبته. لم يكن يحتاج لأكثر من ضربة بقبضة يدٍ لينهار. يا له من دمار! ربّما كانت هذه الغرفة هي التي أُهملت أكثر من باقي الغرف جميعها. أثار انتباهه باب صغير قريب من مخدع النّوم يفضي إلى حمّام به رفوف كثيرة، تنبعث منه رائحة غريبة؛ رائحة غُبار فاترة، ويرشح من عمقه ما يُشبه بقية عطر تبدّد من الأثير.

شمله ما يُشبه الرّقة من هذا العفن، لأنّه بعث في ذهنه صوراً لطيفة لماضٍ انقضى. كان يبدو وكأنّه التّجسيد الأخير لروائح منسيّة للقرن الثّامن عشر، تلك الرّوائح القائمة على قاعدة البرغموت واللّيمون، والتي تُؤرّج الأثير عندما تُعرض للهواء. إنّ عطر القوارير التي أُزيلت سدّاداتها قديماً، قد عاد وهو يُرحّب، نائحاً، بزائر هذه الغرف الميّتة.

هذه، على وجه التّرجيح، هي غرفة استحمام مركيزة سان فال، التي كان الأب أنطوان يتحدّث عنها باستمرار أثناء زياراته إلى باريس.

وغرفة النّوم هذه، هي بالتّأكيد غرفتها أيضاً. يُقدِّم الموروث الزّراعيّ المركيزةَ هزيلةً، مُدّعية اللّطفَ، واهنة وشبه سقيمة. هذه التّفاصيل كلّها تتداعى وتتضافر فيما بينها ثمّ تذوب في صورة مُغبرّة لامرأة حالمة جالسة في كرسيّ رحب مُنجّد الظّهر والمسندين، مُدفئة رجليها وظهرها بقعودها بين المدفأتين ذواتي الموقدين المحمرّين.

كم أضحى هذا كلّه بعيداً في الزّمن! المفاتن البَردَى لهذه المرأة ترقد الآن في المقبرة، بالقرب منه، خلف الكنيسة. الغرفة بدورها ماتت، وتنبعث منها رائحة القبر. بدا له وكأنّه يهتك حرمةَ قبرٍ، هو

قبرُ زمنٍ انتهى، موجود في مكان قضى. أعاد إغلاق النّافذتين والأبواب، والتحق بالسلالم صاعداً إلى الطّابق الأول إلى أن أدرك غرفته، فعاج متوجّهاً لزيارة الجناح الواقع على يمين باب غرفته.

تضاعف استغرابه: ألفى نفسه أمام أبواب تدعو للخبل. خمسة منها أو ستّة تنفتح على دهليز طويل. كان يدفع باباً فتمْثل أمامه ثلاثة أبواب أخريات على الفور، موصدة، موجودة في غرفة مظلمة. وتُفضي كلّها إلى أماكن مغمورة بالمهملات، في زوايا مظلمة، تترابط فيما بينها بأبواب أخرى مفضية بعامّة إلى غرفة رحيبة مُنارة، تُطلّ على الحديقة، تغزوها أسمالٌ ومزَقُ أشياء.

يا للإهمال! خاطب نفسه. خرج متوجّهاً لزيارة الجناح الآخر. ولج، يائساً، أبواباً أخرى في غرف أخرى، وضاع في هذه المتاهة، عائداً إلى نقطة انطلاقته، حائماً حول نفسه، فاقداً رشده من هذا الرّكام من المكاتب والغرف، والذي لا مخرج منه.

هو وحده كان يُحدث جلبة قوية، لأنّ خطواته كانت تُصدي في الفراغ، بفعل وقع حذائه العسكريّ. وكانت المفاصل الصّدئة تُحدث صريراً مع كلّ اهتزازٍ، كما كانت النّوافذ المكسّرة تُطلق صرخات.

كان قد شعر بالسّخط في خضمّ هذا الضّجيج كلّه عندما انتهى به المطاف، في طرف القصر، إلى قاعة واسعة، مزيّنة بالخزائن والرّفوف. دفع مصراعَي نافذة فاتّضح شكل هذا المكان وسط شُعاع ضوء.

هي مكتبة القصر القديمة. كانت الخزائن قد فقدت زجاجها فشرعت شظاياه تصرّ تحت حذاء جاك ما إن يحرّك قدميه، وكان السّقف نديّاً في أماكن منه، مقشّراً، مُدلّياً أشرطة جبسه على مسحوق الزّجاج الذي كان يبرق على الأرضية. لمح خلفه شجرة بيلسان ولجت أغصانُها الغرفة عبر نافذة مكسورة، فنفض عنها العُقَد والتّجاعيد المحدَثة بفعل رطوبة الجدران. في الأعلى وفي الأسفل، كان كلّ شيء يفسد وينسحق ويتقشّر ويُنخر، بينما كانت عناكب ضخمة، من مثل ما يوجد منها في هُريِ للحصيد، تتأرجح خلف صليب أبيض، منهمكة في رقصاتها الصّامتة، بعضها في مقابل البعض، في طرف حبل.

مكث جاك مُتفكّراً كما كان حصل له في غرفة نوم المركيزة. من المفترض أن تكون هذه المكتبة المتهدّمة قد وُجدت بالفعل. لكن ماذا عساه يكون حلّ بجلود العُجول المُيَشَّبة وكلّ السّختيانات الكبيرة الحُبَيبات، بلونها الأزرق الماويّ أو الأحمر النبيذيّ، و[المزيّنة بـ] رأس الموريّ[12] أو برسوم الآس، والجلود المشْرقيّة المطبوعة في شكل شعارات على الصّحون والمذّهبة على الحواشي؟ ما الذي حلّ بمجسّم الكرة الأرضية بما فيها من رؤوس ملائكية مُتضخّمة، تنفخ من وجناتها المنتفخة في كلّ الاتّجاهات الأصلية؟ وما مصير مائدة الخشب الأرجوانيّ والورديّ، والأثاث ذي القوائم المفتولة والمطعّم أسفلُها بالتّبر؟

لقد اختفت، دون أدنى شكّ، في زوبعة النّهب والبيع، تماماً كما كانت ضاعت البراري والغابات التي اجتثّها المزارعون.

- هيّا، لقد بالغتُ في هذا، خاطب نفسه متنهّداً، وهو يُغلق الباب. زوجتي كانت على حقّ عندما أكّدت أنّ مكاناً واحداً في هذا القصر لا يزال حيّاً.

خرج إلى الدهليز منصرفاً. عندما أدرك السّلّم التحق بالطّابق العلويّ، لكنّ شجاعته لم تُسعفه في التّجوّل في الغرف الموجودة بالسّطح، واكتفى بمواربة أحد الأبواب، فرأى السّماء تنبثق من ثقب انزاح عنه القرميد، وعاد للنّزول، متصوّراً، عن طريق المقارنة، أنّ الغرفة التي كانت لويزا اختارتها هي غرفة بديعة.

لكنّ هذا الانطباع لم يدم طويلاً، وتبدّد بمجرّد اقتراب جاك من نافذة الغرفة؛ فهي تستمدّ نورها ممّا وراء القصر، مُطلّة على الغابة السّوداء التي ازدردها نبات اللّبلاب. شعر برعشة تعبر ظهره فقصد الحوش.

حام من جديدٍ حول القصر، ساعياً إلى معرفة ما إذا كان بالإمكان، بواسطة موانع قويّة، الاحتماءُ عند مقدم الظّلام، من السُّراق والحيوانات. كانت الأبواب تأبى أن تنفتح دون تلقّي قذفات رجل أو مدفوعة بالكتف، لكنّ غالبيتها كانت قد فقدت مفاتيحها أو من المفترض أنّها تُغلَق بالمزاليج التي ضاعت وبسقّاطات فقدت ألسنتها. تفقدّ ضواحي القصر، فلاحظ أنّ الحديقة لا تُغلق من جهة الغابة، فلا وجود لسورٍ أو لحاجزٍ، وبإمكان الجميع الدّخول.

هذا كلّه بدائيّ حقّاً، خاطب نفسه قائلاً. عندئذ أحسّ بصدره يضيق، مُرهقاً من قلّة النّوم، فتمدّد على العشب، ومن جديدٍ تحوّل اتّجاهُ روحه بفعل صفاءِ السّماء البهيج؛ فكما يحصل للنّاس جميعاً عندما تتعب أجسادهم، كان للانطباعات الخارجية أثر حاسم عليه، فأصدر تنهيدة رضاً ونام، ظهره محشور في النّعومة القطنية للطّحالب، ووجهه مُهوّىً بالأغصان الصّمغية لشجر التّنوب.

صباح اليوم التّالي، فجراً، على السّاعة الرّابعة، سقط رتاج الباب على أرضية الغرفة، بفعل ضربةٍ قوية من قبضةِ يد. استيقظ جاك ولويزا منتفضين ورأيا أمامهما، مرعوبين، العمّ أنطوان واقفاً، تنبعث منه رائحة مزابل حادّة.

- العجل يخرج، يا ابن الأخ.

- أيّ عجل؟

- عجل البقرة طبعاً! أقول لك. نورين ذهبت مسرعة إلى القرية باحثة عن الرّاعي، وأنا لا يُمكنني أن أكون في كلّ مكان في الأوان نفسه، وأخشى أن تلد العظاءة[13] قبل أن يأتيا.

- لكنّني لست قابِلَة، قال جاك وهو يرتدي سرواله. أنا لا علم لي بفنّ توليد البقرات، ولا أرى في أيّ شيء يُمكنني أن أكون مُفيداً لك.

- بلى. أثناء إشعال زوجتك النّارَ وتسخينها النّبيذَ من أجل العظاءة، سيكون بمستطاعك، أنت، تقديم العون لي، في انتظار وصول نورين وفرانسوا.

أصدرت لويزا إشارة في اتّجاه زوجها، ثمّ قالت: سأتبعكما، اسبقاني إلى أن أرتدي ملابسي.

لم يستطع جاك، أثناء سيرهما، أن يمنع نفسه من الضّحك، وهو يتفحّص وجه العمّ المبقّع بنقَط سوداء.

- آه، ما هذا في وجهك؟

بصق الشيخ في كفّه وفرك وجنتيه ثمّ نظر فيها.

- حسناً، هذه فضلات ذُباب! نمت ليلاً في الإسطبل، ومعلوم أنّه يكون ثمّة، يا ابن الأخ، ذباب بالقرب من البهائم!

وأسرع خطوه، مُقوّساً ساقيه القصيرتين، مُدمدماً لنفسه بكلمات، مُمرّراً أصابعه على شعر ذقنه الشّبيه بزغب فرشاة، حاكّاً رأسه تحت قلنسوته التي تراكمت الأوساخ عليها في طبقات.

عندما فتح أنطوان باب الإسطبل، ترنّح جاك؛ فالجوّ الخانق اللاّذع برائحة الشّنادر والمغزوّ بآلاف الذّباب، غرز في عينيه إبراً وثقب سمعه بصفير حادّ. كان الإسطبل الذي تُنيره بطريقة سيّئة كوّة صغيرة، أضيقَ من أن يسع أربع بقرات مُتزاحمات بعضها جنب بعض، على فرش من قشّ مُلطّخ بالرّوث.

- يا عظاءتي المسكينة! يا دابتي الشّقية! قال الأب أنطوان، آنّاً، وهو يقترب من البقرة التي جعلت ترفع صوتها بخوار بهيم ناظرة إليه بعينيها الواسعتين الفارغتين وقد أدارت رأسها في اتّجاهه.

أزاح البقرات الأخريات بساقه وهو يُمسّد العظاءة، مُحدّثاً إيّاها بصوت خافت وكأنّه يُخاطب طفلاً، مُنادياً إيّاها بأسماء دلال: «طفلتي، ابنتي»، وهو يُشجّعها على تحمل «الألم الجميل»، مُؤكّداً لها أنّها إن ضغطت بقوّة، فلن يدوم الأمر أكثر من لحظة وجيزة، تستعيد بعدها قدّها المعهود.

خاطب جاك، وهو يحكّ رأسه، قائلاً:

- ذلك أنّ العجل يخرج شيئاً فشيئاً! حسناً، يا إلهي! ما الذي تقوم به نورين حتّى تتأخّر هكذا؟ في الانتظار سأُعدّ النّسالة كي نجذب العجل.

أثناء فتله للخيوط، وبما أنّ العظاءة استمرّت في الخوار، راح يُطري، كي يُسرّي عنها بالتّأكيد، على صدق مشاعرها وعلى جودة ضرعيها.

- لنفترض يا ابن الأخ أنّك تحلبها؛ حسناً، إنّها لن تهبَك إلاّ القليل من الحليب! إنّها لا تُعطي بسخاء إلاّ لنورين. هي تقدّم كلّ شيء من أجلها. يا الله! لا يكون الأمر أبداً عندما لا نحبّ كما يكون عندما نُحبّ! وهي، العظاءة، كمثْل الجميع، هي تُحبّ من يعتني بها. والأخريات مثلها تماماً أيضاً، مُشيراً إلى البقرات الثّلاث مُناديا إيّاها بأسمائها (جميلة الجميلات والمبقّعة والسّوداء)، في حين كانت البقرات الأخرى تنظر بغير اهتمام إلى رفيقتها التي تخور الآن، رافعةً رأسها نحو كوّة الإنارة.

- سأشحّم الآن فرجها لأنّ ذلك سيريحها، قال الأب أنطوان وهو يصبّ زيتاً في صحن، فرفع الذّيل بكفّ ودهن بالأخرى الأعضاء التّناسلية الملتهبة للدّابة.

- ها أنتِ ذي قد أتيت، قال وهو يلتفت نحو لويزا التي وصلت. هيّئي بسرعة نبيذاً ساخناً وأعدّي في السّطل ماءً طيّباً أبيضَ مخلوطاً ببعض النّخالة.

- ما بك؟ ثمّ تمتم وهو يرى ابنة أخيه تشحب: يا للإناث الطّيبات! هي فقط قرّرت ألّا تُساعد الرّجال! امتقعت لويزا لأنّ رائحة الإسطبل الرّهيبة جعلت قلبها ينقبض. كان جاك يسندها عند الباب عندما أعلنت جلبةٌ وصول العمّة نورين.

- آه، حسناً، صاح العمّ الذي ما كان عاد يعير اهتماماً لضيق ابنة أخيه. حسناً، الوقت ليس باكراً! كيف تأخّرتما هذا الوقت كلّه! أيّ تفاهة آتيتماها في الطّريق؟

- أوه! لقد أسرعتُ ما استطعت، سيّدي، قال الرّاعي رافعاً طاقيّته وقد رأى جاك.

دخل الإسطبل وهو يسمع زقزقة نورين الآخذة في تقبيل صدغي البقرة التي أضحى خوارها أشدّ حدّة وأكثر امتداداً.

- أرى أنّ الأمر سيحصل، قال الرّاعي، فخلع صدريّته ذات الكمّين ودفع بطاقيّته تُجاه قفاه.

ارتسمت أشكال قوائم مُدبّبة في الكرة الشّفافة التي تخرج من البقرة. ثقب الرّاعي المظروف فبدت القوائم، تكاد تكون جافّة، غير أنّها مشوبة بالدّم كمثل قوائم الغنم السيّئة الطّهي التي تُقدّم في المطاعم بأثمنة زهيدة. ورأى جاك، الذي بقي واقفاً على العتبة، الرّجُلين يُدخلان تحت مُؤخّرة البقرة أذرعاً عارية وأكفّاً ملفوفة بالنّسالة ويجذبان، داهنَين، بينما كانت البقرة تهدم الإسطبل خواراً.

- يا إلهي، يا إلهي، أمسكْ جيّداً يا رجل. لا، لا، اسحب مستقيماً، هو ثقيل، هذا البطل! وفجأة هوت كتلة لزجة، ضخمة، مصحوبة برشاش سائل نفاسيّ لزج، على كومة من القشّ، بينما كانت الفتحة الحمراء المنفرجة تحت ردف البقرة تعود للانغلاق، وكأنّها تشتغل بنابض.

- آه، يا إلهي، أمسكْ به، آه! الفارس المقدام! كان العمّ يصيح وهو يُدلّك العجل الذي يُحاول أن يثبت على قائمتيه الأماميتين ضارباً في كلّ الاتّجاهات بقذفات من رأسه.

دخلت نورين حاملة سطلَ نبيذ يصّاعد منه البُخار.

- أنت لم تضعي فيه شوفاناً؟ سأل الرّاعي.

- لا، يا رجل.

- جيّد. لأنّ الشّوفان كما تعلمين مُسخِّن. الشّنارق إن كنت تملكينه صالح، أمّا الشّوفان فلا. فقرّبوا السّطل من الدّابة التي عادت للثّبات على قوائمها يسيل فرجها بخيوط لزجة ورديّة اللّون.

شربت العظاءة النّبيذ دفعة واحدة. عندئذ جثت نورين على ركبتيها وشرعت تحلبها. كانت تبدو وكأنّها تقرع الأجراس فأدلق الضّرعان، تحت أصابعها المبلّلة بقليل من الحليب، ما يُشبه طيناً أصفر مخلوطاً بزبَد.

- خذي، اشربي، قالت نورين للبقرة التي ابتلعت بضربتين من لسانها حساء ضرعيها.

- من أجل عجل جيّد، إنّه عجل جيّد، قال الرّاعي، وهو يمسح أصابعه في حزمة قشّ. أمّا العمّة نورين فقد ظلّت في افتتانها، الذّراعان مجموعتان مبسوطتان على البطن.

عادت البقرة إلى خوارها.

- آه! ألن تنتهي من صراخك بهذه الطّريقة، أيّتها النّاقة! صاحت نورين.

- اضربيها إذن على خطمها، هذه الشّريرة، قال العمّ وهو يمسح جبهته بظهر كمّه.

لم تعد تسميات الدّلال من قبيل «طفلتي» و«ابنتي» مستخدمة، وانتهت كلمات الحبّ وتشجيع العظاءة على الصّبر عند الولادة؛ فالوضع كان عادياً جدّاً والعجل في صحّة جيدة، ما وضع حدّاً لمخاوفهما المالية، وأنهى في الأوان نفسه حنانهما على البقرة.

ما عاد من مجالٍ إلاّ للاستراحة وشرب كأس.

دخلوا الكوخ فأخرجت نورين من الخزانة قنّينة بماء حياة وملأت الكؤوس. قرعوا أقداحهم وشربوها دفعة واحدة.

بعد ذلك شرع أنطوان يُحادث الرّاعي في الحالات المشهورة في البلد لولادة بعض البقرات.

- قل لابن الأخ، يا فرانسوا، كم لزم من الرّجال لتوليد بقرة كونستان.

- أوه يا سيّدي، قال فرانسوا وهو يلتفت نحو جاك، لزم ثمانية. ثمانية رجال شداد! آه! ويمكنني أن أقول إنّني كنت أتصبّب عرقاً، ذاك اليوم. نعم، سيّدي العزيز، كنت، عندئذ، ولتغفرْ ما سأقول، مضطرّاً لإدخال ذراعي في ثقب مؤخّرة البقرة لأقلّب العجل وأُنزله من فرجها. أنا لا أريد فقط أن أقول هذا، ولكنّ هناك جلداً دقيقاً جدّاً يقوم مقام الفاصل بين الجانبين.

- وهكذا، قال الأب أنطوان، فأنت منصوح بك لمن يحتاجك بوصفك راعياً له دراية بهذا المجال...

- ومراراً قلت إنّني لا أستطيع فعل شيء، ويجب الذّهاب لاستقدام بيطريّ الإقليم الذي عليه أن يتكلّف بالأمر، فهو يعرف القيام بذلك، هذا الرّجل. وبالفعل ما إن يأتي حتّى يولّد البقرة بسرعة ويعود لركوب عربته.

- حسناً، ليكن! قالت نورين مُصدّقة على قوله برأسها.

كان جاك ينظر للرّاعي وهو يتحدّث. هو رجل قصير نحيف غير مستقيم القامة يعرج قليلاً، له هيئة صلبة، على شاكلة هيئة بونبارت، تضحك عيناه بين الفينة والأخرى وتكشفان، مع ثنية الفم المرتخية، عن مكرٍ لا تُخطئه العين. كان ينتعل حذاءً من قماش مضفور أسود وأبيض ممّا يُسمّى في هذه الجهة من لا بري «بامبوش»، ويرتدي قميصاً بخطوط زرقاء وصدرية بكُمّين هي من نسيج صوفيّ صقيل أسود وسروالاً من المخمل واسعاً مُثبّتاً بحزام جلديّ، وكان يُعلّق قرناً من صفيح ويحمل على كتفه سوطاً.

- هيّا، لنشرب كأساً أخرى، قالت نورين. ومن جديدٍ قرعوا كؤوسهم. مسح فرانسوا شفتيه بظهر كفّه وبعد تقديم بعض النّصائح، نزل المنحدر يعرج برجله.

اضطرّ الأب أنطوان، تحت ضغط أسئلة ابن أخيه، أن يتحدّث عن الرّاعي. قال إنّه صار غنيّاً. آه! ذلك أنّ هذه المهنة جيّدة. اسمع. هو يشتري ثوراً عمره عامان بأربعمائة فرنك ويُعيد بيعه بستّمائة

عندما يصير عمره أربعة أعوام. وخلال ذلك، يدرّ عليه قطيع غنمه، الذي هو الوحيد بالقرية، أرباحاً.

ثمّ جعل يُعدّد الأرباح: فرنكان عن كلّ رأس بقر في السّنة، ثمّ صوع من القمح والجودر، وبيض في عيد الفصح، وجبن طريّ عندما تلد البقرة، وخمر عند جني العنب. وما الذي يكون عليه القيام به، أنا أسألك، غير العناية بقطيع غنمه كي يكون دائماً في صحّة جيّدة وقيادة قطيع بقر القرية إلى البراري وعلاج جروحه عندما يُصاب بها. آه! أجل، إنّها مهنة جيّدة، واصل الشيخ القول، مفكّراً. صار لدى فرانسوا ما يكفيه...

- لكن كم بقرة في جوتينيي؟

- حسناً، أحسَب أنّ فيها اليوم مائتين وخمس وعشرين.

- وكم يكون فيها في العادة؟

- يقترب العدد من أربعمائة يا ولدي.

ثمّ ساد صمت لحظة. عادت لويزا ونورين من الإسطبل حيث جازفت المرأة الشّابة بالدّخول كي ترى العجل الوليد.

- لو تدري كم هو لطيف!، قالت لزوجها. أتصدّق أنّه يشرب من كأس؟

- نعم، يُفتح فمه بالقوّة فيشرب مرتعشاً! أجابت العمّة نورين التي بدت غير متحمّسة لهذه الطّريقة المتحضّرة في الشّرب.

- الأمر، هنا، ليس دائماً كما يكون في مكان آخر، قال الشّيخ بإهاب متعالِم. نحن هنا لا نترك العُجول ترضع. هي تفقد من وزنها إن رضعت، وهي لذلك لا تتبع أمّها إلى المراعي.

ثمّ أخذ يضحك. أتذكرين يا نورين الأب مارتين، الفاكهانيّ، الذي يوجد هنا بجوتينيي كي يأكل متاعه، أضاف أنطوان، وهو يلتفت نحو جاك. كان يعتقد أنّه ذكيّ لأنّه عاد من باريس. لم يكن يحسَب أنّ العجل يسمن فقط بالحليب. كان يقول لي: «أيّها الشّيخ! لماذا وضعت على خطم عجلك كمامة من سوحر؟» وكان يستهزئ بي عندما أجيبه: «كي لا يأكل عشباً، يا رجل!».

وعندما كان له عجل وأخذه إلى سوق برَيه، قال له أشيل، وهو يرفع الجفن الأحمر لعجله: «لكنّك أتيت إلى هنا بجمهوريّ فذّ[14]. أنا لا آخذه أبداً.» ثمّ قال له باقي القصّابين الشّيء نفسه، ولا يزال في حوزته حتّى الآن عجلُه هذا الذي كان يأكل العشب!

- هل على العجل إذن، سأل جاك، أن يكون نحيلاً واهناً تماماً كي يُباع؟

- لا شكّ يا ولدي. ومن غير ذلك يكون لحمه غير قابل للأكل!

- يجب أن يكون ميّالاً للسّمنة، وأن يكون دمه غزيراً، قالت زوجته مُدعّمة قول زوجها. اسمع، أحدهم يدق جرس الباب الصّغير في الأعلى. لكن لا داعي للإزعاج، فالباب غير مقفل وتكفي ضربة كتف كي ينفتح.

وبالفعل، فقد سُمع صوت ارتطام ثمّ وقع خطوات، فأخرج جاك رأسه مستطلعاً ولمح كائناً منتفخ الظّهر أعرجَ وسميناً.

- إنّه ساعي البريد، قال الأب أنطوان.

- حسناً، ليكن!

كان الرّجل يعتمر قبّعة قشّ ظليلة، محاطة بشريط أسود طُبعت عليه بصباغة زيتية، وبلون أحمر، كلمة «بريد». كان حاملاً جراباً على صدريّة النّسيج الأزرق التي يرتديها، والمزيّنة بزخارف بنفسجية. قدّم التّحية وهو بعد في الخلف، وسحب ساقيه ثمّ وضع عصاه وقال:

- أنت هو السّيد جاك ميرل؟

- نعم.

فسلّمه رسالة وأعاد إغلاق جرابه.

- أعتقد أنّك لن تخسر شيئاً إن شربت كأساً، قالت نورين.

- بالتّأكيد، أجاب ساعي البريد.

- وكم لتراً شربت منذ بدأت جولتك؟ سأل الأب أنطوان ضاحكاً.

- أوه، أنا لم أشرب أكثر من سبعة.

- سبعة؟ صاحت لويزا.

- هو، يا ابنتي، يلتهم عشرة ألتار دون أن يغدو أكثر سكراً ممّا هو عليه الآن.

بدا ساعي البريد متواضعاً وراضياً، في الأوان نفسه، وقال بنبرة متواضعة:

- أجل، لكنّني آكل أيضاً.

- أتسمعين يا لويزا؟، هيّا، إن كانت لديك فضلة طعام فإنّه سيمسحها لك مسحاً ما إن تقدّمينها له.

- لكن أين يذهب كلّ هذا الذي تلتهمه؟

هزّ الرّجل كتفيه، وبما أنّهم كانوا أتوه بخبز وجبن، فقد أخرج سكّينه وقطع كسرة خبز كبيرة قادرة على إشباع معسكر بكامله، ثمّ وضع فيها بعضاً من هذا الجبن الأزرق الرّديء، وجعل يلتهم ذلكً كلّه في لُقَم ضخمة.

وبين الفينة والأخرى، وقد امتلأ فمه، وجعلت وجنتاه المنتفختان تقومان بحركات مدّ وجزر من جهتَي صدغيه، كان يشرع في الشّكوى من طول المسافة التي يقطعها في جولته. ثمّ قال أخيراً إنّ الجولة حتّى تلك اللحظة كانت طيّبة مع ذلك، لأنّ مُلاّك القصور يُقيمون فيها، ما يجعل جولته تطول، كأن يأتي مثلاً إلى هذا القصر، لكنّه كان يُقدّم خدمة لأناس ذوي أريحيّة لا يُديرون ظهورهم لساعي بريدهم.

رفع جاك رأسه عن الرّسالة التي كان غارقاً في قراءتها، أثناء إلقاء ساعي البريد بطُعم البقشيش هذا، لكنّ السّاعي الذي تلمع عيناه وترقصان، بشكل من الأشكال، في جفنيهما المخطّطين بالتّجاعيد، واصل تفصيل الحديث برقّة عن الأفعال الخيّرة للأغنياء. فهنا، عند طحّان «طاشي»، ثمّة دائماً قنّينة وسندويتش، مع أكل، في الغالب، فضلَ عن الأمس فاحتفظوا له به. والحال أحسن في قصر «سيجي»، لأنّ البستانيّ يمنحه سلَطة وفواكه، وتحرص ربّة البيت شخصيّاً على أن يأكل قطعة خبز وألّا ينصرف أبداً قبل أن يشرب شيئاً. وفي جميع الأحوال، فإنّ النّاس كلّهم يُحبّونه لأنّهم يعرفون مع من يتعاملون، ويُظهرون حبَّهم له عندما يعودون إلى باريس، فيُفكّرون في أسرته الصّغيرة، لأنّ له ابنين، وليست مهنة ساعي البريد بقادرة البتّة على القيام بحاجياتهما.

طوى جاك الرّسالة، مُتعباً من هذه الثّرثرة، مُفكّراً في همومه التي لا تزداد إلاّ استفحالاً. فقد كتب له رسالةً مقلقة صديقٌ له كان كلّفه بالإشراف على أعماله في العاصمة.

لقد تأكّد بما لا يدع مجالاً للّشك من أنّه ليس في إمكانه دخول أعمال ماليّة، كما أنّ «السّلف اللّيوني»، من جهة ثانية، قد رفض السّماح بتحويل أوراق بنكيّة إلى سيولة، كما كان يأمل.

- الحال تسوء، خاطب نفسه.

- هيّا نتناول غداءنا، قالت لويزا التي كانت تُراقبه.

- ماذا كتب لك موران؟ سألت عندما أصبحا لوحدهما.

سلّمها الرّسالة، فرفعت رأسها.

- كم معنا من المال؟

- ليس كثيراً. ثمانمائة فرنك على الأكثر، لأنّنا صرفنا منه. ثمّ أضافت متنهّدة: والأمر لم ينته بعد!

- ماذا تقصدين؟

فدخلت في تفسيرات:

- كان ضرورياً، في البداية، أن نشتري بما يُقارب خمسين فرنكاً أواني ومستلزمات للمطبخ. وكان لزاماً أيضاً اقتناء احتياطيّ من القهوة والكونياك والسّكر والفلفل والملح والشّمع والفحم؛ سلسلة كاملة من المقتنيات التي يصعب شراؤها ونحن في هذا القصر الضّائع. كما أنّ مسألة الطّعام كانت تتعقّد كما لو بفعل العناد؛ فقصّابة سافين، الوحيدة الموجودة في هذا البلد وفي كلّ الجهة، ترفض رفضاً باتّاً، تماماً كما رفضَ كلّ التّجار، أن تصعد إلى هذا القصر الذي لا يقع على طريقها. وحتّى المرأة التي تأتي كلّ سبت من بروفانس ببضاعتها من الخضار والدّجاج والبيض، «سالقةُ البيض» كما يُسمّونها، صرّحت برفضها إنهاكَ فرسها بجعله يصعد المنحدر. وحده الخبّاز وافق على تسليمنا الخبز، علماً أنّه قرّر أن يضعه في الأسفل، على باب القصر، عند طرف الشّارع، على طريق لونغفيل، في السّاعة الخامسة مساء.

- سيكون ذلك أمراً مُناسباً، لاحظ جاك؛ فعندما ستُمطر سنأكل لبّ خبز مغموساً في الماء، سنأكل ثريداً.

- نشتري سلّة يكون بإمكاننا أن نضع حجارة على غطائها.

- لكن العمّ أنطوان يأكل خبزاً أيضاً. يا للشّيطان! بإمكانه أن يشتري خبزنا عندما يشتري خبزه هو.

- لا تشغل بالك. نورين تأتي بخبز كثير حتّى أنّه يُصبح بعد خمسة أو ستّة أيّام صلباً كالحجر. فماذا بقي!

صدرت عن جاك حركة يائسة.

- أمّا الخمر، واصلت لويزا القول، فعلينا أن نستقدم منه برميلاً كبيراً من بريه سور سين. والعمّ أنطوان، الذي كان قطافه من العنب هزيلاً السّنة الماضية، يمكنه، على أيّ حال، أن يأخذ نصف البرميل إن فضل عنّا.

- وما ثمن هذا البرميل؟

- حوالى ستّين فرنكاً.

تنهّد جاك.

- أوه! وما الذي كان يرفع به صوتَه عمُّك عندما أكّد أنّنا سنجد هنا وفرة من كلّ شيء؟

- هو لم يكن يعرف، فلربّما تصوّر أنّنا سنعيش، مثله، ببضع حبّات بطاطس وفواكه.

- الواضح في هذا كلّه هو أنّنا سنكون ملزمين كلّ يوم، وكيفما كانت أحوال الجوّ، بأن نمشي فرسخين في الرّيف للعثور على قطعة لحم وبعض الجبن. لكن، في النّهاية، وجوتينيي؟ ولونغفيل؟ أليس ثمّة من باعة في هذين الجُحرين؟

- أجل، هما بدورهما يقتني سكّانهما حاجياتهم من سافين. أنا آمل، على أيّ حال، قالت مواصلةً حديثها، أن نستطيع تنظيم أنفسنا؛ فأخت أنطوان، أرمندينا العجوز، تعرف بسافين أسرة فقيرة لا تذهب ابنتها الصّغرى إلى المدرسة حاليّاً. ومُقابل ثمن سنساوم فيه، سيرسلون الطّفلة هنا كلّ صباح، فنسلّمها ما عليها اقتناؤه وتأتي به بعد الظّهر، بعد أن تكون قد تناولت غداءها.

بدأ جاك يؤمن بأنّ ما يتحدّثون عنه من حياة اقتصادية في الرّيف ما هو سوى وهْم، وأنّ الوحدة، التي تُغري بالحديث عنها عندما نكون من سكّان قلب العاصمة، تغدو غير محتملة عندما نعيشها، بعيداً عن الجميع، ودون خدم وبلا عربة شخصية.

بدأ يستعرض نقائص هذا القصر التي اكتشفها حتّى هذه اللحظة: مُحيط مُهدِّد بحيواناته وأشخاصه، ورطوبة مُثلّجة وافتقار إلى وسائل الرّاحة وندرة في الماء. هذا فضلاً عن بعض حالات الإهمال التي تُغيظه. فهو قد بحث سدىً في متاهة الغرف عن مكان راحة، يُفرغ فيه أسراره الخفيّة، وفي الختام عثر، في الأسفل، قريباً من غرفة المركيزة، على خلوة، لكنّ حالتها كانت من التّداعي بحيث لا يمكن ولوجها دون مجازفة.

وكانت هي الخلوة الوحيدة الموجودة في القصر.

أعرب عن اندهاشه من ذلك للعمّ أنطوان، ففتح هذا في البداية عينيه على سعتهما، ثمّ نظر في اتّجاه نورين.

انتفضت هي من الفرح، ضاربةً على فخذيها، وقالت بين حالتَي اهتزاز من الفُواق:

- أنت إذن كنت تريد التّغوّط، يا ابن الأخ، لكنّ ذلك يكون في الخلاء حيثما اتّفق، كما نفعل نحن.

هذه الطّريقة البسيطة في حلّ مشكل مُقلق بهذه الدّرجة أغاظت الرّجل.

ظلّ يتذمّر خلال المتبقّي من النّهار الذي انصرم، مع ذلك، دون أن ينتبه هو إلى توالي تبدّد ساعاته.

كان الحراك المسكّن في الرّيف لا يزال يُشعره بالاسترخاء، فهو لم يعرف بعدُ ضجرَ البطالة الذي يحوم في الغرف المتشابهة أو أمام المناظر الطّبيعية التي سبقت رؤيتُها. كان لا يزال يعيش مرحلة الخدر مشمولاً بهذا الكسل اللّذيذ الذي نشعر به عندما نكون في الهواء الطّلق القادر على تلطيف حدّة الهموم وإسباح الرّوح في إحساسات نعسانة شبيهة بالإغماء في خضم مشاعر مبهمة ثابتة. لكن إن كان دفء الأصباح يؤثّر عليه كمثل دواء مُخدّر، كمثْلِ مهدّئ، فإنّ الحزن البارد للغسق كان يُفسد، كما حصل له خلال اليوم الأوّل، هذه الطّمأنينة التي تترك مكانها لبعض الضّيق ولحالات قلق ذات سطوة.

خلال هذا المساء، وبعد العشاء، كان قد نزل برفقة زوجته إلى حوش القصر فجلسا على كرسيّين طويلين وطفقا ينظران، صامتين، إلى الحديقة المتعبة وهي تنكفئ على نفسها وتنام. وبالرّغم من أنّه كان لا يزال يُحسّ بهذا الشّرود الذي يجعل ذهنه غير قادر على التّركيز على الفكرة التي يُريد تثبيته عليها، فإنّه كان يشعر، في خريف الرّوح هذا، بانبجاس حالات الإذلال الملغزة التي تنتج عن الخوف. تفحّص لويزا. يا إلهي! كم كانت شاحبة! انتابه ارتعاش، لأنّ هذه الخطوط المزرقّة حول عينيها تشي بأنّ العُصاب كان لا يزال يتقدّم في مسيرته الحثيثة، فخاف الهجمات المقبلة لألمها غير القابل للتّسكين، وهما في هذه الخرائب المعزولة.

وقد تحوّل هذا الشّعور بانعدام الرّاحة، النّاعمُ مع ذلك، عند جاك، والنّاتج عن العجز عن التّحكّم بالذّات، إلى حالات قلق واضحة، فتركّز ذهنه المشتّت على وضعه ووضع لويزا. عاد القهقرى في ذكرياته، وارتقى ماضي حياته متذكّراً السّنوات الجميلة التي قضياها معاً. كان عليه كي يتزوّجها أن يُخاصم عائلته، سليلةَ تُجّار أغنياء، الغاضبةَ من الأصل الوضيع لهذه المرأة المنتمية إلى جيل من المزارعين فشلت البورجوازية الصّغيرة للأب في احتوائهم. كان جاك قد وقف في وجه هذه الكراهية، فقبل دون ندمٍ القطع مع أبويه اللّذين كان يحتقر نزوعهما وأفكارهما، ولم يكن يزورهما، حتّى قبل ذلك، إلاّ لِماماً.

وقد رأى والداه، من جهتهما، أنّه أحمق. أجل، هو لا يصلح لشيء، لكنّه لم يغدُ أحمقَ بعد، كان جاك يُسرّ لنفسه، عالماً برأي أبويه فيه. نعم، صحيح أنّه لم يكن يصلح لشيء، وغير قادر على التّطلع إلى الانشغالات التي يسعى إليها الرّجال، ولا أهليّة له في ربح المال ولا حتّى في الحفاظ عليه، ولا يُغريه طُعم تحصيل السّعادة والحصول على المناصب، غير أنّ ذلك لم يكن بسبب كسله، فهو كان كثير القراءة، يتوسّع فيها بنهم وبطريقة غير منظّمة مُلتهماً الكتب دون هدف محدّد، بطريقة يحتقرها النّفعيون والعاطلون معاً.

وهذه القضية التي كان يُجهد نفسه لإسقاطها من انشغالاته، قضيةُ أن يعرف بأيّ حيلة سيُحصّل معيشته منذ ذلك اليوم فصاعداً، راحت تهجم عليه، أكثر وخزاً وعناداً، خصوصاً وأنّه كان يُتابع

بعينيه زوجته الممدّدة على الكرسيّ والمعذّبة بدورها، دون شكّ، بمخاوف مماثلة.

نهض وخطا في الحوش بضع خطوات.

أتى اللّيل ليُغيّر شكل الكنيسة، أمامه، وقد جعل لونها تتوزّعُه التّنويعات المختلفة للسّواد: الغامقُ والمكثّف بأشكال الظّلال في الأماكن المجتاحة باللّبلاب، والمخفّفُ الفاتر في الأماكن العارية من الجدران، والفاتح في إطارات النّوافذ التي كان زجاجها المتقابل يبدو وكأنّه يحوي ماءً معتّماً عكراً.

وأثناء تأمّل جاك لهذا الذّوبان البطيء للحجر في العتمة، ارتفع طائر من أعلى الكنيسة، وكأنّه نسر، مُصدراً بجناحيه فرقعة مدوية ثمّ هوى في ضجيج بهيم من السّماء الى الغابة حيث خشخشت أغصان مُندعكة.

- ما هذا؟ سألت لويزا التي أتت لتلتصق بزوجها.

- هذا بالتّأكيد طائر خبَل، فهذه الطّيور تُعشّش في قبّة أجراس الكنيسة.

احتضن زوجته ثمّ قاما بجولة في الحوش الغارق في صمت الرّيف التّام، صمت يُسمَع فيه ضجيج لا يكاد يُدرَك لحيوانات وأعشاب، نسمعه فقط عندما نميل بأجسامنا.

كان الظّلام الذي أصبح أكثر كثافة، يبدو وكأنّه يصعد من الأرض، مُجتاحاً الممرّات والكتل الشجريّة، مُقرّباً بين الأجمات المتناثرة، مُلتفّاً حول جذوع الأشجار غير الظّاهرة، مُكتّلاً أفنانَ الأغصان، مُجتاحاً المساحات ما بين الأوراق فتغدو بؤرةً واحدة من العتمة، فريدةً. وكان اللّيل، في الأسفل، يتبخّر ويُصبح سميكاً وكثيفاً بالموازاة مع إدراكه قمم أشجار الصّنوبر السّامقة.

أخيراً، فوق الكنيسة والحديقة والغابة، في الأعلى، في السّماء الصّلبة، كانت تنبجس المياه الباردة للنّجوم. وكان ممكناً القول عن غالبية هذه المصادر المُنيرة والمثلّجة، وعن بعضها الآخر الذي كان يتأجّج بقوّة أكبر، إنّها حَمٌّ[15] مقلوبة وينابيع حُوّلت عن مجاريها. لا وجود لأيّ تموّج ولا أي سحابة ولا أيّ ثنية، في هذه السّماء التي كانت في صورة بحر جامد مُرصّع بجزر سائلة.

كان جاك يحسّ بهذا الفتور الذي يجتاح الجسد كلّه، والنّاتجَ عن الدّوار الذي يُصيب العينين عندما تكونان ضائعتين في الفضاء.

كانت شساعة هذا المحيط الصّموت، ذي الأرخبيلات المُنارة بألسنة لهب مختلجة، تصيبه بما يُشبه الارتعاش، فينهدّ من هذا الإحساس بالمجهول وبالفراغ، والذي تشعر منه الرّوح المختنقة بالرّعب.

كانت لويزا نفسها قد تركت نظرها يهيم في هذه المهاوي البعيدة، وهي تمشي في أثر زوجها الذي كان نظره، المضلّلُ بسرابِ رؤية ثابتة، يتوهّم أنّه يلمح كيفما اتّفق، وعلى هواه، وحيث لا توجد

فعلاً، كوكباتِ نجومٍ بألوان مُشرقة، والمجرّاتِ ذات الألوان اللّيلكية والصّفراء لكاسيوبيا، والزّهرةَ في كوكبها الأخضر، والأراضي الحمراءَ للمرّيخ، والشّموسَ الزّرقاء والبيضاءَ لكوكب الجوزاء.

كانت تتصوّر، مقودة بزوجها، أنّها تراها هي أيضاً، فانبهرت من هذا المجهود الذي تبذله، واندهشت عندما استعادت ناظرَيها قُدّامها، وهي تُحسّ في معدتها بما يُشبه قلقاً يسيل إلى حدود ساقيها المترنّحتين الرّخوتين، شاعرةً وكأنّ كفّاً تسحب هذا القلق، ببطء، في داخلها، من الأعلى إلى الأسفل، فقالت لزوجها:

- لست على ما يُرام، لنَعُدْ.

انبثق القمر، بدوره، خلف القصر، في كماله واستدارته، شبيهاً ببئر فاغرة فاها نازلة إلى قاع المهاوي، مُعيدة إلى مثابِ فوّهتِها الفضّيةِ دِلاءً من نيران شاحبة.

5

حصل ذلك أبعد من كلّ الحدود، في انفلات غير مُحدّد للنّظر. صحراءُ شاسعة من الجسّ الجافّ، صحراءُ من ماء الجير المتيبّس، ينتصب وسطها جبل مستدير، ضخم، خشن الجوانب، تجتاحه ثقوب كأنّها ثقوب الإسفنج، مُرصّع بنقط مشعّة شبيهة بحبّات السكّر، في قمّته ثلج صلب، ومُفرّغ من أعلاه كمثل كأس.

كان ثمّة جبل آخر، منفصل عن هذا بوادٍ تبدو أرضيته المنبسطة معجونة بطين متيبّس مُشكّل من كريات الرّصاص الطّبيعيّ ومن الطبّاشير؛ وكان يدفع إلى علوٍّ شاهقٍ بقمّة شبيه لونها بلون القصدير، شكلها شكل قِمع، حتّى ليُخيّل للرّائي أنّ هذا الجبل قد طُرِّقَ وانتفخ بحدبات ضخمة وبموجة عملاقة، مُنهدمٌ أحدُ جوانبه، وأنّه قد طُبخ على نيران أفران متعدّدة، وأنّ كرياته الصّغيرة المغلاّة، والمضغوطة فجأة، ظلّت، وقد تجمّدت في لحظة واحدة، سليمةً كاملة.

- من المؤكّد أنّنا في قلب محيط العواصف[16] فكّر جاك، وأنّ هاتين الكأسين العملاقتين الممتدّتين نحو السّماء هما القمّتان الأُقنويتّا الشّكل لجبلي كوبرنيك[17] وكيبلر.

لا، أنا لم أُخطئ الطّريق، أسرّ لنفسه، وهو يتأمّل اللّون الأبيض المجمَّد لهذه المساحة شبه المسطّحة، والتي تُصبح مُحدّبة ومتعرّجة، فقط عندما نقترب من سفح جبل.

اتّخذ له اتّجاهاً، مُعتمداً على يقين لا تشوبه شائبة. هناك، في اتّجاه الجنوب، هذا الذي يبدو غير واضح كمثل خليج كبير، هو بحر الأخلاط[18]. وهذان الورمان المرعبان اللّذان يحرسان مدخله هما، دون أدنى شكّ، جبلا غاسندي وأغاتارشيت، ثمّ فكّر، باسماً، أنّ القمر هو، مع ذلك، بلد ذو فرادة، حيث لا وجود لا لبخار ولا لنباتات ولا لأرض أو ماء. لا شيء غير الصّخور وأَمسِلة الحِمم. لا شيء غير مدرّجات متناضدة وبراكين خاملة. ثمّ، لماذا احتفظ علم الفلك بهذه التّسميات غير الدّقيقة، وهذه الأوصاف الغريبة التي عفّا عليها الزّمان، والتي كان علماء الفلك قد سمّوا بها هذه الامتدادات من السّهول والسّلاسل من الجبال؟

التفت نحو زوجته، الجالسة منذهلة من هذا البياض، وفسّر لها في كلمات أنّه سيكون من باب التّهوّر المغامرةُ بالسّير وسط هذا الكوكب، لأنّ ثمّة توجد المنطقةُ البركانية، وتجمّعُ فوّهاتِ البراكين الخاملة وامتدادات الجبال المنتشر بعضها فوق بعض وسلاسل الجبال التي تكاد تُلامس

قمم بعضها بعضاً، تاركة بين سفوحها مجالاً بالغ الضّيق لممرّات خشنة، تبدو وكأنّها قد قُدّت في قطَع من كلس أو شُقّت في رصاص.

بعد ذلك ساعدها في النّهوض. كانت تُنصت إليه مُستطلعةً شفتيه، فاهمةً كلماته، دون أن تسمعها بسبب غياب كلّ مجال جويّ يستطيع نشر الصّوت في هذا الكوكب الخالي من الهواء. أدارا ظهريهما للمنظر الذي كانا يتأمّلانه وصعدا في اتّجاه الشّمال ومشيا على طول سلسلة الكاربات، واجتازا سلسلة الأريستارش التي كانت قمم جبالها تُستعرض، مُسنّنة كمثل أذناب الجمبري، وتتراءى جوانبها في شكل أمشاط. كانا يتقدّمان بسهولة، منزلقين أكثر ممّا يمشيان، على نوع من جليد زُجاجيّ تبدو على سطحه أمواج من نبات السّرخس المبلّرة، تبرق عروقه وجوانبه ببريق شبيه بلمعان الزّئبق. تصّورا أنّهما يتجوّلان في حرَجَة منبسطة، وعلى تشجير مُصفّح منثور تحت ماء شفّاف مُجمّد.

أفضى بهما المسير إلى سهل آخر، هو «بحر الأمطار». هنا أيضاً، أصبحا يُطلاّن، جالسين على ربوة، على منظر يمتدّ على مدى البصر، مُسنّنٍ بجبال من الجبس، ومتورّمٍ ببراكين من ملح، ومُنتفخ بعساقيل، تجتاحه أورام وتسيل عليه حمم كأنّها أخبَاثُ الحديد.

وكما في تصميم استراتيجيّ، كانت أعالٍ شاهقة وبراكين بلا عدّ شبيهة ببركان شيمبورازو تكتسح السّهل: الأولير وبيتياس وتيموشاري وأرخميدس وأوتوليوس وأرستي، وشمالاً، بالقرب من تخوم «بحر البرد»، قريباً من خليج إيريس، الذي تتقوّس شُطآنه الصّخرية على الأرض الملساء، كان جبل بلاتو يثقب بشكل رائع تشقّقات الحمم، في أماكن عدّة، وينصب أعمدة من المرمر وأخرى من الرّخام وينزل في شكل لفائف عملاقة من المرمر، مُتدحرجاً في شكل كتل من الصّخور البيضاء، تتخلّله ثقوب شبيهة بمرجان متشعّب، تلمع كخروم الغربال.

كان ذلك كلّه يظهر وكأنّه يُضاء بذاته. كان النّور يبدو مشعّاً وهو يصعد من الأرض، لأنّ هناك، فوقُ، كان سواد السّماء كاملاً، كثيفاً، مرصّعاً بالنّجوم التي تُنير لذاتها، في مكانها، دون أن ينتشر أيّ شعاع ضوءٍ منها.

وفي العمق، كانت سلسلة أرستي تبدو شبيهةً بمدينة قوطية بقممها التي كأنّها أسنان صاعدة في الفضاء، قاطعةً بمنشارها البازالت المنجّم للسّماء. وخلف هذه المدينة وأمامها، كانت توجد بلدتان مُتناضدتان، مازجتان بالهندسة الموريسكية لغرناطة طابعَ هايدلبرغ[19] المنتمي إلى القرون الوسطى، جاعلتين خليطاً من البلاد والقرون تتشابك فيما بينها بمنارات وأجراس وسهامِ قبابٍ وكوّاتِ رمي القذائف وفتحات أعلى الجدران ومقاذفَ وقبابٍ. ثالوث عملاق لعاصمة ميّتة، كانت قديماً قد قُدّت في جبل من فضّة بسيول صاحبت احتراق الأرض!

وفي الأسفل، كانت هذه المدن كلّها تتجزّأ في ظلالٍ ذات سواد دامس، في ظلالٍ طولُها فرسخان، فتبدو شبيهة بكتلة من أدوات الجراحة الضّخمة، المتشكّلة من مناشير عملاقة ومباضع ضخمة

ومجسّات مُبالغ في حجمها وإبر هائلة ومثاقب للعظام ومَحاجمَ خرافية؛ حقيبة كاملة من أدوات الجراحة الخاصّة بأطلس وأنسيلادس[20] مفرّغة كيفما اتّفق على سماط أبيض.

ظلّ جاك وزوجته منبهرين شاكّين في سلامة نظرهما. فركا عيونهما، لكنّهما ما إن أعادا فتحها حتّى بلبلتهما الرّؤية نفسها: مدينة مرسومة بالفضّة على عمق ليليّ، تعكس بواسطة الرّسوم المدبّبة للظّلال الأشكالَ الدّقيقة للأدوات الجراحية المعتمة والمنثورة، قبل إجراء عملية، على قماش أبيض.

أمسكت لويزا بذراع زوجها، فنزلا السّهل. وعندما عاجا يميناً دلفا في وادٍ صغير يقوم على إحدى ضفّتيه جبلا تيموكاريس وأرخميدس، وعلى الجهة الأخرى سلسلةُ جبال الأبنيني، حيث يرفع جبلا إيراتوستين وويجينس بطنيهما الشّبيهين بقنّينتين تُصبحان أكثر رقّة بالتّدريج وينتهيان بما يُشبه عنقَي زجاجتين فوهتاهما غير مغلقتين ومُحاطتان بهالات بيضاء.

- ومع ذلك فهذا غريب، قال جاك. ها نحن قد أدركنا «بحر العفن» لكنّه ليس ببحر ولا تنبعث منه رائحة! صحيح أنّ «بحر العواصف» جافّ تماماً وبحر الأمزجة الذي من المفترض أن يكون دسماً كمثل بحيرة من صديد ما هو إلاّ شبيهُ صحنٍ خزفيّ ضخم مُشقّق، على حاشيته شبكات رمادية من الحمم!

فتحت لويزا أنفها واستنشقت الهواء غير الموجود. لا، لا تنبعث أيّ رائحة من «بحر العفن» هذا. لا وجود لرائحة سلفور الكالسيوم الدّالة على تحلّل جيفة. لا بخار جثّة تتعفّن أو دمٍ يتحلّل. لا ركامَ جثث. الفراغ. لا شيء غير الفراغ. انعدام الرّائحة وانعدام الضّجيج. إقصاء حاسّتي الشّم والسّمع. فضرب جاك، فعلاً، بطرف قدمه كتل حجارة نزلت متدحرجة مثل كريّات من ورق، دون أن يصدر عنها أيّ صوت.

تقدّما بصعوبة بالغة. كان هذا البحر مُبلّراً وكأنّه بحيرة من ملح، مموّجاً ومُبقّعاً كما لو ببثور جدريّ عملاقة، موسوماً بآثار مستديرة، واسعة كمثل الأحواض المنشأة بفرساي زمن حكم الملك العظيم[21]. كانت تبدو، في أماكن منه، جداولُ وهميّة تتعرّج، ويَلُوحُ مثلوماً بانكسار أشعّة لا نعرف مصدرها، وبخيوط اليود الرّمادية الضّاربة إلى اللّون البنفسجيّ. وفي أماكن أخرى منه، كانت تبدو أقنية غير معهودة رابطة بين بحيرات مصبوغة بالأحمر غير الصّافي للبرومين. وكانت تظهر، في أماكن أخرى أيضاً، جروحٌ غيرُ قابلة للاندمال حُويصلاتٍ وردية، على أديم معدن الرّكاز الشّاحب هذا.

راجع جاك خريطة كان يحتفظ بها مطويّة في جيب لباس من صنع إنجليزيّ لا يتذكّر أنّه سبق له أن ارتداه حتّى تلك اللّحظة. بدت له هذه الخريطة التي نُشرت في غوتا[22]، بعناية من يوستوس بيرت[23]، شديدةَ الوضوح، بكتلها المسنّنة وبتفاصيلها المجسّدة وبتسمياتها اللاّتينية: لاكوس، أوسيانوس بروسيلاروم، بالوس بوتريدينيد، مورتيس، وهي خريطة مُستعارة من «مابّا

سيلينوغرافيكا»، الخريطة القديمة التي أنشأها بير[24] ومادلر[25]، والتي ليست هي منها سوى نسخة مختزلة.

- نحن أمام خيارين، أسرّ لنفسه. فإمّا أن ننزل المضيق المشكّل من ضفاف بحر الهدوء وسفح جبل هيموس، أو أن نعود إلى الصّعود عبر مضيق جبال القوقاز[26] إلى حاشية بحيرة الرؤى، ثمّ العودة إلى النّزول، بتتبّع جبال طوروس، إلى أن نُدرك جبل يانسن.

بدا أنّ هذه الطّريق الأخيرة بدت هي الأسهل والأوسع، لكنّها تُطيل بآلاف الأميال المسارَ الذي كان خطّه لنفسه، فحسم أمره على أن ينسلّا عبر ممرّات جبل هيموس، لكنّه جعل يتعثّر برفقة لويزا عند كلّ خطوة، بين سورين من إسفنج مُصخّر وفحم الكوك الأبيض، على أرض مكسوّة بالثّآليل، مغمورة بالكلور المغلّى والمتيبّس. ثمّ وجدا نفسيهما أمام ما يُشبه نفقاً فاضطرّا للتّخلي عن يد بعضهما بعضاً والمشي، أحدهما خلف الآخر، في هذا الممرّ الشّبيه بأنبوب من بلّور مُنارِ الجوانب بما يُشبه نقطاً ألماسية تُضيء الطّريق. ارتفعت القبّة فجأة ودلفت في مدفأة فرنُها عالٍ، مُغلَقةً في قمّتها باستدارةِ سماءٍ سوداء، مبسوطة على مسافات لا يُمكن حسابها.

ها نحن نقترب من الوصول، تمتم جاك. فهذه الفتحة هي القمّة المجوّفة لمنلاوس. وبالفعل، انتهى النّفق، فوصلا بالقرب من رأس أرشوسيا، غير بعيد عن جبل بلينوس، في بحر الطمأنينة الذي تُشبه ضواحيه الصّورةَ البيضاء لبطنٍ ختَمَه جبل يانسن بسُرّة، ومشقوقٍ مثل فتاة بـالفرج الكبير لخليجٍ، وقد شعَّبه بحرا الخصوبةِ والرّحيقِ بساقين مُنفرجتين، قدماهما مُشوّهتان.

تقدّما بسرعة نحو جبل يانس، تاركَين على يسارهما برْكة النّوم، ذات اللّون الأصفر وكأنّها بحر مُتخثّر بالمِرّة، وبحرَ الأزمات، وسهلاً من الطّين المتيبّس لونه مخضرّ حليبيّ يشبيّ.

تسلّقا مُنحدرات صعبة وجلسا.

عندئذ أضحى ماثلاً أمامهما مشهدٌ في غاية الرّوعة.

على مدى البصر كان بحر هائج يُدحرج أمواجاً صامتة عالية كمثل كاتدرائيات. في كلّ مكان كانت توجد شلاّلات من سائل لزج متخثّر وانجرافاتٌ ثلجية متحجّرة وأمواج وسيول ضجيجها صامت. كانا يُشاهدان حنقَ عاصفة مُتعاظمة جُمّدت بحركة واحدة.

كان المنظر يمتدّ بعيداً إلى حيث تفقد العينُ المُضَلَّلةُ الأقيسةَ، مُراكماً فراسخ وفراسخ، دون أيّ إمكانية لتحديد تقريبيّ للمسافات وللزّمن.

كانت توجد ثمّة دوّاماتٌ تهبط في شكل لولبيّ ثابت في هاويات خاملة. وكان هناك أيضاً طبقات غير محدّدة من زبد شلالات نياغارا المتشنّجة التي تُطلّ أعمدة مائها على الهاويات، بأنينها النّائم وقفزاتها المشلولة ودوّاماتها الصّماء الكسيحة.

فكّر مُتسائلاً عن طبيعة الكوارث التي من المفترض أن تكون هذه العواصف قد تجمّدت على أثرها وانطفأت فوّهات هذه البراكين، وعقب أيّ تقلّص رائع للمَبِيضَاتِ عُرقلَ الشّر المقدّس، صَرَعُ هذا العالم وهستيريا هذا الكوكب الباصقةُ ناراً والقاذفة بأعمدة من ماء، مُتهيّجة، مُبلبَلة على مجرى حممها؟ عقب أيّ تعزيم لا رادّ له كانت سيلينه[27] الباردة قد أصيبت بالتّخشّب في هذا الصّمت المطبق السّائد منذ الأزل تحت العتمة الحالكة لسماء لا تبوح بأسرارها؟

عن أيّة بذور إذن نتجت هذه الجبالُ المهملة، وشلاّلاتُ الهملايا هذه ذاتُ الهيئة المكلّسة والمجوّفة؟ أيّ إعصار أنضب هذه المحيطات وسلخَ عن حوافّها النّباتاتِ غير المعروفة؟ أيّة طوفانات من لهب مفترضة وأيّ التماعات لصواعق ما عاد لها من وجود كانت قد شرطت أديم هذا الكوكب المخطّط بأخاديد شديدة العمق حتّى صار بإمكان البراهمابوتر[28] أن يجري فيها دون عناء؟

وفي البعيد، أبعد من ذلك، كانت تنبثق من دائرةِ الآفاقِ المنظورة سلاسلُ جبال أخرى تُلامس قممها العالية جدّاً غطاء ليل السّماء، الموضوع على أسنان مسامير القمم، منتظراً أن تجعله مطرقة ما فوق طبيعية يغوص بضربة واحدة فيُغلق بإحكامٍ العلبة غير القابلة للتّدمير.

علبة لعبة طفلة عملاقة شديدة الضّخامة، علبة فخمة تحوي تمثالاً من سكّر العواصف والسّهول، وصخوراً من ورق مقوّى وبراكين مُجوّفة، بإمكان طفلِ عملاقٍ ذي عين واحدة أن يغطس في ثقوبها إصبعه الصّغرى، ويرفع في الفراغ الهيكل الضّخم لهذه اللّعبة التي بلا مثيل. إنّ اللّيل لمُرعبٌ للعقل ومُرهب للهشاشة الإنسانية.

بدأ جاك يشعر بهذا الثّقل الذي يعتور أسفل البطن؛ أحسّ بتقلّص المثانة النّاتج عن القلق الممتدّ الذي يُحدثه تأمّل الفراغ.

نظر إلى زوجته. كانت هادئة وهي تُراجع الخريطة التي تُمسك بها مبسوطة على ركبتيها، مستعملةً منظارها، متّخذةً هيئة امرأة إنجليزية تستطلع دليلها.

هذا الاطمئنان، وهذا التّأكّد من أن له، بالقرب منه، كائناً فعلياً وحيّاً، يمكنه أن يلمسه إن شاء، هدّآ ضيقه. وهذا الدّوار الذي كان يجذب عينيه خارج جفنيهما ويقودهما نحو عمق الهاوية، هدأ إذ حطّ بصره على كائن معروف، يجلس على بعد خطوتين منه، ووجوده ملموس ومؤكّد.

ثمّ أحسّ بأنّ جسده فارغ تحت ملابسه كمثل هذه الجبال الأنبوبية، بلا أحشاء شبه معدنية ولا قلب من صخور ولا أوردة من صوّان ولا رئتين من معادن. أحسّ بنفسه خفيفاً، يكاد يكون سائلاً،

مستعدّاً للتّحليق لو أنّ الرياح غير المعروفة لهذا النّجم عادت للوجود. كان البرد الحانق للأقطاب والهواجرُ المذهلة لخطوط الاستواء يتعاقبان دون مرحلة انتقالية ودون حتّى أن ينتبه هو إلى ذلك، لأنّ الانطباع كان حاصلاً لديه بأنّه تخلّص أخيراً من اللّحاء المؤقّت للجسد. لكن الرّعب من هذه الصحراء الحزينة، الرّعبَ من هذا الصّمت المقابريّ، رُعبَ قرعة الحزن هذه، أعرب عن نفسه فجأة، فأخرجه عن طوره الاحتضارُ المبلبل للقمر المختفي تحت الشّاهدة القبرية للسّماء. وكي يهرب من وضعه، رفع رأسه.

- ألا انظر، قالت زوجته بسذاجة، ها هم يُشعلون النّور!

كانت الشّمس، بالفعل، تنسحب على القمم التي تألّقت أعاليها المنفرجة فأضحت كأنّها معدن يذوب بألسنة لهب بيضاء. كانت أشعّة تزحف على طول القمم التي توجد وسطها فوّهة تيشو[29] المتحرّكة والرّهيبة، فاغرة فاها بهذه النّار الوردية، وهي تُصرّ بأسنانها الجمرية، نابحة دون صوت في هذا الصّمت المطبق لسماء بهيمة.

- هذه أجمل في الرّؤية من سطح سان جرمان، واصلت لويزا القول، بنبر يُظهر اقتناعها بما تقول.

- بدون شكّ، أجاب جاك، مُفاجأً من مُزحة زوجته التي كانت بدت له حتى تلك اللّحظة أندرَ حديثاً وأقلّ ثباتاً.

6

انصرم زمن. وذات يوم، عندما صعد جاك إلى غرفته، بعد قيامه بجولة في الحقول، وجد زوجته شاحبة، ذراعاها ساقطتان، مُنهارة على كرسيّ.

- لا، لستُ مريضة، لكنّني عاجزة عن مشط شعري. ما إن أرفع ذراعي حتى أشعر بقوايَ تخور. أنا لا أتألّم، بل بالعكس، أشعر في داخلي بسكينة، سكينة كاملة. والآن كأنّ قلبي يتضخّم، وأشعر أنّني أختنق.

ليس هذا بشيء، واصلت القول بعد إصدار تنهيدة، وبمجهود إراديّ انتصبت واقفة وخطت خطوة. عجباً!، قالت، يبدو لي كأنّ مربّعات أرضية الغرفة تتنقّل وأنّها هي التي تمشي.

أطلقت، فجأة، صرخة وجيزة ورمت قُدّامها برجلها اليمنى، في ما يُشبه القذفة الجافّة لمعلّم رياضة «السّافات»[30].

حملها جاك إلى السّرير حيث تواصلت رفساتها لما أمامها وتعاقبت، لحظة بعد لحظة، مسبوقة بإطلاق صرخة. كانت آلامٌ شبيهةٌ بصدمات كهربائية تنتشر على طول ساقيها، ثمّ تخبو كما يخبو الاهتزاز الموقَّع لشَرَارَة، لتعود مُتسكّعة على طول فخذيها، مُنطلقة من جديد فيما يُشبه صعقات كهربائية مُفاجئة.

جلس جاك، عالماً بعجزه أمام هذا الألم الذي أعيى كلّ الاقتراحات وكلّ الوصفات. تذكّر استشارات الأطبّاء وحديثهم عن مرض عضال وعن رُحامٍ[31]، معترفين بتطوّره المستمرّ، مصحوباً بوهن تُفاقمه الرّاحة والعلاج بالمهّدئات، فبقي كلّ ما خضعت له من كيّ وفصد وقياس لعمق الجرح وزيارات مُكدِّرة وكلّ المحاولات المقيتة التي كان على الشّقية أن تخضع لها؛ بقي ذلك كلّه بلا جدوى.

بعد أن نزل الأطبّاء إلى أقبية الجسد حيث بحثوا عن آثارٍ لهذا الإحساس البليد الذي يُثقل في العادة على المريضة، وبعد أن استولى عليهم القلق من عدم عثورهم على أيّ شيء ملموس، غيّروا من تقنية اشتغالهم، الواحد بعد الآخر، مُرجعين إلى ضيقٍ للجسمِ ككلّ هذا المرضَ المُمتدّة جذورُه في كلّ مكان وفي لا مكان، فوصفوا لها المهدّئات والمسكّنات، وحاولوا تجريب المنشّطات بجرعات قويّة، ملتجئين، قصد تهدئة الآلام، إلى المورفين، منتظرين أن يسمح لهم عرَضٌ ما بتحديد وجهتهم فيكفّوا عن تلمّس طريقهم بهذه الشّاكلة في ضباب الآلام المبهمة التي لا يُعرف لها مصدر.

المشعوذون الذين عادةً ما يُلتجأ إليهم بعد أن يُبديَ الطّب عجزه الكامل، لم يستطيعوا، بدورهم، أن يتبيّنوا حقيقة الدّاء. لا بل أكثر من ذلك، كان أحدهم قد اكتشف علاجاً مُناسباً للمرض، لكن بأيّة طريقة؟ عندما نضع صفيحة معدنية على المكان المحدّد للألم، يتنقّل الدّاء فيلزم السّير في أثره ومُطاردته وتعقّبه، فلا نصل، في نهاية المطاف، إلاّ إلى دروب حتمية لا مخرج منها، من حيث يقفز من جديد إلى حرَجَات العروق وكأنّ مِقفزاً مُهتزّاً هو الذي قذف به.

كما أنّ بلسماً بولونيّاً اخترعه الكونت ماتيه، ويُعرف، في شعبة علاج الدّاء بالدّاء، باسم الكهرباء الخضراء، كان باستطاعته اعتراض هجمة الألم، فيكاد يُسكّنه، ويحول تقريباً دون وقوع الاهتزاز،

لكن آثاره كانت غير دائمة. فبعد أن يكون له أثر لزمن معيّن، لا تعود هذه المياه الملغزة قادرة على فعل شيء.

نظر جاك مُتفكّراً إلى زوجته التي غطّست وجهها في الوسادة، جسدها مُتموّج بارد تحت اللّحاف، وجعلت أفكاره، التي كانت قد صعدت حتّى أدركت منبع هذا الدّاء، تعود إلى نزول المجرى الذي قطعته هذه الأزمة الصّحية، مُلتحقةً بها، في هذه اللّحظة، فاحصةً إيّاها في قصر لوربْس، وحتّى مُتخطّية لها، بالتّخمين كيف سيكون مرورها في الشّعاب المجهولة للمستقبل.

إلى أيّ تاريخ يعود حمق الأعصاب المحيّر هذا، وعن أيّ نكبات نتج؟ لا أحد يعرف ذلك. غير أنّ المؤكّد هو أنّ الأمر حصل بعد الزّواج، عقب اضطرابات داخلية أخفاها خجلٌ كاذب أطولَ مدّة ممكنة عن التّشخيصات غير الدّقيقة للأطبّاء وعن مقاربات الزّوج العديمة التّبصّر. استمرّ ذلك سنوات، مؤثّراً فقط في الصّحة الجسدية، ثمّ تسلّل، شيئاً فشيئاً، إلى المعنويّات، ناقضاً إيّاها من أساسها، وفي نهاية المطاف ربطَ، في توازن يدعو للرّثاء، بين حالات ثِقل الرّحم وحالات خدر الرّوح، وبين الآلام التي تجتاح المعدة وحالات الإرادة المُنهكة التي تدوم طويلاً.

وشيئاً فشيئاً حدث تصدّع في سير التدبير المنزليّ، فجعل المالُ يتسرّب منه. كانت لويزا المتيقّظة، قد استرخت منذ تزوّجت، تاركة للخادمة قيادة المركب، فدلف إلى المنزل على الفور ماء عكِر. عندما كانت الخادمة تذهب للتّسوق، يكون الأمر أشبه ما يكون بعصابة من المرتزقة العُجُزِ وقد ضربوا حصارهم حول صرّة نقود جاك، فتأتي بخضار جرفتها الأودية وكمّثرى مدوّدة مليئة، مثلها مثل أكياس التّشوق، ببذرات سوداء، وتفّاح مسكون في داخله بما يُشبه قطناً مضغته القطط. أمّا السّمك فقد أضحى مثيراً للرّيبة واللّحمُ مُبيضّاً، وقد استنزفه الاستخلاص القبيح لدمه الذي يُباع على حدة.

أصبح المطبخ مُكلِّفاً ورديئاً. وكما لو كان هذا الهذر في المال المخصّص للتّسوق قد أصيب بمرض الرّقَص، انتقلت عدواه إلى المموِّنين، فصار الفحّام يغشّ في الميزان ويُقلّص من حجم الأكياس، وما عاد الماسح يمرّ على الأرضية إلّا بتكاسل، واستعملت الكوّاءة نفس المنهجية التي تستعملها مثيلاتها، فنكّلت بالغسيل وبدّلته وتناست الإتيان به مراراً وأضاعته وخلطت المناديل والحسابات، مُلتجئة إلى طريقة في طيّ الملابس ماكرةٍ كي تُخفي آثار الكلور والثقوب التي تحْدثها المكواة.

كانت لويزا تشعر أنّها لا تملك القوّة لتتصرّف حيال ما ترى، واصلة إلى درجةِ تركِ الأمور تمشي كيفما اتّفق، مرعوبة من فكرة أن تبذل مجهوداً وأن تُجازف بإبداء ملاحظات وأن تدخل في صراع. وكان هذا الاضطراب، يقرضها من الدّاخل كمثل تبكيت للضّمير، فيُعكرّ لياليها ويُفاقم مرض أعصابها باستمراريته الواخزة.

استنزفها هذا الصّراع الدّاخليّ، وهي تُصدر لنفسها أوامر لا تقدر على تنفيذها، وانتهت، محبطة، بأن جعلت تُخفي رأسها كمثل طفل، مُوهمةً نفسَها أنّ حالات الغشّ تكف عن الوجود ما إن تُغمض

عينيها كي لا تراها.

لم يتأخّر جاك في الشّكوى من هذا الإفلاس، لكن محيّا زوجته الحزين وتوسلَ عينيها الصّامت كانا يجعلانه يكفّ عن شكواه، وقد تأكّد لديه أنّه ما إن يُقطّب وجهه حتّى تتفاقم حال لويزا، فاكتفى، هو أيضاً، بتشبيك ذراعيه على صدره، مرعوباً من خور طاقة زوجته ومن هذا الخرس المؤلم لامرأة كان قد عرفها متحمّسة للعمل ومقبلة عليه بهمّة.

كان يُفكّر في الفوضى التّدريجية التي عمّت بيته، مُتحسّراً على كون إصلاح الوضع قد صار متعذّراً، فاجتاحته حالات ثورة صامتة. هو، في كلّ الأحوال، لم يتزّوج كي يُجدّد الفوضى التي عمّت حياته عندما كان شابّاً أعزب. إنّ ما كان سعى إليه، عندما اقترن بلويزا، هو الابتعادُ عن تفاصيل قبيحة عرفتها حياتُه، وهدوءُ البيت وصمت المطبخ والجوّ الرّائق والمكان المخمليّ السّاكن والوجود المستدير الذي لا زوايا له يُعلِّق عليها الانتباه إلى ما يُضجِر؛ فأصبح، بعد الزّواج، يعيش في مرفأ سعيد، داخل سفينة منجّدة، في منأى عن الرّياح، ويحظي بألفة امرأة، يستر لباسُها حالات القلق النّاتجة عن آثار سطحية، مُجنّبة إيّاه، كمثل ناموسية، وخز الترهات الصّغيرة، مُحتفظة للحجرة بدرجة حرارة منصوح بها، معتدلة. كان كلّ شيء ملك يمينه، بلا انتظارات وبلا أشغال يُسعى إليها؛ فقط حبّ وحساء، غسيل وكتب.

بسبب وحدانيته، وبعدم قابليته لمعرفة أشخاص جدد، وبارتباطاته القليلة، وبالنّظرة المرعوبة التي كان يُلقي بها على العالم، استطاع أن يُحقّق، في نهاية المطاف، المنال الصّعب بأن يحظى، بصفة نهائية، بسمعة الدّب التي كانت تُلازمه، لأنّ النّاس، مُتعبين من رفضه المتكرّر، أصبحوا يُجنّبونه حرج الاعتذارات المستمرّة فما عادوا يدعونه، ليُحقّق حلمه بالهدوء، وقد تزوّج من فتاة طيّبة فقيرة، يتيمة الأبوين، لا أسرة لها تزورها، فتاة نظيفة وعمليّة، تتركه يُنقّب، بهدوء، في كتبه، ملتقّةً على ميولاته، مُحافظة عليها غير معكِّرَةٍ صفوها.

كم أصبح هذا بعيداً! وكم كان هذا الهدوء المُعرَب عنه قصيراً في مداه، بالقرب من امرأة كان كلامها قليلاً، وبالنّتيجة مُحتملاً، لا حاجة لها في الذّهاب والإياب إلى السهرات والمسارح!

بسرعة، وما إن ظهرت أولى أعراض المرض غير القابل للتّشخيص، حتّى تغيّر جوّ البيت. وهذا الصّباحُ المُغيّم قليلاً، والذي كان يُحبّ أن يشعر به حوله، صار غسقاً شتائياً طويلاً وحزيناً. لويزا الصّموت والخاملة، كانت تبتسم مع ذلك وتعترف لجاك بأن تعلّقها به لا يزال كاملاً، لكنّها تلتمس، بمعنىً من المعاني، بعين مُتردّدة حنونٍ، شبيهةٍ بعين قطّة نائمة على ملابس، أن تُترَك هناك، ولا تُطرد، وألّا تُرغم على البحث عن مكان آخر.

وبدأت تغيظه عودة ذكرياته التي شرعت كلٌّ منها تُثقل لدى مرورها على جرحه وتَخِزه. هل الخطأ خطؤه أنْ رتّب نفسه بطريقة لا يستطيع معها أن يتحمّل انجراف حياته، وأنْ كان، في حالات فضوله وافتتانه، يحتاج بأيّ ثمن إلى الرّاحة؟ فهو كان رجلاً يقرأ في صحيفة أو في كتاب جملةً غريبة عن الدّين أو العلم أو التّاريخ أو الفنّ، عن أيّ شيء، فيتحمّس لها على الفور ويُسارع، مهرولاً إلى البحث، منكبّاً، في يوم، على التّراث، مُحاولاً أن يُلقي فيه بمسباره، مُعاوداً الاهتمام

بلغته اللاّتينية، مُنقّباً بلا هوادة، ثمّ لا يلبث أن يترك كلّ شيء، مُتقزّزاً فجأة، وبلا سبب، من تلك الأبحاث ومن الأشغال، مُنقذفاً، ذات صباح، في صلب الأدب المعاصر، قارئاً مضامين كتب عديدة، غير مفكِّرٍ إلاّ في هذا الفنّ، فاقداً الرّغبة في النّوم بسببه، إلى أن ينصرف عنه، ذات صباح آخر، بانعطافة مُفاجئة، فيظلّ يحلم ضجِراً، في انتظار موضوع يُمكنه أن يصبّ عليه اهتمامه.
كانت مرحلةُ ما قبل التّاريخ وعلمُ الأديان والقبلانية[32] تستأثر باهتمامه. كان قد بحث في رفوف مكتبات وأتى على كتب مخبوءة في علب كارتونية فشحن ذهنه حتّى الامتلاء بذلك الرّكام. وقد حدث ذلك كلّه بسبب كسله الدّائم وانجذابه المؤقّت إلى ما يقرأ، دون أن يكون باحثاً عن نتائج معيّنة ودون أن يكون له هدفٌ ذو جدوى.

بلعبه هذا، حصّل علماً غزيراً وسديمياً، يزيد قليلاً عمّا هو غير يقينيّ ويقلّ عمّا هو علم بحت. كانت حاله تتجسّد في الافتقار إلى الطّاقة، وفي الفضول الحادّ جدّاً حتّى ليتكسّر على الفور، وانعدام التّتابع في الأفكار، وضعف الإيمان، والحماسة الزّائدة إلى العدْو عبر السّبل المتشعّبة، والتّخلي عن طرق بمجرّد ولوجها، وعسر هضم الدّماغ الذي يُطالِب بمأكولات متنوّعة ويتعب بسرعة من الأكل المُشتَهَى، هاضماً إيّاه كلّه تقريباً، لكن بطريقة سيّئة.

وأثناء تدحرجه بهذه الطّريقة في غبار الزّمن، كان قد تذوّق سويعات لذيذة، لكن ما إن تبدّدت فطنةُ لويزا، مُستنزَفة بمِبرَد الأعصاب، حتّى أصبح ذاهلاً وبلا دفاع أمام مشاغل المال التي كانت تُثلّج تغليف دماغه وتُعيد القذف به بفظاظة في شباك الحياة الواقعية التي لا فكاك منها.

ما الذي سيحلّ به يا ترى وقد أصبح بلا مال تماماً؟ هزّ رأسه بيأس. إنّه الوهن المعنويّ والجسديّ، هو البؤس الكامل، أسرّ لنفسه، وطفِق يتلذّذ بتضخيم الرّعب الذي ينضح به المستقبل، متوجّهاً رأساً إلى فكرة التّسوّل وإلى نقص الخبز وإلى دار العجزة التي من المفترض أن تُقاد إليها زوجته وإلى حالة البؤساء التي تنتظره هو.

وكما يحدث دائماً للأشخاص الأشقياء والقلقين الذين يقفزون من طرف إلى آخر قصيّ، مُعربين حتّى عن نوع من العزاء وهم يُلاحظون أنّهم لم يقعوا أبعد من المكان الذي سقطوا فيه، تراجع جاك وهدأ، مؤكّداً لنفسه أنّه يُبالغ في مخاوفه. لكلّ شيء حلّ: معتمداً على المجهول ومعوّلاً على المستقبل، مُسلّماً قيادَ نفسه للعناية الرّبانية أو للصّدفة، شرع يُكرّر لنفسه هذه البديهية العزيزة على الفقراء الذين في نهاية المطاف يحصلون على أكل ويستمرّون في العيش.

يمكن لأعمالي، في نهاية المطاف، أسرّ لنفسه، أن يوجد لها حلّ دون اللّجوء إلى أوهام! فعند عودتي إلى باريس، ربّما استطعت استرداد بعض المال والاستقرار في حيّ هادئ.

فتتبّع هذا المسار: يمكنني أن أبيع أغلب أثاثي وكتبي، واستعرض في ذهنه أثاثه وكتبه، مُضحّياً في البداية بالأشياء التي كان قليل التّشبّث بها، مُتردّداً لحظاتٍ بخصوص بعضٍ منها. كفى! قال مخاطباً نفسه، لا مناص من التّخفّف من هذا الزّحام والاحتفاظ فقط بما يلزم لتأثيث غرفتين!

ثمّ انخرط في عملية انتقاء لتُحَفه وكتبه، شاعراً بنوع من السّعادة أنْ جعل عطفُه الموزّع على مكتبته وغرفه يتركّز على القطع النّادرة التي كان عازماً على الاحتفاظ بها، فأحسّ بحبّه لها يتضاعف. وقد جعله تجدّد حبّه لبعض الكتب ولبعض الأثاث يشعر بالرّغبة، في تلك اللّحظة، في التّخلّص في أقرب وقت ممكن من باقي الأثاث والكتب التي أصبح فجأة مستعدّاً للتّخفّف منها.

سيكون جميلاً، فكّر، أن أُؤثّث بأجملِ تُحَفي مطبخاً صغيراً وغرفتين صغيرتين، ثمّ تخيّلهما أوسع وأطول، مُنارتين بشكل بهيج لإطلالهما على حديقة، في منأىً عن ضجيج الشّوارع. وسيوافق على ابتياع أوراق تنجيد غير مُشجّرة وبلا ورود، كامدة وغامقة. هنا، سيضع فراشه الذي سيحتفظ به، والمائدة اليانسون البنفسجية، وهناك مكتبَه وأريكتَين وثلاثة كراسيّ وسجّادة صغيرة وواجهة المدفأة. وفي المدفأة يضع أثافي الحديد المطرّق هذه، ذات الأرجل والرّؤوس الممدّدة بما يُشبه حبّات كمّثرى. وأخيراً، على المدفأة، الجذع الخشبيّ المنحوت والمصبوغ لرجل فقير من القرون الوسطى، وهو يُصلّي، يداه مشبوكتان على كتاب، رافعاً إلى السّماء عينين متوسّلتين وحزينتين. وعلى جانبي هذا الجذع سيضع شمعدانينِ أحمرين، مُسطّحين، وإناءَي أدويةِ الأديرةِ المنقوشَين، وهما علبتان سبق أن احتوتا، ربّما، أدويةً قاعدتها من معجون عسليّ ومن دياسكوريوم وترياق، استعملها دير قديم.

وفي الغرفة الثّانية، سيرتّب كتبه على رفوف بسيطة من خشب مصبوغ بالأسود، مُهيّئاً بذلك قاعة أكلٍ مكتبةٍ.

ابتسم، تائقاً، شبه لهفان لإخراج هذا المسكن الحميم إلى الوجود. بدا له أنّه سيكون مُرتاحاً إذْ يبقى فيه لمدّة أطول، وسيشعر أنّه فعلاً في بيته، وأنّه في تينك الغرفتين الواقعتين في الضاحية يكون في حال أحسن ممّا لو كان في شقّته الباريسية في غرف واسعة.

لكن هذا غير ممكن! تدحرج من أعلى حلمه إلى أسفله. ليس في ملكي حتّى هذه الحيلة التي يتمتّع بها الأشخاص خائرو القوى؛ ليس في ملكي حتّى أن أتراجع وأستقرّ في زاوية وأنكفئ في جحر وأن أعيش عيشة بسيطة؛ لأنّ تحقيق هذا الحلم الصّغير يقتضي أن تكون لنا زوجة مُقتصدة وصلبة! بيد أنّ لويزا ما عادت، منذ أُصيبت بهذا المرض، صالحة لشيء. ماذا عسانا نفعل بامرأة عاجزة قاعدة في زاوية، تضرب الأرضية بقدمها؟ ثم... ثمّ، ما أدرانا إن كانت صحّتها لن تزداد سوءاً، وإن كنت لن أُصبح، بافتقاري إلى المال، مُجرّد ممرِّض لها؟

آه لو كان وحده! إذن لكانت حياته انتظمت بشكل أحسن! وآه لو كان بإمكانه أن يبتدئ من جديد! إذن لما كان تزوّج! ولو افترضنا فعلاً أنّ لويزا ماتت، فإنّه بمجرّد انتهاء حداده، سيكون بإمكانه أن ينتظر دون عذابٍ ذي بال ميلادَ أحداث جديدة. سيكون بمقدوره أن يتعيّش إلى أن يجد له مكاناً في الوجود، وسيكون بمستطاعه ربّما أن يعثر على امرأة قويّة وصلبة، ذات تجربة في التّدبير المنزليّ، امرأة تكون شديدة الإخلاص، وتكون فضلاً عن ذلك عشيقة لا تفرض على عشيقها لحظات صوم جسديّ طويلة! أي نعم! هو سيعاني إلى أبد الآبدين من هذا التّقشّف الجسديّ الذي تجعله زوجته لويزا يتكبّده!

هو لا يكره أن تكون قويّة بعض القوّة، مورّدة الجلد قليلاً، مع ذلك، هذه العاشقة. هو سيُريدها...

«آه، لكنّني إنّما أُبدي بهذا دناءتي»، قال في سرّه وكأنّه يستفيق من حلم، ناظراً إلى لويزا المتألّمة وهي تغمض عينيها. ذُهِلَ من هذه الانبعاثات القذرة المتفجّرة فيه فجأة، لأنّه يُحبّ زوجته حقّاً، وهو مستعدّ لتقديم كلّ ما يملك لعلاجها.

عندما راودته فكرة إمكان فقد لويزا شعرَ برغبة في البكاء، فمال عليها وقبّلها، كما لو ليُعوّضها عن هذا الانفجار اللاإراديّ لأنانيته، كما لو لينفي لنفسه هذه الخسّة التي اتّسمت بها أفكاره.

ابتسمت له. هي نفسها، كانت في تلك اللّحظة، تعود القهقرى في حياتها، باكيةً بؤسَ جسدها، ووجودَها الضّائع، مُستريبة دنوَّها من حياة البؤس.

أكّدت لنفسها أنّ زوجها لن يكون أبداً، في يوم من الأيّام، صالحاً لشيء. من المؤكّد أنّه ليس من حقّها أن تتذمّر، لأنّه كان طيّباً وحنوناً، محبّاً للملاطفات، بعضَ الأيّام، بالرغم من استغراقه في قراءة كتبه، وشروده، في العادة، بسبب دراساته التي يتمثّل بسببها نوايا مُستلطفة. لكن أيضاً، يا لها من لا مبالاة بمَصالحه! لقد ساورها القلق مراراً من طريقته في توظيف أمواله، مُتّسمة هي بدهاءٍ وبقوّةٍ أكثر منه في هذا الجانب. لكنّه كان يُجيبها بهزّ كتفيه. آه! يا له من غبيّ انخدع بمصرفيّ كان يُقدّره فقط لأنّ هذا المُضارب لم يكن يتكلّم قطّ في الأعمال ويقصر اهتمامه على الفنّ! كم مرّة اغتاظت من زوجها، الذي ربّما كان رفيع القدْر في بعض الأمور، غير أنّه لم يكن سوى غِرّ صغير في المجال العمليّ.

لكن ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ فهي قد حاولت، طيلة سنواتٍ، أن تُنقذ زيجتها ممّا كان يحيق بها من أخطار ومكائد، لكنّها كانت تصطدم باستمرار، عندما يكون الأمرُ أمرَ مالٍ، بزوج لا يستجيب، مُغرقاً أنفه في كتبه، فيجعل يصرخ، فاقداً الصّبرَ، فألْفت نفسها مُضطرّة للكفّ على المؤاخذات، مُسرّة لنفسها أنّ هذه الثّروة الصّغيرة، في نهاية المطاف، ليست ثروتها، شاعرة بنفسها، لنقل، وكأنّها في الوضع الخاطئ لشخص يُشارك في عيش رغيد لا نصيب له منه.

وقد حلّ الخراب الآن، خراب كامل، فشعرت بغيظِ مُدبّرةٍ منزلية تُجاه زوج لم يعرف كيف يقود المركب إلى برّ الآمان. وقد بلغت بها الدّهشة مبلغها أنْ كانت تصوّرت، في السّابق، أنّها لا حقّ لها في فرض إرادتها ورفع صوتها. فهذه الثّروة، في المجمل، أصبحت ثروتها منذ تزوّجت. وهي إن لم تكن أتت لجاك بأيّ مهر، فهي مكّنته، على الأقلّ، من خيرات جسدها، وكم كان ثمنها غالياً، تلك الخيرات! ومع أنّها لم تكن لا مُعجبة بذاتها ولا معميّة البصيرة بزهوها، فهي كانت تُفكّر بالضّرورة، كمثل كلّ النّساء، في أنّ امتلاك جسدها يُشكّل أُعطية لا تُقدّر بثمن. وككلّ النّساء أيضاً وكلّ الزّوجات والفتيات أو العشيقات، كانت ترى أنّ الزّوج أو الأب أو العشيق لم يوجد على البسيطة إلاّ ليستجيب إلى حاجات المرأة وليُحافظ عليها كي تكون له، في كلمة، خيرَ سند.

ثمّ ألم تكن مُشتهاة وجميلة عندما اقترن بها؟ ألم تكن مُرافقته في اللّيالي الحمقاء؟ أوَلم تكن باستمرارٍ شديدة الانتباه لرغبات جاك، نابهة ولطيفة؟ وهي، في نهاية المطاف، عندما قبلت بالاقتران به، إنّما قامت بصفقة غبيّة، لأنّها حُرمت من كلّ شيء. فهو سرق منها بلامبالاته حياتها السّعيدة وفاقم بطريقة إجرامية مرضها بشبح البؤس المهدِّد الذي جعله يحوم حولهما.

آه لو كان بإمكانها أن تبتدئ التّجربة من جديد! إذن لَما تزوّجت! ثمّ عاود شعاعُ حسٍّ سليمٍ مُداعبةَ ذهنها. لكن ما الذي كان ممكناً أن يحلّ بها لو لم تكن لها عائلة ولا زوج؟ لَكان قدَرها حينئذ ميؤوساً منه. وهي فوق ذلك قد تزوّجت رجلاً كانت معجبة به، وقد اختارها فقيرة، في زمن كان فيه يعيش في بحبوحة. أخيراً، وباستثناء عدم اهتمامه بالحياة الواقعية، ما الذي بإمكانها أن تُؤاخذه به؟ لا شيء، ولا حتّى طيش عابر خلال الحرمان الجسديّ الذي كان يُعاني منه!

ندمت على ظُلمها لجاك. اعتدلت قليلاً على السّرير ونادته وقبّلته كما لو لتعوّضه عن هذا الانفجار اللّاإرادي لأنانيتها، وكما لو لتُفنّد لنفسها هذه الخسّة التي اتّسمت بها أفكارُها.

ومع ذلك، وبالرّغم من أزمة المصالح الشّخصية هذه التي هزّتهما فجأة وبقوّة، فإنّ لويزا وجاك كانا شخصين طيّبين، سعيدين بأن يعيشاً معاً، لا يتّسمان بمكرِ مَن يدّعون الطّيبة، وغير قادرين على خداع بعضهما بعضاً، مستعدّ كلّ منهما للتّضحية من أجل الآخر، دون ندم.

وهما عندما ضُبطا في حالتهما هذه الشبيهة بحالة الخيانة، وقد تمكّنت منهما، في غفلة منهما، قوّة مستقلّة عن إرادتهما، فإنّما كانا يُجسّدان المثال الدّاعي للشّفقة للخزي اللاّشعوريّ الذي يُلطّخ الأرواح النّظيفة. فهما كانا، في المجمل، ضحيّتين لهذه الأفكار التي تتسلّل إلى داخل أفضل النّاس، فتجعل ابناً بارّاً يعشق أبويه، ولا يتمنّى أبداً فقدهما، تجعله يحلم، دون أن يُريد ذلك، بشيء من الرّضا عن النّفس، بلحظة موتهما.

فهذه الفكرة المؤلمة تُحزنه، دون شكّ، وهو يرتجّ إلى أعماق أعماقه من الرّؤيا المفاجئة التي تُصوّر له أبويه وهما يوضعان في التّابوت. هو يرى التّابوت، باكياً بأدمع حارّة، لكنّه يشعر قبل ذلك بارتياح يسيل داخله، ببطء، وهو ماثل في المقبرة مُحاطاً بأشخاص ينظرون إليه، مُحفِّزين بحضورهم توقَه لأن يكون شخصاً مهمّاً ورضاه عن وضعه بوصفه إنساناً في حاجة إلى عزاء، فيُدغدغون بذلك هذه الحاجة إلى الاستعراض التي يُخفيها كلّ منّا في داخله، دون أن يكون على علم بوجودها.

ثمّ، بعدما يكون هذا المشهد المأتميّ قد انتهى، فهو يتواصل لديه بالضرورة في المستقبل، فيروح يستلف من الحياة الرّغيدة التي سيعيشها عندما يصير صاحبها جزءاً من الميراث.

إنّها خميرة الأفكار السّرية نفسها التي تجعل رجلاً أرملَ، يعيش برفقة أطفاله، غيرَ قادر على الكفّ عن اجترار أنّ قدره كان سيكون مُختلفاً لو لم يكن له أطفال، فيشرع في رسم أوضاع وفي الحلمِ بالمستقبل وتصوّر حياة حرّة، مُبتهجاً بالحلم بحياة جديدة. هو لا يذهب طبعاً إلى حدّ تمنّي فقد أبنائه، لكنّه يستسلم لفكرة أنّهم ما عادوا موجودين ويتوقّف عندها.

لا يمكن لأحد، مهما يكن قوياً وأيّاً يكن مقدار حرصه، أن يتحاشى حالات ضعف الإرادة الملغزة هذه، التي تُحيط بالرّغبة وتحضنها وتُعلي من شأنها وتُخبّئها في أشدّ الأماكن القذرة خفاءً من الرّوح.

هذه النّزوات البعيدة عن التّعقّل والمرَضية والخفية؛ مظاهرُ الغواية هذه، وهذه الوسوسة الشّيطانية، إن تحدّثنا بلغة المؤمنين، تولد بالخصوص لدى الأشقياء الذين تجتاح الحيرة حياتهم، ومِن دَأبِ القلق أن ينصبّ على الأرواح السّامية فيُحطّمها بزرعها ببذرات أفكار خسّيسة.

كان جاك ولويزا يتبادلان النّظرات، خجلين من نفسيهما ولطيفين، صامتين، ثمّ قالت لويزا:

- قد تكون جوعان يا صديقي المسكين ولا قدرة لي على النّهوض وإشعال النّار. انظر إن لم يكن فضُل شيء من لحمٍ عن أمسِ. على أيّ حال، ستأتي صغيرة سافين. آه لو كان بإمكاني النّهوض!

- لا تُعكّري خاطركِ بالاهتمام بي. انظري، هو ذا لحم عجل وخبز ونبيذ، ولا حاجة بي لأكثر من هذا.

أدنى المائدة من السّرير وشرع يأكل، دون شهيّة، لحمَ عِجل عديمَ الطّعم وخبزاً يابساً.

سمعا خطوات تصعد السّلم.

- إنّها الطّفلة، قالت لويزا وهي تعتدل في فراشها. سلّمها لائحة المواد التي عليها اقتناؤها. هي هنا في الزّاوية على المدفأة.

ولجت الغرفة طفلة صغيرة شقراء أنفها معقوف وصوتها متهدّج، عيناها كرتان بيضاوان وزرقاوان. ثنت ردفها ناخرةً وهي تحكّ بأطراف أصابعها صدريّتها.

- خذي، يا جميلتي، قالت لويزا، هي ذي لائحة تُقدّمينها لأمّك. وستأتيننا أنت بالمشتريات بعد الزّوال.

نكّست الطّفلة رأسها دون أن تتحرّك.

- أبوك بقّال، أليس كذلك، فهل لديه جبن أصفر؟

تقدّمت نحوهما وقد انفتحت استدارة عينيها كمثل سمك الشّبوط، دون أن يصدر عن فمها أيُّ صوت.

- هل تعرفين الجبن الأصفر؟

- أمّي تغسل الملابس. هي طلبت منّي أن أقول هذا للسّيدة، قالت الصّغيرة فجأة.

- إذن تقولين لأمّك أن تأتي عندي غداً، قالت لويزا التي كانت مُشكلة غسل الملابس تشغلها، بالفعل، منذ يومين.

هزّت الطّفلة رأسها.

- ما هذا؟ سألت فجأة وهي تُشير إلى علبة طحين أرز.

- أتسمعين؟، قال جاك مُخاطباً لويزا، ها هي قرّرت أن تتحدّث. ثمّ وضع العلبة بعد إزاحة غطائها تحت أنفها، لكنّ الفتاة تقهقرت، مُكشّرة، باصقة على حوافّ العلبة، كما تفعل القطط حول صحنِ كبدٍ غير طريّ.

ثمّ قالت إنّ رائحة هذا الطّحين تُصيبها بالغثيان.

- اذهبي لتستنشقي هواءً طرياً، فهو سيُذهب عنك غثيانك، ولا تنسي مشترياتنا. هيّا، طاب مساؤك. انظري، هو ذا ساعي البريد. هل لديكَ رسالة لنا؟

- لا أظنّ، بل لديّ بالأحرى صحيفة، ثمّ جلس الرّجل واضعاً قبّعة القشّ على الأرض راكزاً عكّازه بين ساقيه وأنزل من على ظهره جرابه فسلّم جاك صحيفة وهو ينظر باهتمام لقطعة لحم العجل التي بقيت في الصّحن.

بدا في حال سكر زائدة عن المعتاد.

سلّمه جاك كأس نبيذ.

رفعها متمنّياً للجميع صحّة جيّدة وقذف بالنّبيذ إلى حنجرته دفعة واحدة.

- نبيذ طيّب، لكنّه قويّ، قال، مُسلّطاً عينيه دائماً على الصّحن.

دعته لويزا إلى المائدة، فاقترب وأخرج سكّينه فشطر قطعة خبز كبيرة وفتحها واضعاً في لبّها قطعة لحم، وازدرد، وسط صوتِ مضغٍ مقرف، قطعة الخبز وقطعة لحم العجل معاً.

بعد ذلك لعق شفرة سكّينه قبل أن يغلقها وهو يطرف بعينه التي بدت شبيهة بمنفذ تمرّ منه ألسنة اللّهب الكامنة تحت جلده الملفوح، وقال موجّهاً كلامه للويزا:

- هكذا إذن يا سيّدتي الشّابة، أنت مريضة؟

- نعم، هي تُعاني من آلام في ساقيها، أجاب جاك.

- أوه! لا تُحدّثني عن ذلك. إنّه لا وجود لمرض أفظع منه. لقد بقيت أنا منه مُنبطحاً على ظهري، أسابيعَ، دون حركة. وما تُعانينه أنت لا يُساوي شيئاً مُقارنة بما عانيته أنا، حتّى لقد كنت فكّرت أنّني سأقضي منه. حصل ذلك منذ ما يقرب من العامين، وما زلت أعرج منه. لقد التقطوني من خندق على طريق دونماري. كنت أبدو كالميّت، مُنقطع الأنفاس تماماً. شرعوا يُنادون: الأب مينيو! الأب مينيو! ولم أكن أسمعهم. ويمكن للابن الموجود بكانستان ولفرانسوا الكبير أن يُخبراكما بذلك...

- وهل عولجت على الأقلّ من ذلك بطريقة جيّدة؟ سألت لويزا؟

- نعم، فقد كان الوقت وقت انتخابات. كان السّيد باتلان يُمثّل المعارضة والسّيد برتولو الحكمَ الملكيّ، فأرسلا لي طبيبيهما اللّذين كانا يأتيان أحياناً مرّتين كلّ يوم. كما أنّهم كانوا يأتونني بخمرة بوردو وهي من الصّنف الجيد. لكن ما إن انتهت الانتخابات، صدّقاني في ما أقول، حتّى لم أعد أرى لا الطّبيبين ولا الخمرة، فلزم أن أُعالج نفسي على نفقتي! لكن، ما السّاعة الآن؟

- مُنتصف النّهار وثلاثون دقيقة.

انتصب ساعي البريد واقفاً وأمسك بعكّازته. طاب يومكما، قال، وهو يُحيّيهما مُلتفتاً ثمّ نزل السلالم.

عادت لويزا للتمدّد، مُنهكة، على فراشها.

- آه لو كان بإمكاني أن أنام!، قالت متنهّدة.

- سأتركك، قال جاك، إلى أن تأتي صغيرة سافين. سيكون لك ما يكفي من وقت لتنامي قليلاً.

عندما كان يهمّ بالخروج سُمع صوت خطوات متسارعة يرجّ السلالم، فظهر ساعي البريد من جديد، حاسر الرّأس، مُمسكاً بقبّعته التي طوى طرفيها في يديه، فبدت وكأنّها سلّة يعلوها غطاؤها.

فتحها بعد أن وضعها أرضاً ففقز منها شيء ما مرعوب. هو حيوان غريب، له ساقان عظيمتان رماديّتان معقوفتان، تنتصبان أسفلَ جسد صغير جدّاً مشمول بشعر أبيض، الوجه مكشّر مرعوب، ذو عينين ثابتتين ومستديرتين ومنقار شبيه بمنقار نسر يجعل وجهه الخائف مُقطّباً فيبدو كوجه قرد.

- إنّه طائر خبَل صغير تدحرج من عشّه إلى نبات الحرّيق، على قدم جدار الكنيسة.

لمسه ساعي البريد بمقدّم حذائه فمشى الحيوان بصعوبة، مُبدياً جانبه، كمثل سلطعون، فوصل إلى زاوية من الغرفة حيث توقّف، أنفه ملامساً الجدارَ.

- آه! وما الذي تريدني أن أفعل بهذا الحيوان؟ سأل جاك.

- حسناً! إن لم يكن لكما به حاجة حملته إلى قسّيس شالميزون وسيُسلّمني مُقابله قطعة نقدية من فئة عشرين فلساً. فلهذا الرّجل فراشات وعصافير وحيوانات خُلْدٍ يُحنّطها! له الكثير منها. وكم هو مُضحك أن تبدو كلّها وكأنّها ترقص. كما أنّ له ضفادع تقف وتتصارع فيما بينها.

- أنا لا أُريد أن يُقتل، قالت لويزا، يجب أخذه ووضعه بمحاذاة جدار الكنيسة، ستأتي أمّه لتأخذه.

- لا أعتقد أنّني سأقوم بذلك، لأنّ الأطفال سيعثرون عليه ويقتلونه رمياً بالحجارة.

فأمسك بالحيوان الجامد في زاويته وقرّبه من السّرير مُرتجفاً من الخوف عيناه ساهمتان مبهوراً بضوء النّهار، ولا يزال جناحاه مُغلّفين بشرنقة من قطيفة ذات نعومة منقطعة النّظير، شديدة البياض.

- لا حاجة لكما به إذن؟ هيا لترى السّيد بيبرو، قال ساعي البريد، وهو يُعيد وضعه من جديد في قبعة القشّ. وسيكون علينا أن نحثّ الخطى لأنّ الطّريق طويلة. هل أنتما متأكّدان من أنّكما لا تُريدانه البتّة؟

- لا نريده، شكراً، قال جاك.

- كان عليك أن تُسلّمه العشرين فلساً كي يضع هذا الحيوان بالقرب من الكنيسة، قالت لويزا، عندما انصرف ساعي البريد.

هزّ جاك كتفيه معرباً فجأة عن حسّ عمليّ:

- لكان أخذ العشرين فلساً وتوجّه رأساً إلى شالميزون!

وكي يترك جاك زوجته تنعم ببعض الرّاحة، خرج ليتجوّل حيثما اتّفق في الدهاليز، ثمّ توجّه إلى بيت العمّة نورين فوجد الباب موصداً. كان الرّجل وزوجته في الحقول.

- آه! لا عون يُرجى منهما أثناء المرض، فكّر جاك. من المفترض أن يكونا الآن في حقول كروم غرافني. ماذا لو التحقت بهما؟

لكنّه أحجم عن ذلك بشكل قاطع، لأنّه تذكّر الفرق الخارق للعادة القائم بين العمّة نورين والعمّ أنطوان عندما يكونان جالسَين في بيتهما وبينهما عندما يكونان منهمكين في العمل بأرضهما. فهما، في لحظات الرّاحة، يكونان شخصَين طيّبين مهتمّين بابن أخيهما وخدومَين. وعندما يكونان في العمل ينظران إليه بتَعالٍ، ويُجيبانه بعدم اكتراث، مُخفيَين بصعوبةٍ احتقارهما له. يبدوان في شغلهما وكأنّهما في قدّاس، فيما هما ينكشان السّماد، كأنّهما وحدهما في الدّنيا يشتغلان، ثمّ يهزآن،

ويُلقيان، هما المتواضعان في العادة، بنظرات متغطرسة على الباريسيّ الذي لا يعرف حتّى كيف ينمو القمح.

- حسناً، هذا لا نتعلّمه في باريس، على ما أعتقد، تقول نورين ضاحكة، فيُقدّم العمّ أنطوان، بنبرٍ مُتعالمٍ، تفسيرات لم يطلبها منه أحد:

- أترى يا ابن الأخ، إنّ الأرض ليست كأرصفة مدنكم. الأرض تُشتغَل، لكنّها أيضاً مثلنا، يكون عليها أن تستريح. عندما تُحرث في سنة بالقمح، يُزرع فيها السّنة التّالية الشّوفان وفي السّنة الأخرى التي تليها نزرعها بالبطاطس أو بالشّمندر، ثمّ نُعيد زرعها بالقمح. ويكون علينا أحياناً حتّى أن نتركها ترتاح سنة كاملة، بعد الحصاد، دون أن نلمسها. غير أنّه مهما يكن الشّخص القادم من باريس ماكراً، فإنّه لن يتعلّم في يوم واحد شؤون الأرض!

ثمّ إنّهما سيغمرانني من جديد بلازمة شكاواهما، فكّر جاك، وسيكرّران على مسمعي أنّهما مُنهكان وأنّه قاس جدّاً أن يبذلا هذا الجهد كلّه وهما في هذه السّن المتقدّمة، بينما أجني أنا من المال بقدر ما أشاء، دون أن أقوم بأيّ مجهود.

آه! نعم! أنا أربح المال!، أسرّ لنفسه بمرارة. من المدهش أن أجني منه هذه المقادير كلّها! كم أنا قادر على أن أحصل منه على ما أشاء! ثمّ تساءل، كدأبه كلّ يوم، عن الكيفية التي سيعيش بها عندما يعود إلى باريس. غير أنّ هذا السّؤال ظلّ دون إجابة، فقد اعترف لنفسه بتواضع أنّه لا يصلح لشيء. لكن ما الحال في القصر الذي يعيشان فيه الآن هو وزوجته؟ المال يقلّ وسيُنهي وصول النّبيذ المطلوب من باريه ما بقي في حوزتهما منه. ورغم تفهّمه لما قام به، أسرّ لنفسه أنّه كان عليه ألّا يفرّ إلى الريف، وأن يواجه المهاجمين، وأن يُقاوم في باريس ويواصل الاستقرار بها بأيّ شكل من الأشكال، وألّا يستنفد ماله القليل أصلاً بلا جدوى في قصر لوربْس. لكنّه كان مُتعباً جدّاً، وكانت لويزا في ذروة معاناتها! هذا فضلاً عن أنّه كان حسِب أنّه سيستردّ بعض الدّيون من أورْم.

آه من هذا الصّديق الذي كان ترجّاه قديماً والذي يرفض أن يُعيد له ماله. إنّه غنيّ، أنا على علم بذلك، أسرّ لنفسه بحميّة. غير أنّ هذا الفتى كان فيما مضى، فتىً سخيّاً. آه كم تُبدي لك الغربةُ الأشخاصَ على حقيقتهم!

يا إلهي كم أنا ضجِر، قال في نفسه مُتنهّداً، ثمّ راح، كمثل كلّ النّاس المُرهقين، يحلم بأنّه لا يوجد حيث هو، متمنّياً الفرار بعيداً عن لوربْس، إلى الخارج، إلى أيّ مكان، وأن يُخلّف وراءه متاعبه وهمومه، وأن ينسى وجوده، وأن يكتسب روحاً جديدة وجلداً جديداً. آه، لكنّ الأمر سيكون مُشابهاً حيثما حللت، أسرّ لنفسه. لأتخلّصَ ممّا أنا فيه، ينبغي أن أُنقَل إلى كوكب آخر، غير أنّ هذا الكوكب نفسه ما إن يسكنه البشر حتّى يسوده البؤس هو أيضاً. عندئذ ابتسمَ، لأنّ فكرته هذه عن كوكب آخر ذكّرته بأحلامه التي رآها اللّيلة الماضية، ذكّرته برحلته إلى قلب القمر. منبع حُلمِي هذه المرّة واضح، لأنّ إمكانية تتبّع خيوطه هي أسهل من تتبّع خيوط حلم استير؛ فأنا كنت، خلال الأمسية

التي سبقت رحلتي إلى الكوكب القديم قد نظرت إلى النّجوم والقمر، وأنا أتذكّر أنّه في تلك اللّحظة عادت إلى ذاكرتي بوضوحٍ تفاصيلُ الخرائط السّينوغرافية التي أملكها.

ومن خلال هذه التّأمّلات ودون سابق إنذار تذكّر فجأة أنّ عليه القيام بأمور البيت وأن يستقي الماء.

توجّه صوب البئر فقدّر أن بإمكان ملفافها أن يكون من بين أدوات التّعذيب التي استُعملت في القرون الوسطى. يجب التّدلي للإمساك بالحبل والتّقوّس على حافة البئر وإدارة الذّراع للحيلولة دون التّدحرج المرعب للدّلو في الهاوية، مخافة انفلات الحبل المُثبّت بمسمار واحد في خشبة الملفاف. ثمّ وجب إدارة الذّراع في الاتّجاه المعاكس وإصعاد الدّلو الذي يزن مائة ليفرة، الرّأس مُصدّع بضجيج صراخ البكرة غير المشحّمة. أدار، ثمّ أدار، مُنهَكاً، وهو ينظر إلى الحبل، آملاً في أن يصعد أخيراً جزؤه المبلّل بالماء، مُعلناً بذلك عن الوصول المُداهم للدّلو.

لكنّ العملية لا تنتهي. هذا غريب، مع ذلك، خاطب نفسه، فالوزن يبدو لي أخفّ من المعتاد. آه! هو ذا الحبل، وهو غير مُبلّل. أمسك بالدّلو الذي بدا عند مثابة البئر، وقد كان فارغاً.

لقد فاتني هذا، أسرّ لنفسه، فمن المحتمل أن تكون البئر قد نضبت، وها نحن أولاء نظيفون!

جلس مثبّط العزم. - هيّا، عليّ أن أُخطر العمّ أنطوان، فهو أعلم منّي بشؤون البئر.

لكن لا العمّ انطوان ولا العمّة نورين كانا عادا من الحقول.

لم يرَهما إلاّ مساء. فعندما استبدّت بهما الرّغبة في شُرب كأس نبيذ، قاما بزيارة ابن أخيهما.

- لكن ما الذي حلّ بك؟

- أوه! أوه! يا إلهي، هل هذا ممكن! قالا مُتعجّبين، بينما كانت لويزا تدفع بقدمها فجأة إلى الأمام.

- من المفترض أن يكون هذا الأمر يصيبك بهلع شديد حتّى تتحرّكي بهذه الطّريقة! وأعربا عن خوفهما على خشب السّرير، ثمّ قاما، بطريقة مُتفرّدة، تكاد تكون متحدّية، بشرب كأس نبيذ وانصرفا، قائلين إنّ أمراض باريس هذه هي أمر مثير للاستغراب!

- ما الذي يحلّ بالإنسان، أنا أسألك، حتّى يقوم هكذا بقفزات؟ سألت نورين عندما خرجا.

- الأغنياء هم الذين يُصابون بهذا! ثمّ هنا، أنت تعرفين أنّ هذا القصر لا يجلب السّعادة لمن يسكنه، والدّليل على ذلك أنّ المركيز مات فيه...

- وأن زوجته عند اكتمال القمر كانت تتحدّث... وتتحدّث... كانت فقدت رشدها.

- هل سمعت جاك يشكو من أنّ برميل الخمرة لم يصل بعد، قال العمّ أنطوان. وفي الانتظار، هل علّمت على الخشب، بالقرب من المدفأة، عدد لترات الخمرة التي أعرناهما إيّاها؟

حرّكت العجوز رأسها.

- ليكن إذن! قالت. سنأخذ تلك اللّترات مع نصف البرميل الذي يُقدّمونه لنا. وأضافت بعد صمت:

- اسمع، يا رجل!

- ما بك؟

- هل قلت لبينوني إنّ عليه عندما يصل إلى باريه ألّا يأتي بالبرميل إلى القصر وإنّما إلى بيتنا؟

- نعم.

فأصدرا معاً بسمة، وهما يُفكّران في ترتيبٍ مُثمرٍ كانا يُعدّانه: أن يسحبا خمرة من البرميل وأن يضعا منها في السّرداب ما استطاعا من لترات، ثمّ إكمال حصّة الباريسيِّين بخلط ما تبقّى منها بماء وفير.

7

رأى جاك، ذات صباح، العمَّ أنطوان يمشي في الحديقة، مُرتدياً صدريّة طويلة غامقة الزُّرقة، لامعة كأنّها مُبرنقة، مزيّنة بزخارف من خيوط بيضاء في الكتفين على جانبي العنق. كان غسلٌ

قويّ بالصّابون قد أنار الجلد الهرِم لخدّيه حيث يتزاحم شعر شبيه بزغب فرشاة الأسنان، مُمدّداً بآخر تمريرة للمنشفة، في اتّجاه الفم، قممه إلى الأسفل.

- تسألني إلى أين أذهب، يا ولدي، أنا ذاهب الى الحلاّق، فاليوم يوم أحد.

- آه! هتفَ جاك الذي كان فقد نهائياً مفهوم الزّمن منذ أن حلّ بلوربْس. صحيح، لكن هل يُقام القدّاس هنا؟ سأل وهو يُشير إلى الكنيسة القديمة، أعلى سور البستان.

- بالطّبع، تُقيمه نسوة لونغفيل.

- وأنت، ألا تحضره؟

- أنا، وفي أيّ شيء سينفعني ذلك؟ القدّاس هو مهنة القسّيس، أليس كذلك؟ هو الذي يُصلّي من أجل الجميع، فليس لهذا الرّجل عمل آخر غير ذلك.

- ونورين؟

- لقد ذهبت لحقول النّبات في مُنحدر رونارديير. ثمّ أضاف بعد لحظة صمت: وكرّة أخرى، أُنظر كم يوجد فيه من زنابير، يا ابن الأخ! غير أنّ وجودها هو علامة جيّدة، إذْ يعني أنّ الخمرة ستكون وافرة هذه السّنة.

كانا قد خرجا من الحديقة، وهما يتجاذبان أطراف الحديث، فأصبحا فوقُ، قريباً من الكنيسة، أمام طريق النّار.

- نلتقي لاحقاً، قال الأب أنطوان وهو ينزل التلعة.

تابعه جاك بنظره ثمّ جلس على التلعة مُتأمّلاً هذا المنظر الذي سبق له أن لمحه ملفوفاً في الضّباب يوم وصوله إلى لوربْس.

شرع يتذكّر أسماء التّلال التي كانت نورين قد أضجرت سمعه بتكرارها الدّائم، فأسرّ لنفسه:

- تلك، بعيدة، بعيدة جدّاً، هي غابات تاشي ثمّ غراتلو وهضبة فرواكو. وهنا، حيث أجلس، توجد سفوح رونارديير وغرافيني، وأسفلَ، في عمق هذا المنخفض المتدرّج الذي تقوم الغابات على حاشيته، توجد قرية جوتينيي الصّغيرة، يتوزّعها اللّونان الأبيض والأحمر، بجدرانها المصبوغة بالجير وأسطحها القرميدية، ثمّ، خلفي تقريباً، توجد بلدة لونغفيل بلونيها الأسود والأخضر، وبأراضيها المتربة وبأشجارها. وأخيراً الطّريق الرّتيبة المسطّحة التي تقود إلى بريه، عابرةً، كمثل شريط مرسوم بالطّباشير، الأرضَ المحروثة للمنخفض المتدرّج.

أعاد رفع رأسه مُتفحّصاً الأفق.

كانت السّماء، في الأعلى، فوقَ تاشي تُمطر رذاذاً أشبه ما يكون ببُراداتِ معدنٍ غير مرئية، زرقتُها شديدة الشّحوب، تكاد تكون ليلكية، شبيهة بهذا الغبار الذي تنخله السّماوات الحارّة، صباحاً، ويُصبح لونه غامقاً، بعد الزّوال. أمّا الأشجار التي تحدّ الرّؤيةَ فكانت تمتدّ في كتل متداخلة، لونها داكن، مظلّلاً بالرّماديّ الخبّازيّ اللّونَ الذي ينثال في الهواء. ثمّ بدأ هذا اللّون الرّماديّ يتبدّد شيئاً فشيئاً، فبدت جذوع الشّجر وكأنّها حاجز داكن اللّون، لكنّ قممها ظلّت باهتة، لا خُضرة فيها. وكانت تتدرّج، في الأسفل، حقول شبيهة ببُسطٍ، بعضها فوق بعض، مزيّنة بالأوراق الذّابلة السّاقطة، مُبقّعة بما تعفّن منها، وكانت سبل كثيرة جدّاً تنطلق صُعُداً، وتصل إلى حدود الغابات، مُفرِّقةً، كمثْلِ أشرطة من غسيل منشور، هذه الحقول التي تبدو كالصّوف المصبوغ.

وتصعد، في أعلى الأفق، خلف الأيكات المتداخلة للأشجار، سحابةٌ كبيرة بيضاء، مُتقوّسة قليلاً، وتنسحب مُحلّقةً، كمثل نفثات دخان القطارات، في السّماء التي كانت ألوانها تتدرّج برقّة من البنفسجيّ إلى الأشقر، وتُصبح، فوق الوادي، صافية الزّرقة.

وكانت تلوح، في البعد، قرىً، على التّلال، في طرف الطّريق الشّبيهة بأشرطة من النسيج، وتقوم على حاشية بُسط الحقول تكتّلات منزلية لا تبدو أسطحها واضحة، ضائعة في ارتجاف الهواء، لكنّ جُدرانها لامعة بسبب بياض كلسها الخامّ المُبهِر. استمرّ الضّباب في الانقشاع رويداً رويداً، فاستنارت الهضاب التي أضحت شقراء مُذهّبة في أشعّة الشّمس المنصبّة على ضيعة بكاملها مُستثنيةً البساط غير الواضح للحقول، مُزيحةً عن الأراضي الجافّة المعدّة للزّراعة لونَها الكابي.

هبّ الهواء بدوره، قاطعاً صمت السّهل، كانساً البخار المبيضّ الذي كان يُقنّع الأنحاء.

عندئذ حفرَ الأفق حزّات عميقة في قمم الأشجار التي تبدّت خُضرتها. أمّا الضّيعات والطّرق التي كانت قبل قليل غير واضحة المعالم وعائمة، فقد أصبحت جليةً وبدا أنّها ما عادت تتحرّك على الأرض وإنّما هي مُنغرسة حقّاً فيها. وكانت شجرات الحور الثّابتة والصّامتة والمتزاحمة في الغالب، بقممها المورقة، والأرضُ التي توجد فيها والخالية من النّبات، وأيكاتُها المتزاحمة بالأوراق قد جعلت تتكاثر وتتوسّع، مُرتجّة في الرّيح، مُصدرة ضجيجاً قويّاً. ثمّ تغيّر لون السّماء من جديد، فاختفت الشّمس وتعتّمت القرى المرتعشة على الهضاب وراحت السّحب تعدو راسمةً قارّاتٍ على أبحر السّماء هذه التي تبدّت زرقتها في خلجانٍ تُمزّقها ألسنةُ بحرٍ، فانحفرت في طمي الفضاء هذا حُفَر قِمعية الشّكل، شهباء اللّون، انبجس منها ضوء شبيه بضوء الفانوس، خفيف؛ ضوءٌ كأنّه ضوء الغسق فشحّب المنظر وأبلى، بشكل من الأشكال، الألوان الحزينة والباردة، مُخفّفاً إيّاها أكثر، مُبدياً، في مُقابل ذلك، الألوانَ الفاقعة التي شرعت تتقدّم، على هواها، مُتبدّدة، فوق الوادي العريض.

كان الجوّ خانقاً؛ تأتي مع الرّيح هبّات حارّة مُمضّة، فتُنفِخ الصدريّة المبرنقة للعمّ أنطوان الذي كان يُلمح في البعد، مُتناهي الصّغر، يبدو تقوّس كأنّه حدبة على ظهره، تحت صدريّته، تاركاً غباراً شبيهاً بالدّخان يمرّ ما بين ساقيه، مُغلّفاً بعضَ الأحيان ظهرَه.

ظلّ جاك، الذي تُزعجه قسوة زرقة السّماء في أغسطس، ويُبهجه حزن نوفمبر، غيرَ مُبالٍ بهذا الابتزاز الجوّي الذي يتناوب فيه الحزن والبهجة، غير مبدٍ لا حزناً حقيقياً ولا سروراً فعلياً. عاد على عقبيه وطفق يتجوّل في حديقة القصر. جلس على النّبات القديم، لكنّه لم يجد راحته في وضعه ذاك فانبطح على بطنه وشرع يستمتع، غير مفكّر في شيء، بقطف الورود. لم يكن من بين الوردات التي تصل إليها يده أيّة واحدة ممّا يسمح بستانيٌّ لنفسه بغرسها في الحديقة، لأنّها كانت كلّها برّيةً ممّا ينبت على قارعة الطّرق، وهي نباتات هشّة، وورود متصعلكة، يوجد من بينها، كمثل الهندباء البريّة، ما كان مع ذلك جذّاباً بتنجيماته ذات الزّرقة الشّاحبة الشّبيهة بزرقة نبات التّرنجان.

كان بعضها قد اخترق الطّحالب ليعيش وسطها وحيداً، وتجمّعت أُخرى في تكتّلات صغيرة مُحتلّةً منطقة ضيّقة تُقيم فيها قبيلتها مُرتاحة.

وقد تعرّف جاك من بينها على عائلة نبات الخشخاش المنوِّم الذي كان يُحرّك رؤوسه المَعلُوّة، كمثل نبات الخشخاش العادي، بتويجات جليلة مُسطّحة، لونها رماديّ مخضرّ كلون الماء المبقّع بالزّهر. وكان هناك أيضاً سيقان نباتٍ بُخوريّ مفصولٍ فيما بينه بأرض جرداء يعبرها النّمل، فأمسك به جاك مُستمتعاً بدعك أوراقه بين أصابعه وشمّها مستمتعاً بتلويناتٍ من رائحة تتضوّع في البداية بعطرها الأصليّ، ثمّ بآخرَ عفِنٍ كأنّه رائحة النفط، وتفوح، في الأخير، بعد أن تتبدّد خلاصة العطر، برائحة إبط خفيفة.

انقلب على جانبه، لا يكاد يقدر على الثّبات في مكانه، ثمّ نهض ودخّن سيجارة، مُتجوّلاً في الممرّات. كان يكتشف وسط هذه التّجمعات الخضراء، كلّ يوم، شجيرات جديدة ونباتات لم يرها من قبل. وقد لمح هذه المرّة، في الحفر القديمة، في طرف الحديقة، قريباً من السّياج، حواجز من الأشواك الرّائعة وأيكات من شجر البهشيّة، مُبقّعة أوراقها بلون أخضر معدنيّ وبنقط صفراء شبيهة بقطرات سائل الكبريت. جعلته رؤية هذه الجَنْبات يتوقّف عن المشي، لأنّها بما يسودها من خدوش وبالتفافها مثل زخرفات حديدية عتيقة، وبأشكالها الحلزونية الملتوية، كمثل الحروف القوطية التي كُتبت بها المواثيق القديمة، ذكّرته ببعض المنحوتات الألمانية لنهاية القرن الخامس عشر والتي كان مظهرها الشّعاريّ يجعله يحلم.

أخرجه من تأملاّته صريرُ الملفاف وهو يتحرّك فوق البئر. شاهد من بين تلافيف الأوراق العمّة نورين بقبقابها وهي تُدير ذراع الملفاف بغضب.

- أنت تقول إذن، يا ابن الأخ، إنّ البئر نضبت، قالت صائحة من أبعد مكانٍ شاهدته منه. لا تخف، فلا يزال فيها من الماء ما يُمكنه أن يُغرق مَن هو أضخم منك. خذ، انظر. ثمّ سحبت بذراع حديدية الدّلو الضّخم مملوءاً ماءً بارداً أزرق، تنعكس فيه، مُتهاديةً، بكرةُ البئر.

ثمّ شرحت له كيف يمكن الحصول على الماء من البئر؛ يجب إنزال الدّلو بحذر، لكن عندما نُدرك نهاية الحبل، يتعيّن ترك الدّلو يسقط بضربة على قدر من قوّة حتّى يغطس ولا يبقى طافياً على صفحة الماء.

- آه! قال جاك مُتعجّباً، مُنزعجاً من هذا الدّرس الذي قدّمته له نورين، مُحرَجاً من انعدام مهارته التي ركّزت عليها العجوز في كلامها، ساخرةً. صعد إلى غرفته فوجد المائدة منصوبة.

- ما هذا! ألا يزال لدينا لحم عجل؟

- وماذا بمستطاعي أن أفعل؟ فأنا لا يُمكنني أن أرمي بكلّ شيء. ثمّ كشفت له لويزا عن إجراءات القصّابة؛ هي تطلب منها ليبرة لحمٍ فترسل منه ثلاثاً، مؤكّدة أنّ عرضَها إمّا أن يؤخذ كلّه أو أن يُترك كلّه، وأنّها إن قامت بغير ذلك فسيكون بيعها بالتّقسيط أقلّ من أن يسمح لها بذبح حيواناتها. ثمّ قالت نورين إنّه في غياب محلّ قصابة آخر، يُصبح ضرورياً قبول هذه الشّروط، تحت طائلة الجوع!

- وبهذا نكون مُضطرّين لابتلاع اللّحم نفسه، عدّة أيّام، أو أن نتخلّص منه، وهو ما نقوم به في الغالب. لكن ألا ترين أنّنا نؤدّي ثمناً باهظاً، بهذه الطّريقة في التّبذير!

ثمّ اغتاظ عندما علم أنّ صرّة المال أصبحت شبه فارغة.

وكان الزّوجان قد انخرطا في تبادلِ كلمات قاسية عندما سمعا صوتاً يتردّد على السلالم، فصمتا عندئذ، آخذةً هي في حمل ما كان موضوعاً على المائدة، وهو راح يُفكّر في المحاولات الجديدة التي قام بها صديقه في باريس ليتمكّن من صرف أوراقه البنكية.

دخل الأب أنطوان حليقاً، على رأسه طاقيّة بثلاثة مستويات، ونورين بادية النّظافة، شعرها ملفوف في غطاء رأس بمربّعات سوداء كبيرة، فقال العمّ:

- سأصطحبك معّي إلى جوتينيي، يا ابن الأخ. هذا هو اليوم الذي نذهب فيه عند باريزو لنلعب الورق ونشرب كأساً.

- لكنّني لا أعرف لعب الورق.

- لا ضير في ذلك، ستقتصر على مشاهدتنا نلعب!... هذا ليس ممّا يُرفض، قال مُخاطباً لويزا التي قدّمت له كأس كونياك.

- استمتِعا! قالت العمّة نورين، بعد أن قرعوا كؤوسهم، فنهض الرّجلان منصرفين.

- باريزو فتىً ميسور، حكى في الطّريق العمُّ أنطوان، ثمّ إنّ لنُزله قيمة مالية معتبرة، وأشار إلى بناية كبيرة بطابق واحد تقع على طريق لونغفيل في بريه، في مدخل القرية.

دخلا من باب يتأرجح فوقه غصن شجرة صنوبر، وسط جلبة قويّة. كان مُمكنا القول إنّ هؤلاء القرويين الضّاحكين والمتكدّسين بعضهم بعضهم إلى جانب بعض، يتشاجرون هامّين بالتّشابك بالأيدي. حيّوا الأب أنطوان وتنحّى بعضهم ليفسحوا له ولجاك مكاناً للجلوس.

- ماذا أُقدّم لكما؟ سأل باريزو، الشابُّ الطويل، الأجرد الرّأس، الجامع ما بين مظهرَي خادم الكنيسة والمغفّل.

- آتنا عصيرَ كشمش ونبيذاً، يا رجل، مع ماء بارد، أجاب الأب أنطوان.

وبينما كان الشّيخ يتفحّص مُجاوريه وهم يلعبون، مرفقاه على الطّاولة، مسح جاك بنظرهِ القاعة الفسيحة المصبوغة جدرانها بلون مُخضرّ وأسفلها بخطوط بُنّية. هنا وهناك تُرى مُعلّقة مُلصقاتُ تأمينات وإعلاناتُ أسمدة، مع نُسخة من قانون السُّكْر مُلصقة بمعجون في الزوايا الأربع، وقاعدةِ لعب البلياردو مُؤطّرة، وكرات للّعب مصفوفة في شكل مُثلّث لبدء اللّعب وتسجيل النّقاط.

أمّا السّقف فقد عُلّقت فيه أربعة مصابيح تشتعل بزيت حجر النّضيد، وقد اصطفّت حول القاعة كراسيّ شبيهة بمقاعد الطّلاب وموائدُ مُغطّاة بقماش صقيل، مخدوش، بادية خيوطه.

وكان ينتصب في الوسط بلياردو سميك يعود نحاسه إلى زمن الإمبراطورية الأولى، وفي زاوية من الغرفة يقوم حاجز جوانبه مُخطّطة بالأبيض ورسومه بنّية.

كانت سحابة من الدّخان تملأ القاعة، لأنّ كلّ القرويّين تقريباً كانوا يُدخّنون؛ الشّبان يضعون في أفواههم سجائر والشّيوخُ قطعَ غلايين مسودّة.

راح جاك يتأمّلهم: كانوا، في العمق، يتشابهون جميعاً. للشّيوخ شعر جافّ وآذان ضخمة مشعَرة، شحمة أذنهم مثقوبة لكن لا أقراط فيها، ويتدلّى على أصداغهم شعر في شكل قائمتي أرنب، عيونهم غير صافية وأُنوفهم مُستديرة ضخمة مناخيرها مليئة بالشّعر، الشّوارب حليقة والشّفاه حمراء ميّالة إلى اللّون القرمزيّ، مع ذقون صلبة لا يكفّون عن تمرير أصابعهم عليها.

كانوا في مجملهم شبيهين بالمهرّجين، بأفواههم الدّرداء الضّاحكة وبلونهم الشّبيه بصِبَاغ الجوز وتعتعتهم التي لا تُثير الضّحك إلاّ قليلاً. وحدها أكفّهم المتورّمة والسّوداء في مفاصلها، والأظافر المسحوقة والمهروسة، الوسخة أبداً، وراحات أكفّهم المتصلّبة والمقشّرة، وجلدهم الملفوح، بلون قُشَارة البصل، وحدها كانت تدلّ على أنّهم يفلحون الأرض حقّاً.

وكانت هيئة الشّبان منهم تبدو كهيئة السماسرة والجنود. لم تكن لهم عوارض شعر في شكل قوائم أرنب، لكن كانت لهم شوارب مقصوصة قصيرة، ورؤوسهم حليقة. ولو تمّ النّظر إليهم اقتصاراً على رؤوسهم لاعتُبروا أجناداً. فهم من أعلاهم إلى أسفلهم، بطاقيّاتهم العالية، وبمعاطفهم الواسعة التي تنزل إلى حدود أعقابهم، مفتوحةً من الأمام، مُبدية صديريّات برّاقة مليئة بالأزرار المسنّنة المفصّلة في شكل نوعٍ من جُبنة إيطاليّة صلبة، وبسراويلهم الرّمادية وأخفافهم ذوات الأعقاب

والمكفّفة، كانوا يبدون شبيهين جدّاً بصيّادي السمك الباريسيّين عند السّدود، إذ لهم طريقتهم في إمالة أوراكهم وقلب قبضات أيديهم.

كانوا يضجّون حول البلياردو، مُتضاربين بأذيال ثيابهم كما لو بأسلحة، قافزين على أكتاف بعضهم وكأنّ كلاًّ منهم يبغي ثني قامة الآخر، مُلقين بضرباتٍ على مُؤخّرات بعضهم، بعضُهم يحكّ أعواد ثقاب في أرداف البعض الآخر، مُتبادلين الشّتائم كمثلِ أشخاص يهمّون بخنق بعضهم بعضاً، زاعقين، مادّين أفواههم إلى الأمام، مُستعدّين لأن يقضموا أنوف بعضهم بعضاً ولأن يسمل كلّ منهم عين صاحبه بحركاتهم التّي تنتهي بربتات ودّية وضحكات عالية.

وكان الشّيوخ يصرخون بدورهم، ضاربين بقبضاتهم على المائدة، كلّ مرّة ألقوا فيها بورقة لعب، أو يتوقّفون، ساحبين ما بين ورقة ونصف الأوراق من تشكيلة اللّعب، ثمّ يُعزّزونها من جديد، متشنّجين بإبداء تكشيرة من فكوكهم التي يتقلّص جلدها.

- هل سننتظر إلى الغد؟ يصيح بعضهم.

وما إن تنتهي الجولة حتّى يبدأ ردّ الشّتيمة بأقذع منها.

- كان عليك أن تلعب بورقة القلب!

- لا، يا أخرق، وماذا كان بإمكانك أن تفعل أنت لو كنت في مكاني؟ ما دمت أقول لك إنّ ورقة البستونيّ كانت هي الرّئيسة!

- هات ماء!

- ولي شاربٌ!

- ولي أنا يا باريزو، كأس شراب البكون!

فيسحب صاحب النّزل ساقيه على الأرضية، آتياً بالمطلوب في كأس، بينما كان ابنه الثّاني، المديد القامة، والذي يبدو وكأنّه ينام واقفاً، يتيه في القاعة وبيده دورق.

- تعال هنا أيّها الأبله! -أجل، أجل، بهذه الشّاكلة تعمّ السّعادة الدّنيا! -أوه، لا أحد يُصدّق بذلك!- لقد قلت لك إنّه مُجرّد كذّاب! -نعم، في الحقيقة، طبعاً، هي لا تزال صغيرة. -أوه أنا آتي أيّام الآحاد، وليس في باقي الأيّام! - أوه!... أوه!... آه، ليكن إذن!

كان جاك ضائعاً وسط هذه الجمل التّعجّبية وفي هذه النّتف من الكلام السّاخر التي كانت تصله، مقطوعة بصوت الشّحم الذّائب في آنية، والقادمِ من الغرفة المجاورة، وبصوت دحرجة الكرات على البلياردو حيث تُهدّده بالعمى الأذنابُ المسنّنة للملابس.

تأمّل جاك العمَّ انطوان؛ كان يكرع بهدوءٍ خليطه من الكشمش والنّبيذ، وهو يُسجّل بقطعة طباشير على المائدة النّقاط المحصّلة في اللّعب.

بدأ جاك يشعر بضجر شديد في خضمّ هذا الضّجيج. كانت تفوح في القاعة رائحة صدريات قديمة من الفلانيلّة وروائح النّشارة والأوساخ، إضافة إلى رائحة شبيهة برائحة الإسطبل. وكانت هبّات كأنّها قادمة من هُريٍ تلفّه في الوقت نفسه الذي كانت آلاف الذّباب تطنّ فيه حوله حاطّةً في مجموعات على السّكّر مُرتشفةً اللّطخات على المائدة، مُتوقّفةً على خدّيه أو ساحبةً أجنحتها على أرنبة أنفه.

كان جاك يطرد الذّباب، لكنّه ما يلبث أن يعود مسرعاً، طانّاً أكثر من ذي قبل ومعانداً.

فكّر أنّ عليه أن ينصرف، لكنّ العمّ أنطوان كان قد انخرط في جولة لعبٍ جديدة. غيّر جاك مكانه فألفى نفسه بالقرب من مزارع شيخ يحمل قلادة من شعر كثيف كمثل بعض أنواع القرود الضّخمة. وقد ألفى نفسه مضطرّاً للتّنحّي لأنّ أنف هذا الرّجل، الذي كانت له هيئة مُعلّمٍ لطريقة عصرِ عرق السوس، كان يقْطر، كمثل مرشحة القهوة، على مُجاوريه عندما يتحرّك، فيُصيب منهم أيّ جزء.

- انتهى الأمر! صاح العمّ أنطوان وهو يُوزّع الأوراق.

كان يُبلّل إبهامه كلّ مرّة، وكانوا يفعلون مثله وهم يلعبون.

كان جاك قد غفا قليلاً عندما بدأ يسمع محادثاتٍ أجهد نفسه ليعرف مغزاها، غير أنّ أحد هؤلاء المزارعين كان يتحدّث بسرعة مفرطة موغلاً في الكلام باللّهجة المحلّية، ما جعل جاك يعجز عن متابعة ما يقول. كان المزارع يتحدّث عن امرأة باريسيّة، فتساءل جاك، في البداية، إن لم يكن موضوع الحديث هو لويزا. لكن لا، هم يتحدّثون عن مشهد طرأ الأحد الماضي، في النّزل نفسه، عند باريزو. دمعت عينا المزارعَين من الضّحك، فانطلق العمّ أنطوان بدوره في قهقهة عالية، وقد توقّف لحظة عن اللّعب بسبب ضحكات المزارعَين، فذكّرته كلمة ممّا يقولان بالحكاية.

آه كم أضجر! ولكنت أحسنت صنعاً لو كنت بقيت في لوربْس، أسرّ جاك لنفسه. نهض واتّكأ بركبتيه على الكرسيّ الطّويل وجعلَ ينظر من النّافذة.

كانت نساء القرية كلّهن تقريباً مجتمعات في الشّارع، ولم يكن من بينهنّ امرأة واحدة، امرأة واحدة، لها ثديان! وكم كنّ، في مجملهنّ، دميمات صُنعُهنّ غير مُحكم، مظهرهنّ فظّ، ميّالات إلى الشقرة، وذاويات رغم أنّ أعمارهنّ لم تُدرك العشرين بعد، ارتداؤهنّ لملابسهنّ غيرُ متقن، بادية قذارتهنّ، بقمصانهنّ ذات الأكمام وتنّوراتهنّ الرّمادية وجواربهنّ الوسخة المحشورة في أحذية غريبة.

ربّاه! يا لها من دمامة! خاطب جاك نفسه. حتّى الفتيات الصّغيرات كنّ يظهرن مُتجاوِزات أعمارَهنّ، على وجوههنّ تجاعيد، يوحي مظهرهنّ بالشّيخوخة. أمسكت ستٌّ منهنّ بأكفّ بعضهنّ البعض فشكّلن دائرة ورحن يُنشدن بأصوات خشنة:

أنا ذاهِبةٌ إلى عَمَّتي

عَمّتي لديها دجاجاتٌ لِلبَيعِ،

دجاجاتٌ سوداءُ وبيضاءُ.

بِأَربعةِ فلْساتٍ

بأربعةِ فلساتٍ

يا آنسةُ، فهلّا التَفَتِّ؟

عندما تلفّظن بهذه الكلمة الأخيرة التفتن، وطفقن، ظهورهنّ إلى ظهور بعضهنّ البعض، يتدافعن بمؤخّراتهن، ضاحكات.

أبدى جاك، في الأخير، اهتماماً بإناث القرود هؤلاء، اللاّئي كانت شفاههنّ تبدو في صحّة ما، غير واضحة، وتبدو الطّراوة في عيونهنّ. ثمّ أقبلت فتيات أخريات جارياتٍ، سنّ بعضهنّ حديثة، حتّى على قدر من طيبة، بصدريّاتهنّ المخطّطة، فتوسّعت الدّائرة وتواصل اللّعب، بينما كانت طفلة أسنّ في وسط الحلقة منعزلة ومنكفئة على نفسها، تردّد أنشودة مأساوية تقصّ «مذبحةَ الأبرياء[33]» وتحكي عن «العذراء»:

مارِيا، مارِيا، عليكِ بِالإنصِراف

فَالمَلِكُ هِيرُودُس أَقبَلَ لِيَقتُلَ

كُلَّ الأَطفالِ فِي مُهودهِمْ

ولَنْ يَستَثْنِيَ أطفال ضَيعتِنَا.

ثمّ تسارعت وتيرة حركة الحلقة، قافزةً، حاملةً الأصغر سنّاً من أذرعهنّ فما عدن يلمسن الأرض، ساقطة قبّعاتُهن على ظهورهنّ راقصةً مشدودةً بحبل مطّاط حول أعناقهنّ.

لم يعد بإمكان جاك، بسبب غيمة الغبار التي أثارتها البنات، لمْحَ الفتاة وسط الحلقة، وقد جعلن يُردّدن، بمختلف التّلوينات الصّوتية، نشيدها الشاكي والممتدّ:

صَعَدَتْ مارِيا إلى غُرفتِها

وَبِملابسَ بيْضاءَ وزرقاءَ تَزَيَّتْ

ثُمّ على أمْتِعتِها الجمِيلةِ

حَمَلَتْ ابْنَهَا فِي...

وتوقّف كلّ شيء. انحلّت الحلقة وكفّ النّشيد، فدوّت فرقعات وصرخات حادّة؛ كانت مُزارعة تصفع بقوّة إحدى الفتيات، لأنّها فقدت حذاءها وظلّت تقفز بجوربيها.

- قل لي يا ابن الأخ، صاح العمّ أنطوان وهو يسحب جاك من كمّه، ألا ترى أنّ وقت الرّجوع إلى لوربْس قد حان.

- أنا على استعداد، أجاب الرّجل الشّاب، سعيداً بمغادرة النّزل، فانصرفا.

أثناء عودتهما طلب جاك من الشّيخ أن يحكي له قصّة هذه الباريسيّة التي أضحكت بتلك القوّة المزارعَين اللّذين حكياها.

- أوه! ليس ذلك بشيء! أجاب الأب أنطوان؛ هي امرأة كان لها طفل صغير يُرضَع هنا في البلد. أوه! هي ليست امرأة غنية! وكانت قد أتت بصحبة طفلها الآخر. وبما أنّه لم يكن ثمّة مكان شاغر عند الأم «كاترين» حيث كان يوجد الطّفل الصّغير، اكترت غرفة عند باريزو.

لكنّه كان يومَ أحد، وصادف أن كان يوم الاحتفال. عندما عادت مساء في السّاعة التّاسعة، لتنام، قال لها باريزو إنّه لا يستطيع استقبالها لأنّ الغرفة التي اكترتها هي «غرفة الحبّ»، أي الغرفة التي يصعد إليها الفتيان والفتيات. غير أنّ هذه السّيدة أرادت البقاء في الغرفة لأنّ اللّيل كان حلّ وكان المطر يسقط مدراراً ولا مكان لها تنام فيه غير تلك الغرفة، فأجابها باريزو هكذا: على أيّ حال، ليس هناك غرف أخرى شاغرة، لكن يوجد في هذه الغرفة سريران، نامي في أحدهما مع طفلك الصّغير، ولن يُصيبك مكروه من الشّبان، فهم سينامون مع الفتيات على السّرير الثّاني. لكنّ المرأة أبدت ردّة فعل لا يزال من حضر المشهد يتلوّى منها ضحكاً. فذهبت في آخر المطاف إلى منزل الأم كاترين التي كانت مريضة، فقضّت تلك السّيدة اللّيلة قاعدة على كرسيّ.

فقال جاك:

- لكنّني لا أجدّ مُسلّياً في شيء أن تُطرد امرأة وطفل وسط الأمطار وقد حلّ اللّيل.

- لكن كان من حقّ باريزو أن يستغلّ غرفته، ما دامت الغرف الأخرى كانت مشغولة بزبائن أتوا لحضور الحفل. فهو ما كان له أن يُضحّي ببيع خمرته من أجل المرأة الباريسية. وقد كان من سوء حظّها أن وُجدت هناك وقتئذ. ثمّ إنّه كان بإمكانها أن تنام في السّرير الآخر. كان من شأن الشّباب أن يتداعكوا مع مُهراتهم، لكنّهم لا يؤتون شيئاً فرياً، كما أنّها هي الزّائدة في الغرفة. هم، على أيّ حال، يُلاعبون بعضهم بعضاً ويتسلّون، ويشربون نبيذاً، ثمّ يخرجون، عندما يُريدون، ليذهبوا في اتّجاه الحقول.

- لكن في هذه الحال، علّقَ جاك، من المفترض أن يكون في القرية فتيات كثيرات حاملات.

- بدون شكّ، بدون شكّ، لكنّهن يتزوّجن. كما أنّ الشّبان الماكرين يعملون على ملء بطون الفتيات الثّريات فعلاً، واصل الشّيخ القول، بعد لحظة صمت، وهو يغمز بعينه.

- ويكون الأمر هكذا في النّواحي كلّها؟

- بالطّبع، وكيف تريد أن يكون الأمر إن لم يكن على هذه الشّاكلة؟

- هذا صحيح، علّق جاك، مُحيّراً من هذه الحكاية التي تُلخّص في آن، الكراهية الباريسية، من جهة، والغرائز المالية والعادات الشّبقية لهذه القرية، من الجهة الثّانية.

عندما عاد إلى البيت مساءً قصّ هذه الأحداث على لويزا مُنتظراً منها أن تُبدي تعجّبها من الجشع المقيت لصاحب النّزل ومن صفاقته المضحكة، لكنّها لامت المرأة ورثت لحال الطّفل، ثمّ هزّت كتفيها قائلة إنّ شخصاً آخر في مكان باريزو كان سيتصرّف بالطّريقة نفسها. المال، هنا، هو كلّ شيء، كما أنّ علينا أن نقول أيضاً إنّ مساء يوم الاحتفال هو لحظة السّنة التي يُحقّق فيها صاحب النّزل أرباحاً كبيرة، ثمّ، يا إلهي...

- آه! هتفَ جاك الذي راح ينظر إلى زوجته، بادياً عليه أنّه مُفاجأ من موقفها.

8

ذات مساء وصل البرميل الذي طالما انتظروه. أخبرت العمّةُ نورين جاك بوصوله، في اليوم التّالي، مُنبّهة إيّاه، بهيئة منزعجة، شبه ماكرة، أنّ العمّ أنطوان يُنهي تعبئة الخمرة في القناني.

- عجباً! هو لم يُضع من الوقت شيئاً، صاح جاك قائلاً.

- وما الذي كان عليه فعلُه يا ولدي العزيز؟ هو لا يقوم بذلك إلاّ من أجلكما، أنتما اللّذين لم يعد في ملككما لتر واحد من خمرة. ستحصلون فوراً على نصيبكم الذي سيُترك في البرميل ويحمله أنطوان إلى بيتكم دون تأخير.

أراد جاك ولويزا تذوّق الخمرة فتوجّها عند العمّ ووجداه منهمكاً في عمله، مُحدّثاً نفسَه، مُطرياً على جودة خمرته قائلاً إنّ البرميل استُقدم من «سونس»، مُؤكّداً أنّه شراب جيّد.

وأمام هذه المزق من الكلمات، وانزعاج العجوزين، استشعر جاك على الفور أنّه يُخدَع.

- لنرَ، قال وهو يُدير صنبور البرميل، فتذوّقا الخمرة هو وزوجته. هو شراب واخز بشدّة يُذكّرك في البداية بطعم العنب، ثمّ يجعلك، بعد أن تشربه، تُحسّ أنّه شراب من برميل وُضع تحت مضخّة ماء.

ألقى بنظرة على اللّترات التي استُخلصت من البرميل سلفاً، مُفكّراً في أنّ هذه هي التي أضيفت إليها أقلّ كمّية من الماء. قالت العمّة نورين:

- هكذا هو الأمر؛ اثنان وستّون لتراً، أيْ نصف البرميل الذي نؤدّي لكما ثمنه مع العشرين لتراً التي أعرناها لكما عندما كنّا ننتظر قدوم بينوني بالبرميل، هي هنا في القناني، على ما أحسب. وهنا في البرميل ما تبقّى لكما.

- هذا لا يُغيّر من الأمر شيئاً؛ فهذا الخمر مُخفّف بالماء، قالت لويزا، وصديقكم بينوني هو مجرّد لصّ.

- أوه، أوه... هل يلزم قول هذا! قال العجوزان مُتعجّبين، وهما يُحاولان جاهدين إقناع لويزا بأنّ خفّة هذا الخمر هي الدّليل على نزاهة بينوني، إذْ لو كان ماكراً لوجد السّبيل لأن يغشّ فيه بجعله أثقل.

- حسناً، قال جاك. لكن أين سنضع البرميل؟

- سترى يا رجل، قال الشّيخ وهو يضع البرميل على نقّالة دفع بها إلى أن أدرك القصر فوضعه على إحدى درجات السّلم، داعماً الجزء الذي تجاوز عرض الدّرجة بكتلة من الحجارة وضعها على الدّرجة السفلى.

- هذا هو رأيي؛ إنّ عمّكِ ماكر عتيد، قال جاك لزوجته عندما بقيا بمفردهما.

فانفجرت هي غاضبة على الفور، مُؤاخذة قريبَيها على استضافتهما بإعارتهما غرفة ليست في ملكهما أصلاً، ثمّ أطلقت العنان، لأوّل مرّة، لشكاواها، كاشفةً أنّ نورين تُقدّم لهما بطاطس وبرقوقاً، لكنّها لا تقدّم أبداً خوخاً، لأنّ هذه الفاكهة تُباع بالبروفانس كلّ يوم سبت. لا، إنّه ليس من اللّباقة في شيء أن نستضيف النّاس عندما يكون غرضنا أن نتركهم يعيشون على نفقتهم الخاصّة. وهما غنيّان، غنيّان جدّاً، أنا أعرف ذلك، قالت، ثمّ أنهت كلامها بتعداد ما يملكانه من الأراضي المحيطة بالقرية على مدى فرسخين.

ظلّ جاك مُنبهراً من عنف مؤاخذاتها المفاجئة.

- لنحاول التّحكّم بأعصابنا، قال، فهذا لا يستحقّ. إنّ الشّيء الوحيد الذي يُقلقني هو انعدام المهارة في ما قام به هذان الشّحيحان؛ فلو كانا اقتصرا على سرقة بعض اللّترات من خمرتنا لما كان في الأمر خطر كبير، لكنّهما أفسدا بالماء اللّترات التي تركاها لنا، سعياً منهما للتّمويه على غشّهما.

- لن يكون لنورين حظّ في الجنّة، قالت المرأة.

- أجل... لكن... واصل جاك حديثه، مُتردّداً، هما أدّيا الثّمن لبينوني، فهل سيكون بمستطاعنا نحن أن نُؤدّي لهما حالاً؟

- الآن، لا.

- آه!

- بالطّبع، ما دمتَ مُفتقراً للمال.

- أنا أنتظر رسالة موران المكلّف بأعمالنا.

- أوه! موران!

- كيف! موران هو الصّديق الوحيد الذي ظلّ مُخلصاً لنا بعد إفلاسنا، وها أنت تُحقّرينه.

- أنا! لكن ما الذي يجعلكَ ترى أنّني أُحقّره؟

- النّبرة التّبخيسية التي في صوتك... باسم الرّب!

هزّت لويزا كتفيها.

- سأقوم بجولة.

عندما أضحى خارج القصر، راح يُفكّر في التّغيير الذي يحدث داخل زوجته، ساعياً إلى كشف ما يطرأ فيها من تحوّل.

لقد مرّت بثلاث مراحل، أسرّ لنفسه مُتفكّراً. كانت بعد الزّواج شابّةً طيّبة مُحبّة خدوماً ومُقتصدة دون تقتير. كانت عندئذ تُجيد التصرّف، هذا صحيح. ثمّ أضحت بعد أن ألمّت بها آلام الأعصاب مُتقلّبة ومبذّرة، ويكاد يتّسم سلوكها بالوضاعة. أمّا في الآونة الأخيرة، فقد أضحت مُهتمّة بشؤوننا وخشنة في تصرّفاتها. ثمّ فكّر من جديد في تلك الطّريقة التي استقبلت بها حكاية المرأة الباريسية المطرودة من النّزل، وفي سَورة الغضب التي استولت عليها عندما تبيّنت تلاعبات نورين والعمّ أنطوان. هي كانت ستضحك من هذا، فيما مضى.

صحيح أنّنا اليوم فقيران، أسرّ لنفسه، وهي مُحقّة في دفاعها عن مصالحنا، لكنّ هذه الفكرة ظلّت بعيدة عن إقناعه. شعر بأمرٍ ما لا يعرف طبيعته يندسّ بينهما، أمر شبيه بمحاولة التّحدي أو بالضغينة. لكنّها مريضة، خاطب نفسه، فلم تُقنعه هذه الفكرة بدورها. لا، ثمّة أمرٌ خاصٌّ، مرحلة جديدة تجتازها روحُها؛ هناك، من جهة، نفاد صبر لم يعرفه عندها من قبل، وهناك، من جهة ثانية،

مُحاولة إرادية مُغلّفة بمؤاخذات عائمة، في شكلِ ردّة فعل ضدّ دورها الذي تقوم به حتّى الآن، والمختزل في التدبير المنزليّ؛ وهي ردّة الفعل التي تحمل في طيّاتها، حتماً، احتقاراً للرّجل ونوعاً من الثّقة المزهوّة بالذّات.

إنّه لا يتخلّى عنّا فقط اللاّمبالون والرّفاقُ عندما نسقط في البؤس، خاطب نفسه قائلاً بمرارة، وإنّما يتخلّى عنّا حتّى المقرّبون جدّاً منّا. ثمّ ابتسم مُنتبهاً إلى الطّابع المبتذل لهذه الملاحظة.

ما العمل الآن؟ سأل نفسه. أن أُراوغ زوجتي وأُجامل العجوزين، لأنّ الحياة إن لم أقم بذلك لن تستتبّ. لقد كان عليه، بالفعل، أن يتصرّف ليُخفّف، من حين لآخر، من وقع الصّدمات.

اجتاح برودٌ علاقة زوجته بنورين، وعلاقته هو بالعمّ أنطوان. وقد كان العجوزان هما السّبب في هذا الإزعاج وهذا التّحفّظ وهذا الصّمت المسترسل، فوجد جاك نفسه مُرغماً على التّقرّب منهما، حتّى لا تحدُث القطيعة.

تنحّى المُزارعان عن ابنة أخيهما، دون أن تكون لهما الرّغبة في ذلك، ودون حتّى أن يتصوّرا إمكان حدوث هذا التّنحي. في البداية أقرّا لنفسهما أنّهما أخطآ في حقّها، لكنّهما ظلاّ في موقف دفاعيّ، مُتأكّدين مع ذلك من أنّ الباريسيّين لم تنطلِ عليهما قضية سرقة خمرهما، ثمّ أبعدهما قلقٌ، وحتّى ما يُشبه نفوراً من لويزا منذ رأياها مريضة ضاربة بقدميها. هما كانا على وشك اعتبارها مسكونة بالعفاريت أو مجنونة، مُتوجّسين حتّى من أن يكون داؤها مُعدياً فيفاجئهما بالانتقال إليهما. كما أنّ العجوزين كانا يظنّان أن مُقابل برميل الخمرة سيُسدَّد لهما على الفور، وقد بلغ بهما الأمر، في المجمل، أنْ شعرا بخيبة من تبدّد أمل الأكل الفاخر والسّخاء الذي كانا يُمنّيان النّفس به، عندما أقدما على استدعائهما. ثمّ، أخيراً، كان موسم الحصاد قد حلّ فلم يعودا يهتمّان لا بالعائلة ولا بالأصدقاء ولا بالرّفاق ولا بأيّ كان. فهما أصبحا مشغولين بشكل كامل بمسائلَ مالية ومسكونين بأمور الطّقس ومخازن الحصيد.

ما عادا يوليان أيّ اهتمام للباريسيّين اللّذين كانا يزدريانهما بوصفهما غير صالحين لأيّ شيء، فكفّا عن زيارتهما. كانت هذه الظّروف كلّها قد حدّدت طبيعة الخلاف بينهم. لكن، عندما تعب جاك ولويزا من وحدتهما، بدآ يتقرّبان من نورين والعمّ أنطوان ويزورانهما، فكان لِحاجة العجوزين إلى من يستمع إلى شكاواهما من مصيرهما وإلى تنويههما بعملهما في الحقول، دورٌ فصلٌ في استقبال جاك ولويزا والتّرحيب بهما؛ كما أنّ الأفعال القذرة التي نُصيب بها النّاسَ تُؤدّي في البداية، عند من اقترف ذلك، إلى تقهقر طفيف، ثمّ إلى حركة في الاتّجاه الآخر ورغبةٍ في التلطّف، فَإفراطٍ في إظهار المودّة؛ وكلّ ذلك، بالتّأكيد، بهدف التّمويه على الفخاخ التي ستُنصب في المستقبل.

أبدى جاك سعادة بأنْ لم تتّخذ الأمور منحى آخر أسوأ، لأنّ مرحلة انذهاله وسكينته من وجوده في الهواء الطّلق للرّيف كانت قد أشرفت على نهايتها، فراح الضّجر يُنكّل به. وقد شرع يُفكّر، حتماً، مُتحسّراً، في أشغاله وكتبه وحياته في باريس وفي هذه الضّواحي المُشهّية التي تأخذ جاذبيتها في البروز بشكل طافح ما إن نُحرم من الاستمتاع بها.

ثمّ حلّ الجوّ المفرط في حرارته، فتحوّل الطّقس الذي كان مُتقلّباً منذ بضعة أيّام إلى طقس ثابت؛ انسحبت السّحب واحتدمت السّماء، عارية، وصافية الزّرقة، فأغرقت الرّيف باللّهب مُصيبة السّهل باليباس. جفّت الأرض واصفرّت كأنّها طين مشويّ، وعطشت التّلال وتفتّتت، وتقشّرت الطّرق المحروقة تحت بقايا النّباتات المغبرّة.

وكمثل غالبية النّاس المنهَكي الأعصاب، عانى جاك عذابات شديدة من جرّاء هذا الطّقس الذي يُذيب الرّأس ويجعل الأيدي ترشح ويُبلّل السّراويل الدّاخلية. تعرَق القمصان على الظّهور وتُبلّل الياقات ويرشح نسيج الفلانيلّة عرقاً وتلتصق السّراويل بالرّكب وتنتفخ الأرجل في الأحذية، فيتمّ الشّعور بالإنهاك النّاتج عن العرق المنساب على الجلد وكأنّه يُصبّ من إبريق، لامعاً تحت الشّعر، مُلطّخاً بلزوجته الأصداغ مُتعبَاً إيّاها.

فقدَ جاك الشّهية على الفور، وجعل أكلُه اللّحمَ الذي لا ينتهي والمُقنّعَ بصلصات سيّئة يُثير لديه الغثيان. بحث عن الخضار وسعى للحصول على توابل، لكنّه لم يعثر على أيّ شيء من ذلك، فلا بقدونس ولا زعتر ولا كزبرة ولا غار، ولا حتّى فصوصاً من الثوم الذي كانت رائحته القبيحة تُقزّزه مع ذلك. لا شيء باستثناء بعض الكرّاث، لكنّ طعمه القويّ والمعدنيّ كان يحرقه. ما عاد يأكل شيئاً فبدأت آلام المعدة تُعلن عن نفسها.

تسكّع في الحقول باحثاً عن بعض الانتعاش، لكنّ حزنه كان يُصبح غيرَ محتمل وسط الظّلمة التي كان يلبد فيها. جعل يتجوّل، قاصداً الأماكن الأكثر انفتاحاً، لكنّ الحرارة كانت تدلف إليها فتهُبّ أعاصيرُ كأنّها قادمة من أفواه المولّدات الحرارية، مُحمّلة برائحة عفن الأرضيّات والغرف المُغلقة.

كان ينتظر أن تغرب هذه الشّمس التي لا تنتهي ليخرج، لكنّ الجوّ كان يبقى محشوّاً بأبخرةٍ ثقيلة.

أمّا لويزا فقد انكفأت على نفسها في غرفتها، غافية، مُمدّدة على كرسيّ، فاقدة لقوّتها القليلة في خضمّ هذه الحرارة المفرطة التي تُصيب بالانهيار. كانت لا تكاد تقبل بأن تنزل، مساءً، بإلحاح من جاك، فيقودها ليجعلها تتمشّى قليلاً وتتخفّف من ضجرها، إلى أي يُدركا بيت نورين.

لكنّ التّسلية في بيت العجوزين كانت، حقّاً، قليلة؛ فقد طفق نورين والعمّ أنطوان يشكوان دون انقطاع من العمّال غير المؤهّلين الذين أجّراهم، شارحَين أنّهما شغّلا حُصّاداً بلجيكيّين من أولئك الذين يجوبون شمال فرنسا وغربها، في تلك الفترة من السّنة، مُصرّحين أنّ أداء أجرٍ لهؤلاء الأشخاص والقيامَ بتغذيتهم يُعدّ كارثة في ذاته.

إنّها كارثة، قالت نورين، فهم مُجرّد أشخاص بلا همّة علينا أن نأتيهم بكلّ شيء! وهم مع ذلك أشقياء جدّاً. الذين لا حصاد لهم هم الوحيدون الذين لا يعرفون ذلك!

فقال جاك:

- لكن ألا يمكنكما أنتما نفسكما حصد زرعكما؟

- أوه! ... أوه! لكنّ الحصاد، في هذه الحالة، يا ولدي العزيز، لن ينتهي حتّى يُقبل موسم قطف العنب. سيدوم ذلك ثلاثة أشهر قُدماً.

وانتهى المطاف بالشّيخ إلى الاعتراف بأنّ البلجيكيّين، بحدّ مناجلهم وحاصِداتهم، يتقدّمون بسرعة في عملهم، وأنّهم يشتغلون أحسن من رجال البلد كلّهم مُجتمعين.

- نحن لا نعرف. نحن مُجرّد نقّابين. نشتغل بالمنجل الضّخم الموضوع هنا في الزّاوية، لكنّ عملنا بطيء، ومع الزّرع الممدّد لا نستطيع القيام بشيء ذي بال، كما أنّنا نُضيع منه الكثير.

تعب جاك، ذات مساء، من وحدته فغادر القصر مُتجوّلاً في نواحي رونادبير، باحثاً عن الأب أنطوان.

في كلّ مكان من أعالي التّلال وضفاف الوادي، كان أشخاص يحصدون. سمع بوضوح تامّ، رغم بُعد الصّوت، ضجيج حديد الحاصِدة، مَتبوعاً بقرع معدنيّ للمنجل وهو يقطع الزّرع. كان شكل المنظر يتغيّر حسب الجهة التي ننظر إليها؛ فبالقرب من تاشي، كان الحصاد قد انتهى، فوُضِعت حُزَم الزّرع بعضها فوق بعض، شبيهة بخلايا نحل، على أرض شاحبة مُنتأة بسيقان زرع قصيرة أخطأها الحصاد، وتجُول عربات تُشحَن بالأعشاب، في حين كانت بغلات تعلو كمثل أبنية كبيرة ملفوفة بالقشّ. أمّا من جهة رونادبير فكانوا ابتدأوا لتوّهم في الحصاد، فتُلمح قُبّعات كبيرة، ولا يبدو أيُّ رأس حاسراً. لا يكاد يظهر جزء من أعلى الجسد، وفي كلّ مكان مجموعات أرداف تتحرّك بحركة مائلة مستمرّة مُتأرجحة وبطيئة على سيقان مُنفرجة.

لمح جاك، في الأخير العمّة نورين والعمّ أنطوان يتحرّكان بالقرب من الحاصدين الذين شغّلاهم. عندما رأياه توقّفا. ظلّ جاك مُنبهراً بالشّمس، يجري العرق على جسده مدراراً، مُندهشاً من أن يرى أجساد البلجيكيّين جافّة بشكل رائع، وهم يقطعون الزّرع بيد ويُمدّدونه بالأخرى على الحزم.

كانوا رجالاً طوالاً، بلحى صفراء، لونهم رماديّ مُسمَرّ، حواجب عيونهم شقراء وذات لون شبيه باللّون الأمهق، يجعلهم لفح الجوّ يبدون ملفوفين في لون كلون الأكسيد. كانوا يرتدون قُمصاناً خشنة مُخطّطة، شبيهة في سماكتها وخشونتها بمُسوح النّساك، وقد علّق كلّ منهم إلى حزام سرواله الجلديّ، مُدلاّة على أسفل البطن، آنيةً من حديد أبيض مليئة بالماء والقشّ قصد تبليل الصّخرة التي يشحذون عليها مناجلهم ومنعها من فلّها.

كانوا صامتين. وبما أنّهم كانوا يحصدون زرعاً مُمدّداً على الأرض بفعل الأمطار، فقد كانوا يوقفونه ويبصقون في أكفّهم فيُسمع صريرٌ لحاصداتهم وهي تقطع الزّرع الذي يسقط وسط صوت شبيه بهسيس تمزّق الأقمشة.

- أيّها الرّجال الطّيبون! يا له من عمل أن نحصد زرعاً مُمدّداً! قال العمّ أنطوان، ثمّ أضاف هذه الملاحظة التي لم ترق جاك البتّة: صحيح يا ابن الأخ أنّك تعرق حتّى وأنت لا تقوم بأيّ مجهود!

يا له من سعير! فكّر الرّجل الشّابّ الذي جلس مُقرفصاً ومُتكوّماً على نفسه، عاملاً على جعل جسده يستجير من الشّمس بدائرة الظّل التي يعكسها الجناحان الواسعان لقبّعته القشّية. يا لها من مزحة أن تُشبّه لون الزّرع بلون الذّهب! أسرّ لنفسه، وهو ينظر في البعد إلى هذه الجزمات ذات اللّون البرتقاليّ الوسخ، مُتجمّعة في كتلة. فهو بالرّغم من محاولته الجادّة لم يستطع أن يقتنع بأنّ لوحة الحصاد هذه التي طالما احتفى بها الرّسامون والشّعراء، هي لوحة ذات شأن. كانت تُجسّد رجالاً تحت سماء بزرقة لا تُضاهى، مكشوفي الصّدور مُشعريها، تفوح منهم رائحة دَسَم جلود الخراف، وهم يجزّون بسلاسة جذوع الزّرع الأسمر. كم هي كثيرةٌ اللّوحات التي تبدو حقيرة وبلا قيمة أمام مشهد مصنعٍ أو بطنِ سفينةٍ مُضاءٍ بنار المَصَاهر.

ما قيمة العمل الحقير في الحقول، في المجمل، أمام البهاء المرعب للآلات التي هي الجمال الوحيد الذي استطاع العالم الحديث أن يخترعه؟ ما قيمة الحصاد الجزل، وأن تَضع الأرضُ الطّيبة بيضها! ما معنى أن تلد بلا ألمٍ أرضٌ مخصّبة بالبذرة المنفلتة من كفّي امرأة متوحّشة، بالمقارنة بهذا التّوالد النّاتج عن تخصيب الرّجل، وبهذه الأجنّة الفولاذية الخارجة من رحم الأفران مُتشكّلةً ودافعةً وهي تكبر وتئنّ بشكاوى مخنوقة، مُحلّقة بأجنحة، فتعلو الجبال وتطوي الصّخور!

إن ما تُغذَّى به الآلات، أقصد فحم الأنتراسيت الصّلب والفحم الحجريّ الغامق، وكلّ هذا الحصاد الأسود المجزوز من أحشاء الأرض نفسها، في قلب اللّيل، لهو مؤلم جدّاً، وعظيم تماماً.

عندئذ ردّ جاك بعضاً من الاحتقار الذي طالما رماه به هذان المزارعان الشّاكيان أبداً، واللّذان كانت حياتهما الرّحيمة جنّةً لا سبيل لمقارنتها بحياة المَنجَميّين والميكانيكيّين وكلّ عمّال المدينة! هذا دون أن نأخذ في الحسبان أنّه في الوقت الذي يكون فيه المزارعون يتسلّون ويستدفئون، في فصل الشّتاء، يكون العمّال اليدويّون في المدن يُجمَّدون كادّين. أجل، اذهب وواصل نواحك، أسرّ جاك، موجّهاً حديثه ذهنياً إلى العمّ أنطوان الشّاكي، واضعاً يديه على بطنه وهو يتنهّد:

- هل هناك ما هو أدعى للشّقاء من زرع رخو مثل هذا!

ثمّ أضاف العمّ أنطوان بعد لحظة صمت، وهو ينظر إلى جاك:

- آه، ما هذا، ما بك أنت، ماذا ألمّ بك؟

- أنا أُفترَس. جسدي كلّه يُفترَس، قال الرّجل الشّابّ، وقد اجتاحه جرب مُفاجئ، حكّة فظيعة، حتّى أنّ هرشه لجسده بأظافره لم يعد يتوقّف. كان يشعر أنّ جسده ملفوف بلهب صغير، وشيئاً فشيئاً،

أعقب اللّذَةَ العابرة للجلد المهروش إلى حدّ إسالة الدّم حرقٌ أحدّ، وشدٌّ للأعصاب إلى حدّ إطلاق صرخات، وألمٌ لذيذ من شأنه أن يُؤدّي به إلى الخبل.

- هذا ما يُعرف ببقّ الخريف، قالت العمّة نورين ضاحكة. لقد حلَّ منذ أمس. انتظر، انظر، ثمّ أمالت رأسها وفتحت انتفاخين موجودين في عنقها لمح جاك بينهما تحت الجلد بذرة حبّة حمراء.

- لكن هذا ليس بشيء، هو أشبه بقرصة برغوث! واصل العمّ قوله. وسيدوم هذا حتّى مقدم الأمطار.

شعر جاك بالغيرة من جِلد لهؤلاء النّاس المحبّب والذي لا يتألّم، في حين راح هو يُصرّ بأسنانه وهو يفلح لحمه بأظافره.

لتُخسف الأرض في الريف قال في سرّه، وغادر الحاصدين. عليه أن يخلع ملابسه وأن يهرش جسده على راحته. توجّه نحو القصر، لكنّه لم يقدر على الانتظار، فذهب أبعد، خلف أيكة أشجار، وتخلّص من ملابسه، وهو يكاد يبكي من شدّة الألم. كان يقلع بأظافره قطعاً من جلده، ولا يبلغ شبعه من اللّذة الأليمة لقرص نفسه وتقشير جسده وتعذيبه ونجره. وما إن يُشبع من ذلك جزءاً من جسده حتّى تحدثَ غليانات جديدة قويّة في أمكان أخرى، مُصيبةً جسده بالالتهاب، فتجعله يحكّ في كلّ الجهات بكلتا يديه، فالحاً فقّاعات الحرق التي أضحت ناضجة سلفاً فينبجس الدّم منها.

عدّل من حاله بهذا القدر من الإتقان أو ذاك وصعد كمثل شخص به جِنَّة إلى غرفته فوجد لويزا شبه عارية باكية. كان توفّز الأعصاب لديها من قوّة الاحتداد بحيث كانت أصابعها ترتعش في نفس وقت اصطكاك أسنانها التي تخرج من بين انفراجاتها أصوات فُواق وحشرجات.

تذكّر فجأةً بلسم الهرش الذي هو في شكل صابون أسود فنزل درجات السّلم أربعاً أربعاً، وعدا في اتّجاه منزل نورين ودفع مصراعي النّافذة المضمومين ودخل وانتهى به المطاف إلى أن عثر على الصّابون موضوعاً في آنية، وعندما عادَ دهنَ به جسد زوجته فاركاً بكلتا يده، رغم صراخها، ثمّ دهن جسده هو أيضاً بهذا الخليط الدّسم. تولّد لديه الإحساس بأنّ آلاف الدّبابيس تُغرس في جسده كلّه، لكنّ هذه الأوجاع الحادّة وهذه الآلام الصّريحة، النّاتجة عن البلسم، بدت له لذيذةً، مُقارنة بذلك الاحتدام المبهم الذي كان عمّ جسده، وبهذه الوخزات المتنقّلة والاعتمال المُغيظ للجرب.

ثمّ هدأت لويزا أيضاً، لكن الصّابون الأسود لم تكن له القدرة على اجتثاث بقّ الخريف. فكّرا في أن يُفرغا البثور بحدّ الإبر وأن يُخرجاها من الأماكن التي حفرتها، لكنّها كانت كثيرة فبدا لهما أنّ مطاردتها تحت الجلد مستحيلة. يلزم للتّخلّص منها كبريتٌ ودُهن الإيمريش والاستحمام بملح البارج[34]، أسرّ جاك لنفسه، يائساً.

كانت العمّة نورين والعمّ أنطوان يتأمّلانهما مساء، حابسَين ضحكتهما، مُندهشَين من أن يكون للباريسيّين جلد بهذه النّعومة.

- لكن ما بك؟ أنا أسألك، صاحت العجوز في ابنة أخيها، بقّ الخريف هو كمثل حكّ بسيط يُحدث التهابات صغيرة.

- ثمّ كم هو مفيد للدّم، وكم يُطهّره! قال العمّ. اسمع يا ابن الأخ، هو يُقتَل كالدّود بتناول شراب الرّوم، ثمّ صبّ وشربوا في صحّته.

كان اللّيل رهيباً؛ فما إن ناما حتّى تواصل الحكّ، بعد أن كان هدأ في المساء. نهض جاك، مُنهكاً بحالة الإثارة البالغة التي جعلت تلوي أصابعه، مُختنقاً، بينما كانت لويزا تُمزّق الألحفة وتعضّ الوسائد، حتّى لا تصرخ. ثمّ انتهى بها المطاف إلى أن أحسّت بالإنهاك فنامت. هدأ جاك أيضاً بعد أن أضحى بعيداً عن حرارة السّرير، جالساً، عارياً تماماً، فراح يجترّ أحزانه، حاثّاً نفسه على العودة إلى باريس، في أقرب وقت ممكن، بمجرّد استلامه بعض المال. لقد مللت كلّ شيء، أسرّ لنفسه، زد على ذاك الجرب القمّليّ الخاصّ بهذا البلد! فشرع يعدّ الأيّام. لقد استطاع صديقه أخيراً أن يعثر على وكالة مصرفية وافقت على صرف أوراقه البنكية. لكنّ هناك أوراقاً كثيرة يجب إمضاؤها، وتوكيل يجب إعداده، والتزام بترك مبلغ صغير، رسماً للدّخول في الأعمال، شكليات كثيرة لا نهاية لها. لنبقَ ثمانية أيّام أخرى وليحصل لي ما يحصل بعد ذلك في باريس، لكنّني سأذهب!... ثمّ إنّه من الواضح جدّاً أن الريف لا يناسب لويزا. فهي تظلّ في الغرفة باستمرار رافضةً الخروج، كما أنّ الجانب المشؤوم لهذا القصر يؤثّر عليها أيّما تأثير...

هو نفسه أحسّ، مُنذ أصبح ضجر الرّيف أمراً واقعاً، أنّ هذا الضّيق المبهم والغمّ الملغز اللّذين كانا رجّاه بعنف عند وصوله إلى لوربْس، قد عاودا اجتياحهما له من جديد.

كان أمر ما قد حصل بالفعل؛ فهو، ما إن استراح من تعب الرّحلة واعتاد هذه الحياة الجديدة، حتّى كفّ النّفور الغريزيّ الذي أحسّ به تُجاه القصر، فما عاد يسمع الضّجيجَ اللّيليّ الذي يعمّ تلك الخرائب، وصراعاتِ الطّيور التي كانت تُسمع بوضوح في الطّوابق العليا، في ظلام الغرف، وهديرَ الرّياح التي تكنس الممرّات، عازفةً موسيقاها عبر شقوق الجدران ومُطلقةً صفّارات الإنذار تحت الأبواب. كان قد شرع يستغرق في النّوم، مُستفيقاً، فقط بعضَ الأحيان، مُصيخاً السّمع إلى أصوات حملات إثارة الطّرائد التي يُقيمها الصّيادون الخارجون عن القانون في الغابة المجاورة، وإلى البومات النّاعقة في الجهة المقابلة، لكنّ ذلك لم يكن سوى إحساسٍ مُنزعج وقلقٍ، خالٍ من خوف فعليّ، وبلا رعب حقيقيّ، فيعود إلى النّوم غير مبالٍ، في المجمل، بهذه الأهوال التي ما عاد يرى لها من تهديد.

ثمّ طرأ أمر آخر. كان الهدوء الذي اجتاحه بسبب الهواء الطّلق قد أخمد حياة الأحلام التي كانت احتدّت بشكل ظاهر منذ وصوله إلى لوربْس. صار ينام دون أيّ اضطراب، ومن حين لآخر، كان يشعر أنّه لا يزال يتسكّع على تخوم الحلم، لكن، وكما كان يحصل له في باريس سابقاً، لم يكن

يتذكّر عند الاستيقاظ أيَّ ذكرى عن هذا التّجوال على أراضي الهذيان، أو قل إنّه لم يكن يتذكّر إلاّ بقايا هجمات، خالية من أيّ دلالة.

ثمّ بدأ الضّجر يقطع حالات الهدوء الكامل هذه. فهو سبق له أن طفا بالأمس، أثناء نومه، وسط أحداث غير متجانسة وفارغة. هو يتذكّر فقط أنّه رأى حلماً، لكن دون أن يستطيع تحديد معالم هذا الحلم التي تشتّتت منذ الفجر. وخلال تلك اللّيلة، وقد استولى عليه الغضب من نار جلده، وأثارت الآلام أعصابه، عاوده الإحساس بالخوف، خوف مُلغز، مُقرف، نوع من حلم يقظة، تُغطّي صوره بعضها بعضاً، ولا تبدو واضحة لفرط السّرعة التي تمرّ بها، خوف تبدو صلته برعب الحلم الحقيقيّ أكيدة، فشرع يسمع من جديد، بيقين مُطلق وبكثافة، الضّجيجَ المنسيّ للقصر.

إنّ واقعية الرّوح وثبات العقل اللّذين يُعدّان السّببين الرّئيسين للشّجاعة، كانا مُعطّلين لديه؛ فمن المعلوم أنّ بسالة الإنسان الذي يُلفي نفسه وجهاً لوجه أمام خطر، تتشبّث أغلب الأحيان بقوّةِ الآلة العصبيّة التي لا تهتزّ أبداً آليّتُها الثّقيلة. وكانت آليّات ذهنه، التي شحّمها الضّجر وركّبها، قد عادت للعمل، فظفر الخيالُ على الفور وفاز، مُغذّياً الكوابيسَ والخوف، مُقدّماً اقتراحاتٍ مبالَغاً فيها، مُعدّداً أوجه الخطر، عادياً في كلّ اتّجاه عبر الطّرق العصبيّة التي يرتجّ جهازُها العَطُوب، عند كلّ اهتزازة، مُفرغاً طاقته. ظلّ على تلك الحال، يصطخب على مائدته من عاصفته الداخلية التي تطفو عليها بداياتُ تأمّلاتٍ لا تُفضي إلى نهايات محدّدة، وأنقاضُ أفكارٍ تُشبه بنيتُها المهدّمة بنياتِ بعض الأحلام.

اعتدلت لويزا على كرسيّها، وكأنّ خرس زوجها هو الذي أيقظها، عيناها مفتوحتان على سعتهما، وانهارت باكية.

حاول جاك الإمساك بكفّيها الموضوعتين على وجهها، ولمّا لمح عينيها خلَلَ الأصابع التي كان يُزيحها، تبيّن تعبيراً مزدوجاً يمرّ تحت قناع الدّموع؛ لمح تعبيراً عن ضيق مُرعب وعن احتقار.

ترك الأصابع تسقط فغطّت محيّاها كمثل واقيةِ خوذةٍ مُسيّجة، وجلس عند قدم السّرير.

اجتاحه وضوح كامل فجأة، كانساً الطّابع المبهم لحالات القلق وحالات الرّعب، منيراً ذهنَه كلّه، فبدت له الفكرةُ شديدةَ الوضوح. لقد أدرك أنّه لا أحد منهما استطاع فهم الآخر خلال السّنوات الثّلاث التي دامها اقترانُهما.

هو لم يفهمها، لأنّ الفرصة لم تُتح له، رغم ما كان يُنجزه من بحوث، كي يسبر أغوار زوجته في إحدى تلك اللّحظات التي ينبثق فيها عمق أعماق الرّوح؛ ولم تفهمه هي لأنّها لم تجد نفسها يوماً بحاجة إلى حامٍ تستجير به، أثناء عيشها الوديع بالمدينة.

كان جاك ينظر بانتباه إلى نفسه وإلى زوجته، معاً، في تلك اللّحظة، كي يلمح حالات انعدام التّقدير المتبادلة بينهما. اكتشف عند زوجته فظاظةَ مزارعةٍ موروثةً كانت توارَت في باريس، لكنّها عادت للظّهور بقوّة عند رجوع لويزا إلى أجواء بلدها الأصليّ، فسرّعت لديها مخاوفَها من الانحدار إلى

عوزٍ مُفاجئ. أمّا هي، فقد وجدت عند زوجها خوراً عصبياً، وإحدى حالات ضعف الرّوح الرّقيقة التي تُعتبر آليّتها المضطربة أمراً تستقبحه النّساء.

فكّر جاك، بعيداً عن مخاوفه الصّبيانية وعن أحلامه الجوفاء، مُبعداً إيّاها طُرّاً - فكّر بطريقة حزينة في هذه الوحدة الشّبيهة بملح حمض الإيودور، والتي أبرزت لديهما دماملَ مرضِهِمَا الرّوحيّ، الخفيّةَ، فجعلتها باديةً لهما معاً، ولا يمكن نسيانها إلى الأبد.

9

تغيّر الجوّ فأُصيب المزارعون الذين كانوا يخرجون لعملهم منذ الفجر بخيبة أمل كبيرة. دون فترة انتقالية تقريباً، أصبحت السّماء، التي كانت قبل قليل شديدة السّخونة، باردةً تحت الرّماد المتراكم للسّحب، فانهمر المطر مدراراً ودون انقطاع.

هذا المطر الذي يقتل بقّ الخريف ويُساعد القوى المنهارةَ بحرارة الشّمس المفرطة على استعادة توازنها، بدا سائغاً لجاك الذي استعاد دماغه يقظته. لكن، بعد يومين من السيول المتواصلة، ظهرت صعوبات لم تكن في الحسبان.

دخلت ذات صباح مُزارعة هزيلة بادية عليها معاناتها من آلام في وركيها، دافعة أمامها بطناً مهيباً شديد الانتفاخ، وصرّحت بأنّها أمّ فتاة سافين المكلّفة بالتّسوق لهما، وطفقت تتحدّث مطوّلاً عن الصّحة العليلة لابنتها مُنهية قولها بأنّ السّيدة إن لم تنقدها أربعين فلساً يوميّاً، فإنّها لن تعود إلى إرسال ابنتها بالمقتنيات إلى القصر خلال أيّام الأمطار هذه، فأجابتها لويزا:

- إنّكم تُرغموننا على أن ندفع لكم مُقابل السّوائل والمُربّى والجبنة وكلّ شيء ثمناً هو أغلى مرّتين ممّا ندفعه في باريس. ويبدو لي أنّ من المفترض أن تكونوا مرتاحين من هذه الأرباح مع العشرين فلساً المسلّمة كلّ صباح لابنتكم.

أبدت المرأة شكواها من ثمن الحذاء الذي تُبليه ابنتها بالتّنقّل إلى القصر أثناء هطول المطر، ثمّ مدّت بطنها المنتفخ من حَملِها وشرعت، نائحةً، في اتّهام زوجها بأنّه سكّير، ما جعل الباريسّيين يستسلمان، تعبَين من شكاواها.

بعد ذلك برز مشكل الخبز. فكما كان جاك قد تنبّأ بذلك، اخترق الماء السّلة التي يضع فيها خبّاز أورْم الخبزَ، ويترُكُه في طرف الحديقة، فأصبح عليهما أن يمضغا إسفنجاً مُبلّلاً، وأن يعضّا على عجين رخو تعجز السّكين عن قطعه فاقدةً فيه مضاء حدّها.

وبباعث القرَف من هذه العصيدة أخذ جاك على نفسه أن يُراقب السّاعة وأن ينزل وسط الوحل، تحت الأمطار المنهمرة، ليتسلّم الخبز من يد الخبّاز مباشرة ويأتي به تحت ملابسه غير مُبلّل إلاّ قليلاً.

وقد كان للبئر نصيب من هذه المشاكل كذلك، فقد فسد ماؤها بسبب السّيول، وأصبح أصفر بعد أن كان أزرق، وصعد موحلاً مُبقّعاً بقطع من أوراق الأشجار وبفراخ ضفادع، فلزم تصفيته بقطع من النسيج ليعود شبه صالح للشّرب.

ثمّ أتى في الأخير دورُ رعبِ القصر. كان المطر يتسرّب إليه من كلّ جانب، فأصبحت جُدرانه تسيل بالماء، وتعفّن الأكل المرتّب في الخزائن وانبعثت رائحة طمي من السّلّم الذي تجري عليه المياه.

كان جاك ولويزا يشعران باستمرار بأنّهما يضعان على كتفيهما معطفاً رطباً، ويلجان مساءً، مُرتعشيَن، الفراش الذي تبدو ألحفته مُبلّلة.

أضرما النّار في قبضة أعواد رقيقة وجوزات صنوبر، لكنّ المدخنة الخربة أعلى السّطح كانت عاجزة عن السّحْب.

أصبحت الحياة غير محتملة داخل هذه المثلّجة. لم تعد لويزا تنهض إلاّ لإعداد الطّعام ثمّ تعود على الفور لتنام، شاعرةً أنّها على غير ما يُرام. وكان جاك يشرع، خارجاً عن أطواره، في التّيه عبر الغرف.

كان قد استلم من صديقه موران كتباً، كتباً مفضّلة لديه، تنبعث منها رائحة قوية، لكنّ ظاهرة غريبة حدثت ما إن حاول إعادة قراءتها. بدأت جملها التي كانت تأسره عند قراءتها في باريس ترتخي هنا في الريف وتتناثر. فالأدب المُثمِل يَفسُد عندما يُنتزع من محيطه، فتفقد شرائح لحم الإيّل فيه لونها البنفسجيّ ويذهب عن نُسغه لونُه الأخضر، وتفوح أنثى الخنزير في فترة جماعها برائحة الدهن المقزّزة. أمّا الأفكار المحصّلة بعد انتقاء صارم، فتشرع في التّكسّر وكأنّها نوتات موسيقة نشاز. كان جوّ لوربْس، عملياً، يُغيّر وجهات النّظر ويفلّ مضاء الدّماغ ويجعل من المشاعر الرّقيقة

أمراً مستحيل التّحصيل. لم يستطع جاك إعادة قراءة بودلير، فاضطرّ إلى الاكتفاء بتصفّح الجرائد التي كان يتسلّمها مُتأخّرة عن تاريخ صدورها. وبالرّغم من أنّه لم يكن يجني منها أيّ فائدة، فإنّه كان ينتظرها بفارغ الصّبر، مُؤمّلاً كلّ عصرٍ وصول ساعي البريد والرّسائل.

في بطالة جاك المستمرّة، أضحى لهذا السّكير مكانٌ يشغله. كان يدفعه إلى الكلام وهو يمسح الصّحون ازدراداً ويكرع أقداح النبيذ، لكنّ مواضيع حديث هذا الرّجل لم تكن تتغيّر إلاّ في النّادر. فهو دائم الشّكوى من طول جولته ومن بؤسه، كما أنّه يشرع في بثّ نمائمه المُجمّعة من دونماري ومن سافين، مُعلناً عن أعراس سيُقيمها أناسٌ لا يعرفهم جاك، ومتحدّثاً عن بطون مملوءة يُراقبها القسّ وقد ضبطها العمدة في الوقت المناسب.

يشرع جاك في الأخير بالتّثاؤب فينصرف ساعي البريد أشدّ سُكراً ممّا أتى، دون تعثّر، مُتخبّطاً في الحفَر والبرك.

عندئذ كان جاك يظلّ ينظر ساعات كاملة، عبر النّافذة، إلى المطر يهطل. كان ينهمر دون انقطاع، راسماً في الفضاء خيوطاً تُفرطها كبّتُه بطريقة مائلة، مُلطّخا المداخل، مفرقعاً على الزّجاج وقصدير الأنابيب، مُذيباً في البعد السّهولَ، مُسيخاً التّلال ومُفسداً الطّرق.

كان هيكل القصر الفارغ يُغنّي وسط السّيول، وكانت تُسمع في بعض الأحيان حتّى أصوات هدير في السّلم الذي أضحت درجاته شلاّلاً، أو ضجيجٌ كأنّه صخبُ خيّالة يمشون راجّين بلاطات الممرّات التي تصبّ عليها المزاريب المبقورة كُتلاً من الماء.

لبس الريف هيئة مشؤومة؛ فتحت سماءٍ رمادية دانية جدّاً، كانت سحب شبيهة بدخان حريق تهرب بسرعة وتحطّ على علوّ بعيدٍ تتدحرج حجارته في أمواج من وحل. وكانت تهبّ أحياناً عواصف صارخة فترجّ الغابة المقابلة، مُحيطة الفوضى الدّخلية للقصر بضجيجِ صراخٍ شبيه بصراخ الأمواج، فتنثني الأشجار ثمّ تعود إلى الانتصاب آنّةً وسط سلاسل اللّبلاب الممدودة على أغصانها شبيهةً بالحبال، فتتشعّث وتفقد أوراقها التي تطير مثل عصافير بضربات كأنّها ضربات أجنحة، فوق القمم.

أصبح من المستحيل أكثر فأكثر وضع الرِّجل في الخارج دون أن تغوص. همد جاك في حمأة ركود مُقرف، مُدركاً أوج سأمه. ولم يكن بإمكان زوجته، وسط هذا الاضطراب الكامل، أن تُقدّم له أيّ عون. لا بل حتّى كانت تُزعجه لأنّ علاقتهما، عندئذ، كانت قد خَلَت من الوضوح فشابتها حالات تمويه كثيرة، ما جعل خرسها يغدو مصدر غيظ له؛ هي كانت تجرحه بطريقتها في النّظر إلى الورقة، عندما تصله رسالة من باريس، دون أن تُبديَ أدنى اهتمام بالأخبار الواردة فيها، وكان يشعر، من هذه الطّريقة في التّصرّف، باحتقارها الكامل له لانعدام مهارته في الجوانب العمليّة من الحياة. ثمّ بدا له في الأخير أنّ التّغيّر المعنويّ الذي طرأ على لويزا شرع ينعكس على صفحة وجهها، فبلغ به الأمر، تحت ضغط هذه الفكرة، أنْ تشوّشت نظرته واقتنع بأنّ قسمات وجه زوجته جعلت تُصبح قسمات امرأة مزارعة. هي كانت قديماً محبوبة بعينيها السّوداوين وشعرها الدّاكن وفمها الميّال للكبر ومُحيّاها المنحوت، المغضّن قليلاً والطّريّ. أمّا الآن فتبدو له شفتاها مُرتخيتين،

وشرع أنفها يتصلّب، وبات لونها ملفوحاً وعيناها باردتين. ومن كثرة ما تأمّل كلاًّ من العمّة نورين وزوجته، ومن فرط بحثه عن تشابهات جسدية وعن تقاربات في الهيئة بينهما، أصبح لديه اقتناع راسخ بأنّهما ستكونان مُتشابهتين في يوم من الأيّام، فرأى في نورين زوجتَه العجوز في المستقبل فأصابه الرّعب من ذلك.

ولمهارته في تعكير صفو نفسه، عاد القهقرى في ذكرياته، مُتذكّراً عائلة زوجته التي سبق له أن لمح الأب منها، والذي توفّي بعد زمن قليل من اقترانه بها، وهو رجل شهم، موظّف جمارك مُتقاعد، عرّفته به ابنة عمّ توفّيت بدورها. كان بقي في عمق هذا الشّيخ المتّزن والعنيد قليلاً، بقايا من دم مُزارعين، بقايا عفنِ سمكةِ رنكةٍ قديمة! ثمّ تواردت على ذهن جاك آلاف التّفاصيل من مثل مُؤاخذات زوجته له، قديماً، عندما كانت تراه مُقبلاً حاملاً تُحفة من التّحف أو كُتباً اشتراها بثمنٍ غالٍ.

استولت عليه فكرة أضحى يؤمن بها إيماناً كاملاً؛ فأرجع همّ التّدبير المنزليّ الذي كان يوليه قديماً أهمية بالغة إلى غريزة جشعٍ أضحت اليوم عنده واضحة للعيان. وبما أنّه وجّه طريقة تفكيره بهذه الشّاكلة وصار يجترّ دون انقطاع، في عزلته، نفس التّأمّلات، انتهى به المطاف إلى أن حرَف مجرى ذهنه فأعطى لأحداث لا قيمة لها أهمّية قُصوى.

أنا نفسي أتغيّر، أسرّ لنفسه ذات صباح، وهو ينظر في مرآة صغيرة. كان جلده يصطبغ بلون مصفرّ وتتغضّن جفونه وتُوسِخ لحيتَه شُعيراتٌ بيضاء. ومن غير أن يكون طويل القامة، كان جسده دائماً مائلاً بعض الميل، وها قد بدأ يتقوّس.

وبالرّغم من أنّه لم يكن البتّة مزهواً بشخصه، حزن من أن رأى نفسه شيخاً وهو بعد في الثّلاثين. شعر بنفسه مُنتهياً هو وزوجته، مُفرَّغاً من نُخاعه وغير مؤهّل للقيام بأيّ مجهود إراديّ، عاجزاً عن بذل أيّ جهد.

وكانت لويزا من جهتها تشعر بالتّعب، مريضة وضعيفة ومرعوبة من هذا المرض الذي لا علاج له والذي يتأكّلها. تعبت من الاستسلام ولم تعد تُفكّر إلاّ في أن تغضب من ألّا ترى أيّ مال يُقبِل من باريس. هي لا تفهم هذا التّعامل الورقيّ الطّويل الذي تفرضه المصارف، ولم تكن تتصوّر وجود هذه الصّعوبات في التّحويلات المالية، مُرجعةً هذا الوضع الميئس الذي يكبّلها إلى النّوايا السّيئة لموران صديق زوجها، فكفّت عن الحديث، لا رغبةَ لها في أن تُعكّر إقامتَهما في القصر بإثارة الخصومات.

لحسن الحظّ أتى حيوان ليندسّ بين وجودَيهما ويُعيد الجمعَ بينهما. هو قطّ العمّة نورين الهزيل والسيّئ التّغذية والدّميم، لكنّه عطوف. كان هذا الحيوان في البداية متوحّشاً، لكنّه سُرعان ما أصبح أليفاً. وقد كان مقدم الباريسيَّين بالنّسبة إليه ضربة حظّ، لأنّه أصبح يأكل ما يفضل عنهما من لحم وحساء، لكنّه لم يشرع في الاستفادة من ذلك إلّا حديثاً، لأنّ العمّة نورين كانت تحتفظ لنفسها بالبقايا التّي تُسلّمها لها لويزا من أجل القطّ.

وعندما انتبه الباريسيّان إلى صنيعها جعلا يُقدّمان هما نفسهما بقايا الطّعام إلى الحيوان فأخذ يتبعهما. وبسبب جوعه وما يتلقّاه من ضربات قرّر أن يستقرّ قريباً منهما في القصر.

أصبح عند مدلّلَيه موضوعاً يُلطّف حديثهما وهمزة وصل تجمع بينهما دون خطر من تحوّل حديثهما إلى خصام، كما أنّ القطّ أبهج بنزهاته الوحدةَ الباردة لغرف القصر.

وكان يبقى نائماً بصحبة لويزا آخذاً، بين الفينة والأخرى، عنقها بين قائمتيه موجّهاً لخدّيها ضربات رأسيّة ودّية قوية.

واصل المطر انهماره. شرع جاك يتجوّل من جديد في القصر فعاد إلى غرفة نوم المركيزة مُحاولاً الهرب من ضجر الحاضر بالعودة إلى الوراء قرناً من الزّمن، لكنّه كان يكفي أن تُراوده هذه الرّغبة حتّى تنتصب أمامه استحالةُ تحقيقها. هذا فضلاً عن أنّ المشاعر التي أعرب عنها أوّلَ مرّة دخل فيها هذه الغرفة لم تتجدّد البتّة. ورائحة الأثير التي أثملته بشدّة، عندما فتح يومذاك باباً، اختفت منذ مدّة. لم يكن بالإمكان استيحاء أيّ فكرة عطرة من هذا الكوخ القذر الذي يتسرّع تحلّله في خضمّ العفن المبكّر لموسم متحوّل. أغلق باب الغرفة موطّناً نفسه على ألا يعود أبداً لزيارتها. ومُتعباً من حال باقي الغرف، قرّر أن يستكشف الأقبية.

استعار مصباحاً من العمّ أنطوان الذي أطلق صرخات، مُصرّحاً أنّ ولوج ما تحت القصر يجلب الشّؤم. رفض بقوّة مرافقة جاك فراح هذا الأخير يُصارع بمفرده باباً شرع قفله يرتجّ مع كلّ هزّة. استطاع في الأخير تحطيمه بضربات من كتفه وبقذفات من رجله، فألفى نفسه وجهاً لوجه أمام سلّم لا تبدو له نهاية تحت قبّة سميكة تمتدّ عليها شبكات من نسيج عنكبوتي شبيه بأقنعة ممزّقة من نسيج موسلين داكن. نزل السلالم اللّولبية الدّافئة والرّطبة فوصل إلى ما يُشبه دهليزاً، في شكل قوس قوطيّ مدعوم بأعمدة حجارتها الضّخمة الرّمادية المصفرّة والمنقّطة بالأسود تشبه تلك الصّخور التي أضحت ملساء من كرّ الزّمان والتي تُنير الكتل القاتمة للبوّابات الكبرى القديمة. لقد تأكّدت عتاقة هذا القصر الذي تعود نشأته إلى مرحلة الفنّ القوطيّ، منذ مدخل هذا الدّهليز.

تنقّل في زنازين طويلة ذات جُدران ضخمة وسقوف مُقوّسة، أُنشِبَت فيها أسلاك شائكة وعُقافات شبيهة بحديد المجنّات. تساءل عن الاستعمالات الممكنة لمثل هذه الأدوات المشوِّهة للفضاء، وهو ينظر منبهراً إلى السُّمك المدهش لهذه الجدران التي تبدو فيها، بين الفينة والفينة، في طرف تجويف يبلغ طوله على الأقلّ مترين، منافذُ في شكل عموديّ.

كانت الدّهاليز مُتشابهة كلّها، تصل بينها أبوابٌ فارغة لا مصاريع لها. لكنّه أسرّ لنفسه أنّ هذه الغرف ليست هي كلّ ما يوجد في هذه الدّهاليز. وبالفعل، فبالنّظر إلى مساحة القصر، كان هذا الصّف من الغرف لا يكاد يملأ أسفل أحد أجنحته. كما أنّ الأرضية كانت تُعلن، عندما نضرب عليها، عن فراغ مُجوّف. وقد كان كلّ شيء مخنوقاً. بحثَ عن الممرّات المُختصِرة للطّريق، لكنّ الجدران كانت ذاتَ حِداد موحّد وكانت الأرض تبدو وكأنّها مكسوّة بالسُّخام. غير أنّ إنارة المصباح كانت أسوأ من أن تسمح له بأن يفحص على نورها بدقّة طريقة التحام حجارة الجدران والتّثبّت من ألوان الصّخور.

وبعامّة، كان جاك يعتقد أنّه قد اكتشف أروقة ضخمة ودهاليز تمتدّ على مدى البصر، وكان كلّ شيء مُغلقاً.

- لكن، بالطّبع يا ابن الأخ، هناك أقبية، وهي معروفة في البلد. أنا أعتقد أنّها تمتدّ إلى حدود سِفيا، القرية التي توجد على مرمى طلقة بُندقية من سافين. ويُقال أيضاً إنّها تمتدّ إلى ما تحت الكنيسة. أوه! هي مسدودة منذ سنوات طويلة، حتّى أنّنا ما عدنا...

- وما رأيك في أن نعمل على فتحها؟ اقترح جاك.

- أوه! ماذا تقول؟ هل فقدت رُشدك، يا رجل؟ وما الفائدة من ذلك؟ أنا أسألك.

- قد تعثر ربّما على كنوز مخبوءة تحت البلاط، واصلَ جاك كلامه مُتظاهراً بالجدّيّة.

- آه، في هذا! آه، في هذا! ... وحكّ الأب أنطوان رأسه. هذا ممكن، على أيّ حال. لقد راودتني الفكرة أحياناً، لكنّ مالك القصر، قبل أيّ كان، سيرفض ذلك. ثمّ، لا أنا ولا أي شخص آخر في البلد، يمكننا أن ننزل بسهولة إلى هذه الأقبية. لا، تسود هناك أجواء تُثير الغضب وخانقة، واصل حديثه، بعد لحظة صمت، كما لو ليُصبح أكثر اقتناعاً بما يقول.

عاد جاك مرّات متعدّدة لهذه القضيّة آملاً في إقناع الشّيخ بفتح ثغرات، فبغضّ النّظر عن الكنوز التي لم يكن يؤمن بها أبداً، كان يأمل في أن يستخرج آثاراً مُثيرة للفضول. كما أنّ ذلك سيُشكّل له اهتماماً، مشغلةً ما، في حياته الفارغة. لكن العمّ لم يُوافق رغم أنّ مسألة الكنوز كانت قد أغرته، فانتصر خوفُه على جشعه، واكتفى بتحريك رأسه مُجيباً: ربّما... ربّما... رافضاً حتّى أن يفحص مدخل الدّهاليز.

لكنّ العمّ أنطوان مرض فبقي طريح الفراش بضعةَ أيّام، وطفق يشكو من دوار يُصيب دماغه، فنصحته لويزا بزيارة طبيب. غير أنّ العمّ أنطوان وزوجته نورين رفعا أذرعهما إلى السّماء: لا مال لي آكل به مُخدّرات الأطبّاء، صاح، واكتفى بشرب ترياق بلديّ ومنقوعِ نعناع أخضر.

وقد كان مرضُه فرصة حقيقية لجاك الذي أصبح بإمكانه أن يقضي نهاره خارج القصر، في عيادة الشّيخ، فكان يجلس ساعات مدخّناً سجائره السّائغة بالقرب من الموقد.

ثمّ إنّه كان يشعر في ذلك الكوخ أنّه مُرتاح أكثر ممّا في القصر. كان يشعر حقّاً أنّه في بيته، وأنّه محميّ بهذه الجدران التي تُحيط به، ومستورٌ بها أكثر ممّا في تلك الغرفة الفسيحة بلوربْس، والتي كانت تبدو له جدرانها كأنّها تنفصل حوله لتُجمّده من البرد.

كما أنّ الغرفة الوحيدة في ذلك الكوخ كانت تُسلّيه بقدورها النّحاسية وأثافيها العتيقة التي تتمدّد عليها حزَم العيدان الجافّة الشّبيهة بأفاع حمراء، وبمخدَعي نومها حيث يوجد فراشان مُنفصلان

بمائدة ضخمة مصنوعة من خشب الجوز الملمّع، وبساعتها الرنّانة ذات الورود وصحونها ذات الخربشات الوردية والخضراء، ومقاليها السّوداء ذات الأذرع المزيّنة بحلقة والطّويلة بقَدْرِ ذراع.

كانت هذه الأواني الشّقية كلّها قد تناغمت فيما بينها بمرور الزّمن الذي لطّف من قسوة الألوان فآلف بين اللّون الدّاكن السّاخن لخشب الجوز والأسود النّاعم للسّخام الذي يلفّ الغلاّيات والأصفر البارد والنّاصع للدّسُوت. تسلّى جاك بتفحّص هذه الأواني وسبرِ النّقوش المدهشة المثبتة فوق ظهر المدخنة على قُضبان خشبية مُسطّحة مصبوغة باللّون الأحمر.

نقشان منهما، بخاصّة، واحد صغير وآخر كبير، جعلاه يبتسم. كان النّقش الصّغير يصوّر مشهد «الاستيلاء على قصر التويلري الملكيّ، يوم 29 يوليو سنة 1830»[35]، ويتضمّن هذه الحكاية المؤثّرة المطبوعة على الهامش، في الأسفل:

«طالِبٌ من مدرسة «البوليتكنيك» تقدّم للضّابط الذي يحرس مدخل قصر التويلري وطلب منه أن يفسح له المجال ليدخل. لكنّ الضّابط ردّ بطلقة من مسدّسه مُخطئاً الطّالب الذي جعل يضغط بسنان سيفه على صدر الضّابط، قائلاً: «حياتك بين يديّ، لكنّني لا أريد سفك دمك، فأنت حرّ». فقام الضّابط، وقد جرفه الاعتراف بالجميل، برفع وسام الصليب الذي يحمله وقال وهو يضعه على بطن البطل: «أيّها الرّجل الشّهم، أنت تستحقّه لشجاعتك واعتدالك». غير أنّ البطل الشّابّ الشّهم رفضه، لأنّه لم يكن يشعر أنّه جدير به بعدُ.»

كان فنّان إبينال[36] واضع النقش قد اندهش أمام هذا الموضوع الفروسيّ، فنقش الضّابط بحجم ضخم، وعلى رأسه طاقيّة عسكرية شبيهة بمبولة أطفال مقلوبة، يرتدي لباساً ذا ذيل شبيه بذيل سمك الغادس وسروالاً أبيض، وخلفه جنود أصغر في حجمهم يلبسون مثل زيّه ويُتابعون فاغرين أفواهم، وبعيون دامعة، السّلوكَ الطّيب لطالب البوليتكنيك، الطّويل القامة، بعينه الحولاء وهيئته الغبيّة، واقفاً أمام الضّابط الخشبيّ. والجماهير، خلف البطل، يضع كلّ منهم على رأسه قرنين غريبين ويلبس رداءً أزرق، وكان يُحمّسها شخصان، أحدهما بورجوازيّ، على رأسه قلنسوة مزغّبة، والثّاني من عامّة الشّعب، يعتمر طاقيّة في شكل فطيرة، والجماهير تتزاحم وتُحرّك راية ثلاثية الألوان فوق أشجار مرسومة بلا إتقان وكأنّها عصيدة جُلبان، مرتسمة على سماء زرقاء داكنة، مُزيّنة بسحب رمادية.

وكانت المنقوشة الثّانية، الملوّنة بدورها، ذاتَ شكل غير عسكريّ، لكنّها مفيدة. كانت نُقشت حديثاً، وتحمل عنوان: «الطّبيب موجود في المنزل». هذه المطبوعة التي يحوي إطارُها وصفاتٍ بمراهم ونقاعات، كانت مُجزّأة إلى سلسلة من صورٍ صغيرة تروي حوادث وآلامَ أشخاصٍ يرتدون سراويل تتدلّى إلى ما فوق أرجلهم وملابس زرقاء وبنّية، وربطات عنق ذات عقد كبيرة، تتدلّى على أصداغهم وجباههم خصلات شعر كانت تُولَى عنايةً في زمن لوي فيليب. كانوا في وضع مُثير للشّفقة، مكشّرين جميعهم، بعضهم فوق بعض، مُقدّمين مشهدَ أناس يُعانون من شوكات في حلقومهم ومن شظايا في أكفّهم وأرقات في آذانهم وأجسام غريبة في عيونهم وثفن في بنانات أرجلهم.

- هاتان لوحتان فنّيتان قدّمهما لنا هديةً أبو باريزو بمناسبة زواجنا، قال الشّيخ لجاك الذي كان يعتلي كرسيّاً كي يرى عن قربٍ هذين العملين الفنّيين.

مرّت الأيّام بطيئة في تدفئة السّاقين والثّرثرة مع العمّ أنطوان. كان جاك يسأله عن القصر، لكنّه كان يرتبك في شروحه، لأنّه، على أيّ حال، لم يكن يعرف شيئاً ذا بالٍ عنه.

كان القصر قديماً ملْكاً لأناس نبلاء. فالنّاس في هذا البلد يتذكّرون عائلة من سان فال كانت تملك أيضاً قصراً في الجوار، في سان لو. وقد دُفن أفراد هذه الأسرة خلف الكنيسة، لكنّ قبورهم أُهملت، ولم يعد أحفاد هذه السّلالة، إن سلّمنا بوجودهم، للظّهور في البلد. ومنذ ثمانين عاماً فُصِل القصر عن غابته وعن أراضيه التي اشتراها المزارعون، ثمّ بيع كما هو لأشخاص من باريس لم يعملوا على ترميمه قطّ، مُصرّين على بيعه كما هو. وبسبب حالته المتدهورة وندرة الماء، لم يعد أحدٌ يسعى لامتلاكه. وحتّى مبلغ العشرين ألف فرنك، الزّهيدُ، الذي حُدّد ثمناً لانطلاق المزايدات، لم يُقدّمه أحد.

أو أن يتحدّث الأب أنطوان عن حرب 1870 [37]، قاصّاً العلاقات الودّية التي كانت تجمع القرويين بالبروسيّين - أجل يا ابن الأخ، كانوا أناساً طيّبين أولئك الرّجال الذين آويتُهم. لا يرفعون أصواتهم بعضهم على بعض، وكانوا ذوي شهامة! وعندما اضطرّوا للمغادرة متوجّهين إلى باريس، بكوا قائلين: بابا أنطوان، إنّنا لَهالكون، هالكون[38]! كما أنّهم لا مثيل لهم في مداراة الدّواب!

- أنتم إذن لم تُعانوا من الاجتياح؟ سأل جاك.

- لا... لا... البروسيون كانوا يُؤدّون ثمن كلّ ما يأخذونه، والدّليل على ذلك أنّ باريزو تحسّنت حاله المادّية في ذلك الزّمن. وقد كان معهم عقيد يُكنّون له كلّ الحبّ. كان يجمع الفيلق صباحاً، على الطّريق، ويُخاطبنا قائلاً: هل بينكم من يشكو شيئاً من جنودي؟ فكنّا نُجيب: أبداً، ثمّ نصيح: عاش البروسيّون!

كان جاك يتركه يتحدّث، يستمع إليه، في بعض الأيّام، وينظر، في أخرى، عبر النّافذة، إلى حيوانات تلهو تحت المطر، مُبلّلةً. وبالفعل، فقد كانت للعمّ أنطوان مجموعة من الإوزّات تقطع الحوش كلّ يوم بهيئة مهيبة وبلهاء. كانت الإوزّات تتوقّف، يتقدّمها ذكَرُها، أمام المنزل، مُقطقطة، مع بسمة غبيّة مُعبّرة عن الرّضا، فتشرب من برميل صغير غائص في الأرض، وترفع رؤوسها معاً، كما لو لتجعل الماء ينزل، ثمّ تنتصب على قوائمها، فجأة، ودون سبب، وتضرب بأجنحتها مُنطلقةً قدماً نحو الإسطبل، مُطلقةً صرخات مُرعبة.

وكانت العمّة نورين تعود أحياناً إلى المنزل خلال النّهار. وعندما تكون ابنة أخيها، التي فرضت نفسها عليها قليلاً، غائبة، كانت تنطلق في مُحادثات فاحشة مع العمّ أنطوان، تجعل الماء الصّافي لعينيها يغلي. وقد علم جاك، مُندهشاً، أنّ العمّ كان يتصرّف كالبطل، ويُؤدّي دوره الفروسيّ كلّ

مساء، فيبقى هناك مطروحاً أرضاً، في حين تشرع العجوز بالقول، بهيئة طائشة، وشاعرة بالنّدم: «ألا ما أجمل هذا؟ أليس كذلك يا رجلي؟»

شعر جاك بغرائزه الشّهوانية تذوي، بعد أن كانت تستيقظ من حين لآخر. بل إنّ تقزّزاً فظيعاً استولى عليه من هذه الاهتزازات المثيرة للسّخرية التي ما عاد يتصوّرها لنفسه دون أن تنتصب أمامه على الفور هذه الصّورة الخسّيسة لهذين العجوزين وهما يصطخبان تحت لحافهما القطنيّ، ثمّ يناماً شبعَين، في قذارتهما.

عندما عاد الشّيخ للعمل في الحقول بعد أن تعافى، بدأ جاك يتعب من الكوخ ومن العمّ أنطوان وحالات إقدامه وإوزّاته. فبدأ جولاته الجديدة في القصر، مُدركاً قدراً من البلاهة، حتّى أنّه جعل، فقط ليشغل نفسه بشيء ما، يتأكّد من أنّ حزمة مفاتيح مُعلّقة في الخزانة، مُجرّباً إيّاها في كلّ أقفال الخزانات والأبواب. وعندما قضى وطره من هذه المهمّة التي لا جدوى منها، صبّ اهتمامه على القطّ، لاعباً معه لعبة الاستغماية في الدهاليز، لكنّ هذا الحيوان تعب بعد أن كان تسلّى في البداية بهذه النّزهات في الدهاليز وبرصده لجاك. غير أنّ القطّ كان يبدو مريضاً، فنام على أذنه اليمنى، على جانبه، فبدا مثل قبّعة شرطيّ، مُتوسّلاً بإطلاق صرخات. انتهى به المطاف إلى أن لم يعد يعدو ويقفز، تُؤلمه قوائمه، حتّى بدا وكأنّ قائمتيه الخلفيتين مُصابتان بداء المفاصل.

كانت لويزا تصطحبه، مُمسّدة فروته وهي تُداعبه، لأنّها تعلّقت به بعد أن صار يمشي في أثرهما، هي وزوجها، كمثل كلب صغير.

وكانت تتحدّث عن أخذه معها إلى باريس لتُخلّصه من رطوبة هذا الريف، وتغتاظ، عن حسن نيّة، من جاك الذي كان يُصرّح أنّ دمامة هذا الحيوان لا تُطاق.

والحال أنّ هذا القطّ الهزيل كمسمار، كان له رأس طويل في شكل رأس سمك زُنجور، وفوق ذلك كانت شفتاه سوداوين، ولونُ فروته رماديّاً مُموّجاً بخطوط داكنة، فكانت هذه الفروة تبدو حقيرة، بشعرها الباهت والجافّ. وكان ذيله المنتوف يُشبه خيطاً عالقةً بطرفه طُرّةٌ. أمّا جلد بطنه، الذي انفصل عن لحمه من جرّاء سقطة ما على الأرجح، فكان مُعلّقاً كمثل غَبَبٍ[39]، يكنس شعرُه الشّاحبُ الأرضَ.

ولولا عيناه الغنِجتان اللّتان كانت تسبح في مائهما الأخضر حصياتٌ ذهبية، لكان، بفروته الواسعة الشّقية، حفيداً لهذا النّوع الشّائن اللّقيط من القطط، الذي لا ينتمي إلى جنس معيّن منها.

الملل قاتل هنا، خاطب جاك نفسه، عندما رفض القطّ اللّعب. يا له من فضاء مؤلم! لا يوجد هنا حتّى أريكة نستريح فيها! وكما لو كنّا نسبح في شاطئ بحر، من المستحيل أن نُدخّن لفافة غير مبلّلة، وليس لي حتّى الرّغبة في القراءة!

حاول سدىً أن ينام منذ السّاعة التّاسعة، لكنّ المساء كان بلا نهاية. اشترى لعبة ورق من جوتينيي، وأجهد نفسه ليلعب مع زوجته لعبة البيزيك[40]، لكن سرعان ما ضجرا منها، بعد جولتين من اللّعب.

غير أنّه أحسّ ذات مساء أنّه في حال أحسن، وبأنّه قادر على القيام بشيء. كانت الرّيح تهب بقوّة حتّى ليهتزّ القصر منها، فكانت أروقته تُدوّي بصوت كصوت القنابل، ويسري فيها صفير شبيه بأصوات النّايات. كان الظّلام يكنف كلّ شيء، فملأ جاك المدفأة بجوزات الصّنوبر وأعواد العساليج، وراح يشرب كأساً من الرّوم ويفتل سجائر ويجفّفها، مشمولاً ببهجة ألسنة اللّهب المتأجّجة في حزمات الخزامى الوردية والزّرقاء وفي الزّنابق السّوداء المتفرّقة على الصّفيحة الحديدية في عمق المدفأة.

كانت لويزا قد تمدّدت في فراشها وهي تُمسّد فروة القطّ المنبطح على صدرها. وكان جاك، الجالس، والمُسنِد مرفقَه إلى المائدة، يغفو، عيناه ضائعتان ودماغه مُغمّم. انتفض وقرّب منه الشّمعتين الطّويلتين اللّتين كانتا تُنيران، مع النّار، الغرفة، وشرع يتصفّح بعض المجلاّت التي كان صديقه موران قد أرسلها له من باريس، صباح هذا اليوم.

اهتمّ بمقال، فقاده إلى أحلام يقظة طويلة. يا له من جمال يتمتّع به العِلْمُ! أسرّ لنفسه. فها هو البروفسور سيلمي من بولونيا يكتشف في تحلّل الجثث مادّة قلوية، جيفيناً[41]، يبدو في شكل زيت، لا لون له، ويفوح برائحة ثقيلة لكنّها حادّة شبيهة برائحة الزعرور والمسك ونبات السّرنجة وزهر شجرة البرتقال أو الورد.

هذه هي الرّوائح الوحيدة التي استطاعوا الحصول عليها حتّى ذلك الحين في هذه العصارة المستخلصة من أجزاء جسد متحلّل، لكنّ روائح أخرى ستُكتشف لا شكّ. وفي انتظار ذلك، وللاستجابة للطّلبات الملحّة لقرن تطبيقيّ عمليّ يَدفِن، في إيفري، الأشخاصَ الفقراء بواسطة الآلة ويستعمل كلّ شيء، من مياه مرسّبة ومن البقايا القابعة في قعور البراميل وأمعاء الجيف والعظام القديمة، في انتظار ذلك يمكن تحويل المقابر إلى معامل تُعِدّ للأسر الميسورة، تحت الطّلب، أجزاء مُركّزة من الجدود وجواهرَ أطفالٍ وباقاتٍ من الآباء.

سيدخل ذلك في باب السِّلَع الرّقيقة، كما تُسمّى في التّجارة. لكن سيكون ضرورياً، من أجل الطّبقة الكادحة التي لن يكون بالإمكان إهمالها، أن تُضاف إلى هذه المُنتجات الصّيدلية الباذخة مُختبراتٌ كبيرة لإعداد العطور بكميّات هائلة وتصنيعها. سيكون بالإمكان، حقّاً، تقطير هذه العطور من بقايا القبور الجماعية التي لن تُثير احتجاج أحد، وسيكون ذلك من قبيل فنٍّ للعطور المستخلصة من قاعدة جديدة، هي في متناول الجميع، وتدخل في نوع السّلع القليلة القيمة، عطورٍ للجمهور الواسع، بثمن بخس، ما دامت مادّتها الخامّ وفيرة ولا تُساوي، لنقل، إلاّ مُقابل اليد العاملة لنابشي القبور وعلماء الكيمياء.

آه! أنا أعرف جيّداً نساءً شعبيات سيكنّ سعيدات بشراء كؤوس كاملة من المَراهم، بثمن قليل، أو قطَعاً من الصّابون مستحضَرة من خلاصة بروليتاريّة!

ثمّ ألن يكون من قبيل صيانة الذّكرى والمحافظة على الطّراوة الأبدية للذّاكرة القيامُ بهذا البعث السّامي للأموات! في الوقت الحالي، عندما يموت أحد الشّخصين المتحابّين، فإنّ الآخر لن يكون بإمكانه أكثر من أن يحتفظ بصورته، وأن يزور قبره خلال عيد جميع القدّيسين. وبفضل اكتشاف «الجيفين»، أضحى مسموحاً بالاحتفاظ بالمرأة التي نُحبّها، في البيت، وحتّى في الجيب، في حالة مُتبخّرة وروحية، وبتحويل المحبوبة، ووضعها في قارورة ملحٍ، وبتكثيفها في حال عُصارة، وبإدراجها مضغوطة، كمثل مسحوق، في كيس صغير مُطرّزةٍ حاشيته بشاهدة قبرية مؤلمة، فيتمّ شمّها، خلال أيّام الضّيق، واستنشاقها أيّام السّعادة، بعد وضعها على منديل.

هذا دون احتساب أنّه سيكون بإمكاننا أخيراً، من وجهة نظر مُحبّي الدُّعابة الدّنيوية، أن نُعفى، عندما يحين الأوان، من سماع «النداء الموجّه إلى الأمّ»، ما دام بإمكان هذه الأخيرة أن تكون حاضرة هنا مستريحةً على ثدي ابنتها، مُتقنّعة في قطعة نسيج أو مخلوطة بمسحوق أبيض، بعد أن كانت ابنتها يُغمى عليها وهي تُطالب بعونها لأنّها تعلم علم اليقين أنّه ليس بإمكانها المجيء.

ثمّ إنّ الجيفين الذي لا يزال يُعَدّ سمّاً زعافاً، سيكون بإمكانه في المستقبل، بفضل التّطوّر، أن يُتناول دون أدنى مُجازفة؛ فلماذا لا نُعطّر به إذن بعض الأكلات؟ لماذا لا نستعمل هذا الزّيت المعطّر كما نستعمل مسحوق القرفة واللّوز والونيليّة والقرنفل، حتّى نجعل سائغةً عجائنَ بعض أصناف الحلويات؟ هذا فضلاً عن أنّه سيُفتح بفضل صناعة العطور هذه دربٌ جديد اقتصاديّ وودّي في الأوان نفسه أمام الحلوانيّين وفنّ صناعة الحلوى.

ويمكن، في الأخير، لهذه العلاقات العائلية المهيبة التي أصابتها أزمنةُ قلّة الاحترام البائسة التي نعيشها بالتّفسّخ والانحلال، أن تعود بكلّ تأكيد إلى وثاقتها وترابطها بفضل الجيفين. سيحصل بفضله ما يُشبه التّقارب العاطفيّ المُؤثّر، والتّواشج الحنون الدّائم. فهو سيُهيّئ باستمرارٍ الوقت المناسب للتّذكير بحياةِ مَن فُقدوا وتقديمها مثالاً للأطفال الذين سيكون بإمكانهم أن يحتفظوا بالذّكرى الشديدة الوضوح في أذهانهم، بفضل طريقتهم الشّرهة في الأكل.

وهكذا تجلس الأسرة، في «يوم الموتى»، مساءً، في غرفة الطّعام الصّغيرة المؤثّثة بمائدة من خشب شاحب مُزيّنٍ بقضبان مُسطّحة سوداء، تحت شعاع المصباح المتدلّي فوق المائدة، في أباجورة. الأمّ، امرأة ذات شهامة، والأب أمين صندوق في شركة تجارية أو في مصرف، والطّفل الصّغير وقد تحرّر لتوّه من صراخه الدّيكيّ ومن الالتهابات. يَرعَوِي الطّفل ولا يعود إلى الضّرب بملعقته في حسائه، بسبب التهديد بحرمانه من طبق التحلية، فيُقبل على أكل اللّحم مصحوباً ببعض الخبز.

ينظر الطّفل، هادئاً، إلى أبويه السّاهمين والصّامتين. تدخل الخادمة آتية بقشدة الجيفين. كانت الأمّ، هذا الصّباح، قد استخلصت، بجلال، من الخزانة المصنوعة من خشب الأكاجو، والمزيّنة بقفل في شكل نفل، القارورةَ المُغلقة بإحكام والتي تحوي السّائل الثّمين المستخلص من الأحشاء المتفسّخة للجدّ. وقد قامت هي بنفسها بواسطة قارورة عدّ القطرات بتقطير بعض الدّمعات من هذا العصير الذي بات يُعطّر القشدة.

تلمع عينا الطّفل، لكنّ عليه، في انتظار أن تُقدّم له القشدة، أن يستمع إلى مديح في حقّ الشّيخ الذي ربّما يكون ورّثه، مع بعض القسمات الفيزيولوجية، شذى الورد لما بعد الموت هذا الذي سيقتات به.

آه! لقد كان بابا جول رجلاً رصيناً، رجلاً صريحاً وجرّيئاً وحكيماً! أتى إلى باريس مُنتعلاً قبقاباً، وقد كان يُوفّر من ماله على الدّوام رغم أنّه لم يكن يربح حتّى مائة فرنك كاملة في الشّهر. هو لم يكن من صنف الرّجال الذين يُسلّفون مالاً دون فوائد ودون عربون! هو لم يكن إلى تلك الدّرجة من السّذاجة حتّى يقوم بذلك؛ فالأعمال، هي قبل كلّ شيء، أخذٌ وعطاء. ثمّ يا له من احترام كان يُكنّه للأشخاص الميسورين! كما أنّه مات مُبجّلاً من أبنائه الذين ترك لهم أموالاً مُوظّفة، وقيماً ثابتة، كما يجدر بأبي عائلة أن يفعل.

- أتتذكّر جدّك يا عزيزي؟

- لا، لا أتذكّر جدّي! صاح الطّفل مُلطّخ الوجنتين والأنف بقشدة الأسلاف.

- وجدّتك، هي أيضاً، هل تتذكّرها يا صغيري؟

فكّر الطّفل. فيوم إحياء ذكرى وفاة هذه المرأة ذات الشّهامة، تُعدّ حلوى أرزّ تُعطّر بالخلاصة الجسديّة للفقيدة، التي تفوح، وهي ظاهرة متفرّدة، برائحة التّبغ الذي كانت تُدخّنه في حياتها، وينتشر منها عطر زهر البرتقال الذي اكتُسب منذ ماتت.

- لا، لا. والجدّة أيضاً، صاح الطّفل.

- وأيّهما تُحبّ أكثر، قل، الجدّة أم الجدّ؟

وكمثل كلّ الأطفال الذين يُفضّلون ما لا يملكونه على ما هو في متناولهم، فكّر الطّفل في الحلوى البعيدة واعترف أنّه يُحبّ أكثر الجدّة؛ غير أنّه مدّ صحنه مع ذلك في اتّجاه صحن الجدّ.

ومخافة الإصابة بعسر هضم الحبّ الأبويّ، عمدت الأمّ المتنبّئة إلى نزع القشدة.

يا له من مشهد لطيف ومؤثّر لهذه العائلة! قال جاك وهو يفرك عينيه. ثمّ تساءل إن لم يكن قد نام ورأى حلماً، وهو على هذه الحالة الذّهنية الرّاهنة، الأنفُ على المجلّة التي تتحدّث سلسلة مقالاتها العلمية عن اكتشاف الجيفين.

10

كان جاك في اليوم التّالي يصعد متلمّساً وسط العتمة، مُتتبّعاً كمثلِ برغيِّ التواءَ سلّم. فجأة لمح في شعاع ضوء مُزرقّ رجلاً واقفاً ملفوفاً في دثار فضفاض، لونه أخضر كمثل جُبن بارم الجافّ، يتضوّع منه عطر اليانسون، تقوم بذورٌ وردية مقام الأزرار فيه، شديد الضّيق على الخاصرة، مُرفرف في الخلف، مُنتفخ، مزخرف بخيط مذهّب معدنيّ مصبوغ بالزّنجفر.

وفوق هذا القِمع المشقوق من الأمام، تاركاً ثديين صغيرين يبرزان عاريين، حلمتُهما محبوسة في كشتبان، كان ينبثق عنقٌ بمنَافخَ، في شكل أنبوب شبيه بذراع آلة الأكورديون، ثمّ رأس محشور في سطل صحّي من صفيحة زرقاء، مزيّن بريشٍ كالذي يكون على منصّة النّعش، مشدودٍ تحت الذّقن بعُرْوتِه وبرباط آخر.

رويداً رويداً، ولمّا فرَّغَت عينا جاك الظّلام الذي كانتا مغمورتين به، ميّز وجه هذا الرّجل. فتحتَ الجبهة المُحاطة بخطٍّورديّ ناتج عن ضغط السّطل، كانت ريشتان من الزغب تنتصبان فوق العينين المكبّرتين بمسحوق نبتة ستّ الحسن، مفصولتين بأنف في شكل دمّل، مملوء وناضج، مربوط بواسطة قناة صغيرة مُشعرة إلى ما فوق الفم المسنود بذقن مُنقّط بفاصلة من شعر أشقر، كمثل ذقنِ عاملٍ لحمل الأثاث.

ثمّ قلبَ اضطرابُ هذا الوجه المرعِب والشّاحب بفعل تشنّج، القمّةَ الملتهبة للأنف ورفع الجفنين وغيّر شكل الشّفتين وسحب الفكّ السّفليّ وكشف عن تُفّاحة آدم مُحبّبةٍ بثقوب صغيرة، فبدت وكأنّها جلدُ دجاجة نُزع منه ريشه.

سار جاك في أثر هذا الرّجل وسط قاعة واسعة، جدرانها من الآجرّ، مُنارة بالقرب من سقفها بنوافذ نصف مستديرة. وفي الأعلى، بالقرب من الأفاريز، كانت تسري أنابيب من قماش أخضر، شبيهة بمجارٍ سمعية أو بأنابيب ظاهرة لنظام ريّ ضخم. لم يكن في القاعة لا صوان من خشب فاخر ولا قناة يُمكن لهذه الأنابيب أن تتّصل بها. لا شيء. كانت هذه الآلات، التي لا اتّجاه مُحدّداً لها، تعبر الغرفة لا غير. وفوقها كانت معلّقةً إلى عُقافات في شكل رقم 8 رؤوس عجول مسلوقة شديدة البياض، يخرج من كلّ منها لسان مسحوب إلى جهة اليمين. وقد ثُبّتت على مسامير طويلة قبّعاتٌ عسكرية لونها فستقيّ، وقمّتها وردية، وقلنسوات جنود لا واقيات شمس لها، في شكل آنيةِ سمنٍ.

وفي زاوية، على مقلاةٍ من الفولاذ، كانت قِدرٌ من الفخّار تغنّي ويهتزّ غطاؤُها فيقذف بفقّاعات صغيرة.

أدخل الرّجل يده في جيب دثاره وأخرج قبضة من حبّات البلّور التي أحدثت بفعل اندعاكها في كفّه خشخشةً، فقال بصوت جهوريّ وبارد في الأوان نفسه، وهو يُحدّق بثبات في الحدقتين المتمدّدتين لجاك:

- أنا أبْذر طمث الأرض في هذه الآنية التي يغلي فيها، مع أطراف أرنب هجينة، لحمُ الخضار، ولحمُ طرائد الجلبان والفول.

- تماماً، قال جاك دون أن يطرف. فقد قرأت الكتب القديمة للقبلانية[42] ولست أجهل البتّة أنّ هذه العبارة، طمث الأرض، تعني ببساطةٍ الملح ذا الحبّات الضّخمة...

عندئذ أنَّ الرّجل فسقطت الآنية التي كانت على رأسه. وعلى جمجمة في شكل كمّثرى ملأت السّطل حتّى أدركت عمقه، ظهرت كتلة كثيفة من شعر أحمر شبيه بالشّعر الذي يُزيّن خوَذ نافخي الأبواق في بعض فيالق الفروسية. رفع سبّابته في الهواء كمثل بوذا، فعدت قرقرات قوية في التّعرّجات الصّوفية الخضراء الممتدّة تحت السّقف، وشرعت الألسنة المهتاجة تتجوّل في الوجوه الشّاحبة للعجول، مُقلّدة صرخة آلةِ نَجْرٍ شغّالةٍ، وانطلقت أصوات طبول من قبّعات الجنود الشّبيهة بآنية سمن، ثمّ ساد صمت مطبق.

بُهِتَ جاك. آه! كان الأمر واضحاً. إنّه بيانٌ غير معروف، لكنّ كلماته قطعيّة، يأمره بأن يضع، مُقابل وصلِ استلام، ساعته بين يدي هذا الرّجل، وبخلاف ذلك يكون تحت طائلة تعذيب طويل الأمد! هو يعرف ذلك، غير أنّ ساعته بقيت في لوربْس، مُعلّقة على الجدار، في عمق مخدع نومه! فتح فاه ليعتذر، وليطلب أجلاً، وكي يلتمس العفو، غير أنّه كان مرعوباً، فلم يُسعفه صوته، لأنّ العينين المخيفتين لهذا الرّجل كانتا تشتعلان كمثل مصابيح التراماواي، وتلتهبان مثل كراتِ عقاقير، وتنيران في الغرفة، أخيراً، وكأنّهما فانوسا سفينة عابرة للمحيطات.

ما عاد له من هدف آخر غير الهروب، فانطلق في السّلّم وألفى نفسه فجأة في بئر قمّتها مُغلقة، لكنّها مُنارة على طول أنبوبها بمصاريع من خشب مُنثنية، مُرتّبة في شكل عوارض لنوافذ ضخمة.

كان يسود الصّمت والوضوح وينتشر نور شبيه بنور الكسوف أو بشعاع فجريّ، في شهر أكتوبر، في يوم ماطر.

نظر. كانت توجد في الأعلى، في صقالات ضخمة عوارضُ مُتشابكة ومُتحابكة بعضها ببعض، محبوسة في قفص لا مخرج منه وفي قبّة أجراس ضخمة. وكانت سلالم تميل ذات اليمين وذات الشّمال في هذه الشّبكة المشكّلة من الألواح الخشبية وتمتدّ على طول تهيئة السّقف التي هي في شكل هيكل للبناء، وتنزل فجأة، وتتكسّر، وتفقد من عوارضها، مُتوقّفة على سطيحة الرّافدات، ثمّ تصعد، مُعلّقة في الفراغ، دون أن يكون لها ما يسندها.

ودون أن يعرف جاك كيف حدث ذلك، ألفى نفسه مُستقرّاً في ما يُشبه مُؤخّر سفينة، بالقرب من مصارعِ نوافذَ عملاقةٍ، فَهِمَ أنّها عاكساتُ الصَّوتِ.

أنا في برج الأجراس، أسرّ لنفسه، ثمّ غطس في الأسفل، في حوض من السّواد الرّائع، تسبح فيه، كمثلِ عجائن إيطالية، نجومٌ وأهلّة ومعيّنات وقلوب مشعّة، في ما يُشبه سماء تحت-أرضية، مُزيّنة بنجوم قابلة للأكل، فارتعب من ذلك. شرع ينظر عبر عوارض عاكسات الصّوت، فلمح على بعد مسافات غير قابلة للقيّاس، ساحة سان سولبيس[43]، خالية، تظهر فيها علبة ماسح أحذية بالقرب من الحنفية. لم يكن يوجد فيها أحد سوى رقيب حراسة، بلا قبّعة، أصلع، يضع على قنّة رأسه، كمثل كُرّات، شُرّابةً خيوطُها بيضاء. فكّر جاك في أن يطلب منه العون وأن يسأله الحماية. تدحرج على طول سلّم كي يلتحق به، فولج رواقاً محروثاً، مغروساً باليقطين.

كان اليقطين كلّه ينبض وينتفض بحماسة ساعياً إلى الانخلاع من السّيقان التي تربطه إلى الأرض. تصوّر جاك على الفور أنّه يرى حقلاً من الأوراك المنغولية، من خُضار مؤخّرات منتمية للجنس الأصفر.

فحص حزّات اليقطين العميقة والمقوّسة بشكل جيّد والضّاربة عميقاً في فضاء هذا الجلد السّمين ذي اللّون البرتقاليّ الفاقع. بعد ذلك استولى عليه فضول قويّ، فمدّ يده، لكنّ اليقطين، وكأنّه قد جُزّئ سلفاً بيد فاكهانيّ متبصّر، سقط مُجزّأ إلى قطع، مُبدياً أحشاءه ذات البذور البيضاء المتناضدة في تجمّعاتٍ وسط اللّون الأصفر لبطونه الفارغة.

هل علينا أن نكون بُلهاء! فجأة، ومن دون سبب معقول، أخذه الذّهول وهو يُفكّر في أنّ قِطع السّماء هذه تعدو تحت القبّة الحجرية لهذه الغرفة، فشعر بشفقة عظيمة على هذه المزق السّماوية التي سُرقت دون شكّ واعتُقلت ربّما منذ قرون في هذه القاعة. اقترب من نافذة يروم فتحها، لكنّه سمع ضجيج وقع خطوات وأصوات. هم يبحثون عنّي، قال مُخاطباً نفسه. كان الضّجيج يقترب، وبوضوح كامل سمع صوت حديد البنادق وهي تُعبّأ وأصواتاً قويّة لعصيّ تطأ الأرض. أراد الهروب، لكنّ الباب اصطفق منغلقاً من هبّة ريح قوية. أوه! هي هنا، خلف الباب، تماماً كما خمّن هو ذلك دون أن يكون رآها من قبلُ، هذه العفاريت التي تسعى ليلاً إلى الفسوق بفتيات آخذات في الاكتمال، الغيلان الباحثة عمّن بلغن سنّ الزّواج، الحضون[44] الشّاحبات والغريبات، ذات المَنيّ البارد! عرف على الفور في أيّ سرايا مقيتة هو ضائع، لأنّ جملةً قرأها قديماً في كتاب محادثات في السِّحر[45] للرقّاء ديل ريو، عادت إلى ذهنه بعناد ووضوح شديدين تتحدّث عن سفاحات شياطين وسحَرة!. أجل، إنّ حقل اليقطين هذا هو دون أدنى شكّ تجمّعٌ للمشعوذين المقرفصين والغائصين في الأرض، وهم يُحاولون في تلك اللحظة إخراج رؤوسهم وأجسادهم من تحت الأرض! تقهقرَ. لا، فهو لا يُريد بأيّ ثمن كان أن يحضر هذا الدّفق المقزّز لهذه المنتجات الفلاحية المتحرّكة ولهذا التّحوّل! قام بخطوة أخرى إلى الوراء، شاعراً أنّ الأرض تميد تحته وألفى نفسه، مُنبهراً، في البرج، أسفل الجرس.

كان هذا الجرس شغّالاً، ورغم أنّ ذراعه لم تكن تضرب المعدن، كانت أصوات غريبة تُسمع وقد عكستها أصداء البرج.

رفع أنفه في الهواء فاغراً فاه.

كانت امرأة تعتمر قبّعة في شكل عربة وترتدي قميصَ نوم من قماش قطنيّ متين مُبقّع وصدريّةً زرقاء تهتزّ عليها صفيحةٌ نُحاسية في شكل قلب تُشير إلى أنّها تاجرة جوّالة؛ كانت تجلس على عارضة، ساقاها مُعلّقتان، فلمح تحت جانبيها المرتفعين فخذين ضخمتين محشورتين بعناية في جوربين ضيّقين خاصّين بالسّيقان ذات الدوالي.

عزفت المرأة على كمنجة معلّمِ الرّقص، ذارفة عبرات كبيرة، لحنَ «كم تُهوّنين عليّ أيّتها الرّمانة الجميلة!» في حين كانت خصلات شعرها الشّبيهة بخصلات الملكة أميلي[46] الملتوية والمدلاّة على طول صُدغيها تهتزّ مع الإيقاع مثلها كمثل رجليها المنتعلتين لحذاءين من قماش أحمر، من النوع الذي يلبسه صبيان المذبح.

وكان يجلس قبالتها في جفنة خشبية موضوعة على جائزٍ، رجل مُقعدٌ، يعتمر مِبولة المرضى الشّبيهة ببيريّة من خزف صينيّ أبيض، يرتدي صدريّة أطفال قُطنية، مُخطّطة، تُزرَّر على الظّهر، لا أكمام لها، فتُغشّي ذراعاه، من المعصم إلى المرفق، بكمّين من نسيج قطنيّ رقيق هادئ الزّرقة، مُمسَكين، كما يكون الأمر عند بائعي لحم الخنزير، بحبل مطّاط.

وكان هذا الرّجل ينفخ في مزمارٍ قربةٍ بقوّة حتّى أنّ عينيه الخضراوين كانتا تختفيان، كحُبيبَات زهرة الكَبَر، خلف الكرتين الورديتّين الحاملتين اسمَ مخزنٍ ما، والمشكّلتَين من خدّيه.

جعل جاك يفكّر. هو في قبّة جرسِ كنيسة، وهو أمر طبيعيّ، لأنّه ما دام محروماً من الخبز فقد قبل بهذا الموقع الخاصّ بقرع الأجراس. هما بالتّأكيد مساعدايَ، أسرّ لنفسه، وهو يتأمّل هذين المخلوقين الغريبين الضّاجين، فوق، على هيكلة البناء. لكن لماذا هي تبكي هكذا، واصل القول، وهو ينظر إلى السّائل المالح للدّموع الجارية على وجه العجوز الموحش؟ قد تكون تشاجرت وزوجَها، ذلك المقعد، ربّما. أقنعه هذا التّفسير، لكنّه سرعان ما قفز إلى فكرة أخرى. من المفترض أن يكون هذا البرج مُفتقراً للماء، فكيف يكون باستطاعتي أن أستقرّ فيه؟ الحقّ أنّ المرأة قد ترضى مقابل إتاوة صغيرة بأن تستخرج منه دلاءً، لنحدّثها في ذلك! حاول الالتحاق بها، فجازف بالمشي على عارضة، لكنّه فقد توازنه، مرعوباً بالفراغ، فتشنّجت حنجرته وتعرّقت جبهته. لم يعد يجرؤ على التّقدّم ولا على التّقهقر، وقد شرعت كليتاه تُؤلمانه، فوقع على أطرافه الأربعة، واتّخذ وضع راكب الفرس على العارضة التي عصرها بقوّة بين ساقيه وأغلق عينيه، لأنّ رأسه كان يدور. لكنّ القلق سرعان ما جعلهما تنفتحان من جديد. كانت العارضة تنزلق ببطء بين فخذيه، وكأنّها مدهونة بالصّابون. كان يراها تقصر ثمّ أحسّ بطرفها ينسحب تحت بطنه، فأطلق صرخة، ضارباً الهواء بذراعيه، ساقطاً في الهاوية.

ثمّ ضرب بكفّه على جبهته في شارع هونوريه شوفالييه، الذي كان يذرعه. وعكّازتي؟ سأل نفسه. في تلك اللّحظة، كان هذا الحدث الذي لا معنى له قد أضحى ذا أهمّية قُصوى. هو كان يعرف بطريقة حاسمة أنّ حياته، حياته كلّها، مشروطة بهذه العكّازة. تردّد، محموقاً، ثمّ عاد على عقبيه عادياً من رصيف إلى آخر، دون أن يستطيع الجمع بين فكرتين مؤكّدتين.

- لكنّها كانت في حوزتي قبل قليل! يا إلهي! يا إلهي! في أيّ مكان أضعتُها؟ آه! ... وسرعان ما حصل لديه يقين مفاجئ. هنا، خلف بوّابة العربات، توجد عكّازته، في هذا الحوش الذي لم يسبق له أن حلّ به.

ولج ما يُشبه بلاّعة. لا وجود لأيّ كائن حيّ، غير أنّ ثمّة فضاءً مأهولاً بعتمة مُقيمة ومملوءاً بأجساد غير مرئيّة. فهمَ أنّه مطوَّق ومُراقَب. ما العمل؟ وها هو الحوش يُنار والجدار الضّخم في عمق الحوش، المُستند إلى منزل مُجاور، يتحوّل إلى جدار زجاجيّ شاسع، تُصدي خلفه كُتلة صاخبة من المياه.

علا صوت جافّ شبيه بالصّوت النّاتج عن هذه الآلات الصّغيرة التي تدمغ الطّابع البريديّ على التّذاكر في مكاتب السّكك الحديدية وفي العربات العامّة. كان هذا الصّوت قد انطلق من الجدار المُنار، في الأسفل. كان جاك يفحص الأرضية المرصّفة، فرأى خلف الحاجز الزّجاجيّ رأساً يبرز من الماء، رأس امرأة مائلاً يصعد بحركة مُتقطّعة وبطيئة.

انبثق العنق أيضاً ثمّ ثديان صغيران بحلمتين صلبتين، ثمّ الجذع كلّه الصّلب والمدعوك قليلاً تحت الخاصرة، ثمّ بدت أخيراً ساقٌ مُرتفعة، مُخفيةً إلى النّصف البطنَ المختلج الصّغير والمنتفخ، ذا البشرة الملساء التي لا تزال تُعاني من آثار الولادة.

وقد ارتفع معها، في الأوان نفسه، منقر حديديّ لآلة رافعة رائعة، عاضّاً على جلدها الدّامي، فاختلط الماء المعتكر بحبّات بازلاء حمراء. عمل جاك على تبيّن وجه هذه المرأة فرآه ذا جمال مهيب ومأساويّ، مُتكبّراً ولطيفاً، لكن سرعان ما لمَعَت معاناةٌ تدقّ عن الوصف وعذابٌ صامتٌ واضح على محيّاها الذي كان الفم منه يتحدّى بشبق فظيع، مُستعملاً بسمة فاترة وفظّة.

اهتزّ واختلجت أحشاؤه فانطلق لتقديم العون لهذه الشّقية وسمع فجأة خلف الحاجز الزّجاجيّ ضربتين خافتتين على جسم صلب، شبيه صوتهما بصوت ارتطام كُرَتَي لعب صغيرتين، فاختفت عينا المرأة، تانك العينان الزّرقاوان والثّابتتان. لم يبق في مكانهما سوى تجويفين أحمرين مُلتهبين كأنّهما محروقتان موضوعتان على الماء الأخضر. ثمّ عادت العينان للوجود، ثابتتين، فشرعتا تنفصلان عن مكانهما وتهتزّان مثل كرتين صغيرتين دون أن يُفقدهما الموج المعبورُ صوتَهما. ومن هذا الوجه المؤلم واللّطيف، كان يسقط بالتّناوب الثّقبان القرمزيان والحدقتان الزّرقاوان، في هذا السّين[47] العموديّ، الواقع في عمق باحة.

آه! كم كان فظيعاً هذا التّتابع بين النّظرات الزّرقاء والمحجرين الغارقين في الدّم! كان جاك يختلج أمام هذه المخلوقة التي تكون رائعة عندما تبقى حالها كما هي، وتصير مرعبة ما إن تُنتزع عيناها

وتهربان. كان بلا مثيلٍ رعبُ جمالِ هذه المرأة، المقطوع باستمرار، والذي يُشبه حالات الدّمامة الأكثر إثارة للشّفقة، بثدييها المخمليّين وشفتيها الخاليتين في الأصل من أيّ انثناءة واللّتين تصيران قبيحتين ما إن يفقد المحيّا توازنه. راودت جاك الرّغبة في الفرار، لكن ما إن كانت الحدقتان تلمعان في مكانهما حتّى تحدوه الرّغبة في الارتماء على هذه المرأة وحملها وعتقها من الأيادي غير المرئية التي تُعذّبها، فيبقى هناك، مُنذهلاً، بينما هي تصعد وتصعد يُمسك بها منقار هذه الآلة الذي يغوص في وركها ويزداد انغراساً فيها بالموازاة مع ارتفاعها.

أدركت في الأخير أعلى الجدار فبدت في الهواء، يجري على جسدها الماء، فوق سطوح، وسط الظّلمة، مُبدية كمثل امرأة غرقى جانبَها المسحوق بحديدٍ محجن.

أغمض جاك عينيه، وكانت تخنقه حشرجاتُ استنجادٍ ودموعُ مؤاساةٍ وصرخاتُ شفقة. كان رعب كثيف يبرّد نُخاعه ويهرس ساقيه.

نظر إليها، بالرّغم منه، وهو يكاد يفقد وعيه وينقلب إلى الوراء.

كانت المرأة عندئذ جالسة على حاشية أحد أبراج كنيسة سان سولبيس. لكن أيّ امرأة هي! هي بغيّ فاسقة تُقهقه بطريقة فاجرة وعاهرة، واضعة على رأسها قطعة قماش شبيهة بالكُرّاث، تشتعل النّار في شعرها على جبهتها، عيناها سائلتان، فمها مهشّم، خالٍ من الأسنان الأمامية وقد نُخرت الخلفية منها، وجهها مُخطّط كوجه بهلوان بخطّين دمويّين.

كانت تُشبه، في آنٍ، المرأة المنذورة لكلّ الرّجال والمرأة التي تمتهن حشو القشّ، وكانت تُقهقه وتضرب بعقبها البرجَ، غامزة السّماء بعينها مادّةً فوق السّاحة نهديها المترهّلين القديمين ومصراعَي بطنها المُغلقين بطريقة سيّئة والقِرَبتين الخشنتين لفخذيها الواسعين المتفتّحة بينهما قبضةٌ جافّة من نبات الفوقس القبيح الذي تُحشَى به الأفرشة.

ما معنى هذا؟ تساءل جاك مرعوباً. ثمّ ثاب إلى رشده وحاول أن يستعيد منطقه فانتهى به المطاف إلى أن اقتنع بأنّ هذا البرج هو بئر، بئر تنتصب في الهواء عوضَ أن تغوص في الأرض، لكنّها في نهاية المطاف بئر، والدّليل على ذلك الدلو الخشبيّ المحاط بالحديد والموضوع على مثابتها. كلّ شيء إذن مُفسّر؛ فهذه البغيّ هي الحقيقة.

كم كانت مشوّهة! صحيح أنّ الرّجال تبادلوها فيما بينهم منذ كلّ هذه القرون! وبالفعل، ما المدهش في ذلك؟ أليست الحقيقة هي العهر الأعظم للدّماغ ومومس الرّوح؟ الحقّ إنّ الله وحده يعلم إن كانت هذه الحقيقة، منذ بدء الخليقة، قد أفسدت وسط ضجيج القادمين الأوَل لهذه الدّنيا! الفنّانون والرّهبان، وسكّان الأرياف والملوك، كلّهم امتلكوها، وكلٌّ منهم حصل لديه اليقين في أنّه يملكها وحدَه فقدّم، لأقل شكّ يُثار، براهين لا خور فيها وأدلّة لا تُردّ وحاسمة.

وسواء أكانت الحقيقة ما فوق طبيعية عند البعض أو واقعية عند الآخرين، فإنّها كانت تَبذر بلا مبالاةٍ الاقتناعَ في بلاد ما بين نهرَي الأرواح السّامية وأرضِ الأغبياء السولونية[48] الروّحية. فهي

كانت تُداعب كلّ شخص حسب مزاجه وحسب أوهامه وأهوائه وحسب سنّه، مُسلّمة نفسها لغُلمةِ يقينهِ، في كلّ الأوضاع، وعلى كلّ الأوجه، حسب الاختيار.

لا مراء في أنّ الحقيقة مُنافقة، قال جاك ملخّصاً.

- كم أنت غبيّ إذن! قال صوت أجشّ. التفت جاك فرأى حوذيّاً مدينيّاً ملفوفاً في معطف رماديّ، ذي ياقات ثلاث، واضعاً سوطه حول عنقه.

- أنت لم تتعرّف عليها إذن! إنّها ابنة السيّدة أوستاش!

لم يُجب جاك، من فرط مفاجأته. وبالرّغم من أنّ هذا الحوذيّ كان ذا هيئة ربّ عائلة، فقد تلفّظ بشتائم مُنكَرَة، ثمّ قفز، كمن به مسّ، على رجل واحدة، وبصق مرقاً بلونِ الطّماطمِ في قبّعة رئيس محكمة كانت مطروحة ثمّة على الأرض، فقفز بحزم، مُشمّراً كمّيه، القبضتان إلى الأمام، على جاك، الذي استيقظ مُنتفضاً في فراشه، منهوكاً، كأنّه يُحتضر، مُتعرّقاً.

11

تعاقبت ليالٍ عديدة؛ ليالٍ حلّقت فيها الرّوح الموسّعة بسجنها البائس، في سراديب الحلم المغمورة بالأبخرة. كانت كوابيس جاك قاتلة ومكدِّرة، تُخلّف، منذ الاستيقاظ، انطباعاً جنائزياً يُضاعف كآبة الأفكار المهترئة سلفاً من فرط تكرارها في لحظات اليقظة وسط هذا القصر الفارغ. لا تبقى لديه أيّ ذكرى دقيقة عن هذه الجولات التي يقوم بها في عوالم الهلَع، وإنّما تذكُّرٌ مُبهم للأحداث المؤلمة التي اجتازها اعتماداً على حدوس مؤسية.

كان جاك يشعر، صباحاً، بضرب من الحمّى، بخُمارِ رجل سكران، فتترنّح ذاكرته ويعمّه ضيق عامّ ويتوجّع جسده كلّه. شعر ثانيةً بالقلق من الأسباب التي تُؤدّي إلى انشطار حياته بهذه الكيفية فتُحيلها تارةً غير متجانسة وطوراً شديدة الوضوح. وفي نهاية جداله الدّاخليّ تساءل، وهو يُفكّر في زوالِ حُظوةِ لويزا العابرِ، إن لم تكن الجملة الخارقة للعادة لباراسلسه[49]: «الدّم المنتظم للنّساء ينشرُ الأشباح»، صحيحة، ثمّ ابتسم وهزّ كتفيه، فأمسك منذئذ عن تناول السّوائل وانتظر أن يتمّ الهضم قبل أن ينام، والتحف في الفراش بلحاف خفيف، فحصل، بسبب فراغ النّوم من الكوابيس، على رؤىً أكثر غموضاً وألطف.

عندما عاد الجوّ إلى اعتداله، أرغم نفسه على المشي وزار قُرىً مجاورة وذهب إلى سافين فوجدها ضيعة صغيرة مُشكّلة من ممرّين تحفّ بهما أكواخ مسوّرة بحواجز خرِبة، ما جعله يُلاحظ أن لا فائدة من الجولات التي يقوم بها خارج القصر. كانت تمتدّ في كلّ مكانٍ طرقٌ واسعة مُغبرّة، تنتصب على حوافّها إشارات كيلومترية وأشجار جوز، فضاؤُها مُخطّطٌ باستمرارٍ بحبال التلغراف، ومُحدّبةٌ، كلَّ مائة متر، بأكوام من الحصى، مُؤدّية كلّها، بعد مسيرٍ قد يطول وقد يقصر، إلى بلدات مُتماثلة يسكنها مُزارعون مُتشابهون.

كان يلزم الابتعاد بفراسخ كثيرة للوصول إلى الغابات؛ فرأى أنّ التّيه في حديقة لوربْس والإغفاء تحت ظلال شجر الصّنوبر يظلّ خيراً من القيام بذلك.

ثمّ عاش سويعات لم يكن ينتظر أن يعيش مثلها وحظي بالاستمتاع بيوم جديد. فعندما أتى القسّ إلى لوربْس يوم الأحد، ترك مفتاح الكنيسة عند العمّ أنطوان ليُسلّمه إلى الحدّاد المُطالَب بإصلاح أجراس الكنيسة، فاستعاره جاك.

لم يدخل هذا المفتاح في ثقب الباب الكبير للكنيسة الذي ينفتح، بالقرب من القصر، على الطّريق العامّ، فألفى نفسه مُضطرّاً للمرور من خلف الباب وولوج المقبرة المُحاطة بأوتاد والمليئة بأعشاب بريّة وبصلبان خشبية سوداء وأخرى حديدية تأكّلها الصّدأ. بحثَ عن قبورٍ حاملي لقب الماركيز هؤلاء الذين كان العمّ أنطوان يتحدّث عنهم، لكنّه لم يستطع العثور عليها. كانت أورامٌ مُتعرّجة من بهق الحجر والطّحالب تقضم القبور التي مُلئت كتاباتُها المحفورة بالتّراب منذ زمن طويل؛ ولربّما كانت بقايا القدّيس فال وأمثاله راقدة هنا تحت هذه الحجارة.

بدت له تلك المقبرة أنيقة في الشّمس. كان ثمّة صراع بين النّباتات وتداخل كامل بين الأغصان التي تتفتّح تحتها، على سيقان ذات مخالب، براعمُ زهرة النّسرين المتأرجحة. في هذا الميدان المحميّ بالكنيسة، كان يبدو الجوّ أدفأ، فترفع حشرات «الطّنّان» أصواتها، مُقوَّسةً على الزّهور المتأرجحة والمنثنية من ثقلها، وتطير فراشات على جانبها وكأنّها نشوى بالرّيح، كما كان يفرّ بعض الحمام البرّيّ الذي يعيش في القصر، ضارباً بأجنحته، مُطلقاً صرخات عالية.

تأسّف جاك على أن لم يتعرّف باكراً على هذا المكان الهادئ والنّاعم، إذ بدا له أنّ فيه فقط يستطيع أن يتصالح وحالات ضيقه وأن يُهدهد أرقَ أفكاره الحزينة. ففي هذا المكان نكون بعيدين عن الجميع، مُختفين عن الأعين، في وحدة كاملة. تتبّع وسط نباتٍ عالٍ ممرّاً مُتعرّجاً يؤدّي إلى باب

محفور على خاصرة الكنيسة، ففتحه بذلك المفتاح ودخل فألفى نفسه في جناح كنيسة مطليّ بالجبس.

كانت هذه الكنيسة مبنيّة في شكل طوليّ، لا جناح مُصالباً لها يُشابه ذراعي صليب، مُنشأة فقط من أربعة جدران تقوم على طولها أعمدة رقيقة مُشكّلة من أعمدة صُغرى مُتراكبة، مُنطلقة إلى حدود تقويسات القباب. كانت تستقي نورها من صفوف من النّوافذ المتقابلة ذات التقويسات القوطية المُشاكلة لحراب صغيرة، لكن في أيّ حال هي! كانت هذه التّقويسات التي في شكل حراب والمتكسّرة مُرمّمةً بقطع من الإسمنت الصّلب وبأجزاء من الآجرّ، كما كانت تقوم مقام المعيّنات الزّجاجية في النّوافذ قطعٌ مجزّأة من مُعيّناتٍ رصاصية، أو متروكة كما هي، فارغة، مع القبّة المخدوشة والفاقدة لأجزاء من جلدها الجبسيّ، مُنثنية ومُثقَلَة بزِنةِ السّقف.

كان جاك في كنيسة قديمة ذات شكل قوطيّ هدّمها الزّمان ونكّل بها البنّاؤون. كانت عارضة مُربّعة، فوق المكان المخصّص لجوقة المرتّلين، تعبر البناية من جهة إلى أخرى، حاملة مصلوباً ضخماً مُسمّراً في العارضة بغزقات حديدية. وكان المسيح المنحوت بطريقة بربرية والمدهون بطبقة من الصّباغ الورديّ، يبدو في هيئة قاطع طريق مُلطّخ بدم شاحب. كان مُثبّتاً بطريقة سيّئة إلى الصّليب، يتأرجح لأقلّ هبّة ريح، صارّاً على مساميره المتحرّكة. وكانت لطخات ذروق طويلة تعبره من رأسه إلى قدميه، مُتجمّعة على جرح خاصرته حيث تبدو ألوانها أنصع. وكانت طيور الخبَل والغربان تدخل بحرّية إلى الكنيسة عبر ثقوب الزّجاج المهشّم، فتجثم على المسيح وتُؤرجحه، ضاربة بأجنحتها، مُغرقة إيّاه بفضلاتها البيضاء التي تفوح برائحة الأمونياك. كما كانت كُتل من أقذار بيضاء، هي تَفريغُ طيور كاسرة خسّيسة، تنتشر على أرضية المحراب وعلى المقاعد الخشبية المنخورة في صدر الكنيسة، والكراسيّ الطّويلة للمذبح.

اقترب جاك من المذبح الذي كانت ألواحه القليلةُ اللّمعان تبرز من تحت النسيج المبقّع بسماد ذرق الطّيور والمسقيّ برشّات المطر. كان يعلو هذا المذبحَ ما يُشبه خيمة مُزيّنة، كمثل الخيّام التي تُنصب لاستقبال الحجّاج، بنجوم فضّية على خلفية زرقاء، موضوعة عليه مشاعلُ صغيرة وتمثيلاتٌ كرتونية لشمعدانات ومزهرياتٌ مُهشّمة الأفواه، لا ورود فيها.

كان المذبح يفوح برائحة جيَف. مرّ جاك، مَقوداً بهذه الرّائحة، وراء تلك الخيمة الصّغيرة فرأى على الأرض بقايا فأرات وجرذان وجذوعاً بلا رؤوس وأجزاء من أذناب وجلداً بزغب. كان ذلك هو مخزن أطعمة طيور الخَلَد، بالقرب من خزانة من خشب التّنوب، بابها مُواربٌ، مُعلّقة فيها بطرشيلات الكاهن وكتوناته[50]. دفعه الفضول إلى تفقّد هذه الخزانة، فوجد فيها، فوق المكان الذي تُعلّق إليه المعاطف، في خليط، على لوحة خشبية، قِمعاً مُسنّناً وكأساً وحُقّة قُربانٍ وعلبةً من حديد أبيض مُغلقة بغير إحكام، فيها قرابين.

ذرع جناح الكنيسة وشاهد، في العمق، بالقرب من البوّابة الكبرى، على أَجرَانِ الأحزان، قطعةً من جريدة تحوي ملحاً وقنّينة قديمة لسائل التّرنجان فيها قطرات ماء.

آه !إن الكاهن الذي يترك الكنيسة حيث يُحيي قُدّاسه، على هذه الحال من الإهمال، لهو، على أيّ حال، كاهن لا يُشبه باقي الكهّان! كان بإمكانه على الأقلّ أن يُحسن حفظ خبزه الفَطِيرِ ومزهريّاته، أسرّ جاك لنفسه. صحيحٌ أنّ العناية الإلهية لم تكن تقيم إلاّ قليلاً في هذا المكان، لأنّ الكاهن كان يُسرع في تقديم صلواته ويُعجّل بالقدّاس مُنادياً ربّه بسرعة، ثمّ يَصرفه ما إن يُقبل، وبلا تأخير. فهو كان يُقدّم، في الأوان نفسه، خدمة سريعة وربّانية، هي كافية ربّما للأشخاص الثّلاثة أو الأربعة القادمين من لونغفيل، والذين لم يكونوا يجرؤون على الجلوس، لفرط ما كانت المقاعد الطّويلة نخِرةً وقذرة.

كان جاك يتأهّب للمغادرة عندما توقّفت عيناه على أرضية المكان المخصّص للجوقة المرتِّلة؛ فقد لاحظ بين المربّعات غير المتساوية في حجمها بلاطات مُنتظمة تُشبه القطع الصّخرية التي تُوضع على القبور. جثا على ركبتيه وحكّها مُكتشفاً كتابات بحروف قوطية، تآكل بعضُها كُلّية وبقي بعضها الآخر ظاهراً حول شعارات عائلية مُبهمة وصور مُسطّحة لأشخاص أقدامهم متقاربة وأكفّهم مجموعة.

عاد إلى القصر وأتى بآنية بماء وقطعةِ قماش، فبدأت تظهر في الوحل الذي يحكّه حروفٌ كانت من قبلُ غير ظاهرة.

بدأ يستكشف ما كان مخطوطاً على إحدى تلك الأحجار حرفاً حرفاً: «هنا يرقد السّيد لُوي لو غوز. كان قيد حياته حاملاً للسلاح وسيّدَ لو في بريه وشيميز في توز. في 21 من ديسمبر، سنة ألف وخمسمائة وخمس وعشرين. صلّوا من أجله».

وقرأ على حجر آخر:

«هنا يرقد السّيد شارل دو شامباني، حامل السلاح، وبارون لوربْس، المتوفّى يوم 2 فبراير، سنة ألف وستّمائة وخمس وخمسين، وهو ابن روبير دو شامباني، الفارسِ، وسيّدِ سَفيّ وسانت كولومب؟، إلخ. لترقد روحه في سلام.»

أمّا باقي الكتابات، الأقدم بالتّأكيد، فكانت ممسوحة بطريقة عجز معها، رغم ما بذله من جهد، عن إعادة تشكيل حروفها.

ظلّ هناك بادياً عليه بعضُ الانبهار. لم يكن أحد في البلد يعرف هذه القبور التي لا يكاد يدوسها، يوم الأحد، كاهن مُهمِل ورعيّةٌ لا مُبالية. مشى على قبور كبار السّادة المنسيّة في الكنيسة القديمة لقصر لوربْس. كم أضحى هذا كلّه بعيداً في الزّمن! حتّى اسم المكان نفسه تغيّر، فانتهى المطاف بالاسمين «لو» و«لوربْس» إلى أن اندمجا فاستقرّا على صيغة «لوربْس». آه لو كان العمّ أنطوان يسمح بكشف سرّ أقبية القصر والدّخول إلى ممرّاته الجوفيّة ودهليز الكنيسة، إذن لربّما اكتشفنا فيها آثاراً مُثيرة للفضول.

انصرف. وبما أنّه كان يُفكّر في الحصول من العمّة نورين على وعد بجعلِ زوجِها يقبَل بإجراء الأبحاث في قبو الكنيسة، فقد توجّه رأساً إلى كوخها.

لكنّه اضطرّ إلى تأجيل البدء في أبحاثه لأنّه وجد العجوز تصرخ غاضبة، أنفها بالقرب من روزنامة، راصدة بأذنها، مُستمعة إلى خوار البقرة.

- هل العمّ بخير؟ سأل جاك.

- نعم، هو في الإسطبل. انتظر! اسمع!

كان يُسمع، بالفعل، صوتٌ يشتُم وسوط يُفرقِع.

- يا إلهي، يا إلهي! ها هي المُخطّطة، يا ولدي، لم تحبل! قالت العمّة نورين. كان ذلك متوقّعَ الحصولِ خلال الأسابيع الثّلاثة الماضية، على ما أحسب، وشرعت تعدّ الأيّام بأصابعها، على الرّوزنامة. وقد جعلت جميلة الجميلات، فوق ذلك، تعلوها، ما يُعدّ علامة في ذاته. كما أنّ خُوارها متواصل منذ الأمس، مانعاً عنّا النّوم. ما عاد أمامنا إلاّ أخذُها إلى الفحل.

ثمّ فسّرت، مُجيبة على أسئلة جاك، أنّ المُخطّطة بقرة حَملُها صعب، وغالباً ما يكون من اللّازم اللّجوء إلى الفحل، ما يُعدّ أمراً مُزعجاً، لأنّهم يجدون صعوبة في إقناع الرّاعي بالقدوم ما دام لا يحبّ إنهاك فحله.

- ثمّ إنّكِ أنت لا تُحسنين وضع كفّك على ظهرها عندما يعلوها الفحل، حتّى أنّ ظهرها الشّبيه بظهر حمار يمنعها من تلقّي البذرة، صاح العمّ أنطوان الذي أتى، غاضباً، وهو يضرب بحبلٍ البقرةَ التي كانت تصعّد خوارها، ضاربةً في كلّ الاتّجاهات بقرنيها.

- حسناً، هذا صحيح، فأنت تملك طريقة في الكلام مُضحكةً عندما تتحدّث بهذه الشّاكلة، يا رجلي! وبما أنّك بهذا الذّكاء كلّه فاذهب أنت إلى فرانسوا وهناك ضع كفّك على ظهر البقرة، لترى.

هزّ الشّيخ كتفيه، قائلاً:

- بالتّأكيد سأذهب. ثمّ سدّد ضربة قويّة بذراع السّوط إلى رأس البقرة الذي تأرجح، قائلاً: خذي، هذا لك أنت أيّتها الشّريرة القذرة!

رافقه جاك، فنزلا طريق النّار بخطىً وئيدة.

- لدينا من الوقت ما يكفي، قال العمّ، فمن المفترض أن يكون الرّاعي، في هذه السّاعة، في المرج يرعى البقر. لكن لا ضير في ذلك، على أيّ حال، ما دُمنا سنترك المخطّطة في بيته، أثناء مرورنا، ذاهبين لاستقدامه.

اجتازا الطّريق الكبير لباري والتحقا بقرية جوتينيي عبر ممرّ صغير. تلقّيا في كلّ درب مرّا به تحيّات من نساء عجائز رؤوسهنّ ملفوفة في مناديل وهنّ يُرتّقن ملابس، جالسات في إطار النّوافذ التي كانت تُبدي جذوعَهنّ لا غير. وكان يجلس على عتبات المنازل صبيان شديدو القذارة، شعرهم نازل على عيونهم، مبدين تكشيرات استياء، حاملين في أيديهم قطعَ خبز مدهونةً مثلومةً بعضّات من أفواههم. توقّفا أمام كوخ حديث الإنشاء يمتدّ أمامه حوش تتموّج في إحدى زواياه ورود خطمية برّية حمراء كالدّم، كان العمّ يُسمّيها الورود ذات السّيقان العَصَوية.

رفعا مزلاجَ بابٍ ذي فتحَاتٍ وعقلا المُخطّطة إلى عمود مغروس في الحوش، ثمّ أعادا إغلاق الباب وانتهجا، عند انعطافةٍ، طريقاً محفوفاً بأشجار الدّردار.

أفضى بهما مسيرُهما إلى برّية شاسعة. ظلّ جاك مُنبهراً بامتداد هذا المشهد المنبسطِ تحت سماء يبدو تقوّسها وكأنّه ينزل على الأرض في الأفق، هناك، في بعدٍ تُزيّنه أيكاتُ أشجار.

وكان يمتدّ وسط هذه البرّية طريق صغير تقوم على جنباته أشجار الصّفصاف ذات الجذوع القصيرة والأوراق المزرقّة التي تُطلق ما يُشبه دخاناً ما إن تهبّ الرّيح.

انتبه جاك، وهما يمشيان قدماً، إلى أنّ وادياً صغيراً يجري بين هذا الحاجز الكثيف من أشجار الصّفصاف. إنّه وادي الفولزي، متموّجاً بدوائر صغيرة مُسودّة تُحدثها القفزات المتقطّعة لعناكب الماء. كان هذا الوادي الذي احتفى به هيجزيب مورو[51]، يتعرّج في انثناءات صامتة ويسودّ في أماكن منه، في مُنعطفات زرقاء، تختلج في عمقها أوراقُ أشجار الضّفتين المتكسّرة، دائرة حول نفسها، ثمّ يسري ويمتدّ في خطّ مُستقيم حاملاً معه، بين ضفّتيه، تيّاراً سماوياً كاملاً.

صبغ شعاع شمسيّ نبات المرج باللّون الذّهبيّ، وسرّعت الرّيح جريان السّحب التّي كانت تتخثّر كمثل حليب رائب، في البعد، ودفعت بها فوق الفولزي فترقّطت زُرقته منها بلطخات بيضاء، وانبعثت رائحة عُشب فاترة وأخرى عديمة الطّعم ومالحة قليلاً بباعث من التّراب الصّلصاليّ، من هذه الأرض الخضراء الموسومة بعلامات داكنة أحدثتها حوافر القطعان.

اجتازا الفولزي على جسر من ألواح خشبية، فلمحا عندئذ، خلف ستارة أشجار الصّفصاف التي اجتازاها، جزءاً آخر من البرّية مُنبسطاً، يمشي فيه، في كلّ اتّجاه، قطيع من الأبقار. كانت ألوانها هي كلّ الألوان، مع كلّ التّنويعات؛ كان من بينها ذات اللّون الأغبس وذات اللّون الكميت والبيضاء والشّهباء والسّوداء التي تُشبه بقعها غير المنتظمة ما يُحدثه سيلان محبرة مُنهرقة. كان لُعاب بعض البقرات المولية نحوهما بوجوهها يسيل وهي تخور، قرونها في شكل مذارٍ بينها شعرٌ منتصب، ناظرة بعيونها البرّاقة إلى الفضاء المرتجف في غُبار النّهار المزرقّ، وما كان يظهر من الأبقار

الأخرى، المدبِرة، سوى أردافها وأذيالها المتحرّكة كمثل رقّاص، بجانب الكتلتين المنتفختين لضروعها الوردية.

كانت البقرات مُشتّتة في البرّية مُشكّلةً دائرة يحوم حولها كلبان من سلالة العُسبور مُخرجَين لسانيهما.

- هذان هما بابيون ورامونو، قال الأب أنطوان، مُشيراً إلى الكلبين. كان الرّاعي هناك، فلمحاه، بالفعل، وهو يضرب بعصاه، عيناه مُنكّستان، على تَلْعَتَين تُرابيّتين مدعوكتين.

- أنت، يا فرانسوا، هل الحال على ما يُرام؟

رفع الرّاعي وجهه الأمرد والصّلب ومرّر كفّه على أنفه الشّبيه بمنقار نسر، وقال بصوت فاتر.. وساخر في آنٍ معاً:

- نعم...، نعم...، أيّها الأب أنطوان، إنّ فكرة رؤيتي لكم كانت قد راودتني، فتنبّأت بأنّكم ستأتون إليّ على الأقلّ من أجل المخطّطة.

شرع العمّ يضحك.

- أوه، أنت على علم بكلّ شيء، أنت. أوه! أنت لست بالرجل الهيّن، أنت ترى على الفور ما يحدث.

هزّ الرّاعي كتفيه قائلاً:

- آه، ليكن إذن! الأمر سيّان، فأنا سأغتاظ جدّاً إن نفقت بقرتك المباركة، ثمّ نهض ونظر إلى الشّمس فأمسك ببوقِ قرنِ الحديدِ الأبيض المعلّق إلى خاصرته ونفخ فيه ثلاث مرّات فصدر عنه صوت أجشّ ممتدّ.

قام الكلبان على الفور بتجميع القطيع في كتلة واحدة مصطخبة، ثمّ ابتعدت البقرات مُنقسمة إلى صفّين، أذيالها مُتحرّكة، وجعلت تلج طرقاً مُختلفة.

- هو يُخبر ببوقه القُرى بعودة القطيع، قال العمّ. ثمّ أضاف، وقد رأى جاك مُندهشاً من لا مبالاة فرانسوا ومن عدم اهتمامه بالبقرات: أوه! هي تعرف الطّريق إلى إسطبلاتها، ولا داعي لمرافقتها إليها!

- هنا! صاح الرّاعي في الكلبين المهتاجين وقد انتصب شعرهما وكشّرا عن أنيابهما، ما إن اقتربا من جاك.

فانصرفوا ثلاثتهم. وفور وصولهم إلى المنزل اقترب فرانسوا من المخطّطة وهي تخور وفسخَ عقالها، وبضربات من قبضة يده وركلات من رجله أدخل رأسَها في ما يُشبه مقصلة منصوبة بالقرب من الإسطبل.

ما عادت البقرة تتحرّك، وكان بادياً عليها الانذهال. وفجأة انفتح باب الإسطبل فخرجت كُتلة شهباء، خطمُها منكمش وعنقها قصير برأس ضخم وقرنين قصيرين- خرجت ببطء مربوطة إلى حبل مجموع حول ملفاف.

اجتاحت ارتعاشة وبر البقرة وجحظت عيناها. اقترب الثّور منها وشمّها، ثمّ شرع ينظر إلى السّماء بفتور.

- هيّا، صاح فرانسوا وهو يخرج من الإسطبل في يده سوط.

- هيّا، هيّا، هيّا، أيّها الفحل!

بقي الثّور هادئاً.

- هيّا، هل سننتظر حتّى الغد؟

انتصب الثّور على قوائمة بثبات، مُبدياً تحت ردفه خصيتين طويلتين معلّقتين، تبدوّان موصولتين بالبطن بواسطة عصبٍ ينتهي ملفوفاً في زغبٍ.

- هيّا، فوقها! صاح العمّ أنطوان.

ومن جديد صاح فرانسوا بصوته الرّتيب: هيّا، هيّا، هيّا، أيّها الفحل!

بقيت الدّابة ثابتة لا تتحرّك.

هيّا أيّها الخائر غيرُ الصّالح لشيء! ثمّ وجّه له الرّاعي ضربة قوية من سوطه.

نكّس الثّور رأسه ورفع قوائمه الأربع الواحدة بعد الأخرى ثمّ تملّى الباحة بعينٍ لا مبالية.

اقترب العمّ من المخطّطة ورفع ذيلها. ودون استعجال، تقدّم الثّور خطوة وشمّ مؤخّرة البقرة ووجّه لها ضربة بلسانه، ثمّ ما عاد يتحرّك.

عندئذ هاجمه فرانسوا بقبضة سوطه.

- وغد، خائر! أنت إذن لا تصلح إلاّ لإعداد يخنة بلحمك! صاح العمّ أنطوان من جهته، وهو يضرب بكلتا يديه رأس الدّابة بعصاه.

وفجأة ارتفع الثّور ببطء واضعاً البقرة بين قوائمه بطريقة تنعدم فيها المهارة. أطلق العمّ عصاه وسارع إلى المخطّطة وشرع يُسطّح ظهرها بكفّيه، بينما انبثق من بين الشّعر، تحت الثّور، شيء ما أحمرُ ومشوّه، أملس وطويل، فضرب البقرة. كان هذا كلّ ما في الأمر. ودون لهاث، ولا صراخ، ودون أدنى تشنّج، عاد الثّور بقوائمه إلى الأرض، ودخل الإسطبل مجروراً بحبله، بينما جعلت المخطّطة، التي لم تُبد أيّ اهتزاز، ولم تُطلق حتّى تنفّساً، تتخفّف من خوفها ناظرةً حولها، مرعوبة، وكأنّ عينيها تغليان.

لم يستطع جاك منع نفسه من التّعجّب:

- هذا كلّ ما في الأمر! لم يدم المشهد حتّى خمس دقائق.

فأطلق العمّ والرّاعي ضحكة عالية.

- آه، إنّ ثوره عنّين، قال جاك أثناء عودته برفقة العمّ أنطوان.

- لا، هو فحل جيّد. فرانسوا يقدّم له كثيراً من العلف وقليلاً من الأعشاب، لكنّه مع ذلك فحل مُتّقد.

- ويكون الأمر بهذه الطّريقة دائماً عندما نأخذ بقرة إلى ثور؟ يكون بهذه الطّريقة غير المنتظمة ووجيزاً كما رأينا؟

- بالتّأكيد يا رجل! استجابة الفحل قد تكون سريعة أو بطيئة، لكنّ الأمر لا يستغرق أكثر ممّا رأيت، بمجرّد أن يبدأ.

فتوطّد لدى جاك الإيمان بأنّ عظمة الفحل هي كعظمة اللّون الذّهبيّ للزّرع. هي صيغة نمطيّة قديمة تجمعهما، وعطبٌ رومانطيقيّ يُحاول إصلاحه ناظمو الشّعر الرّديئون ورومنطيقيو الزّمن الحاضر! لا، الأمر لا يدعو هنا، حقّاً، إلى الحماس والتّهليل والتّزمير! ليس في هذا الأمر جلال ولا عظمة. وإن نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر غنائية، فإنّ السّفاد[52] إنّما هو كتلة من نوعين من اللّحم ندفع بهما ونجعل أحدهما يعلو الآخر، ثمّ نأخذهما ما إن يتلامسان مربّتين على ظهريهما.

ودون أن يتلفّظا بكلمة، ها هما يذرعان طريق لونغفيل الكبير، متبوعين بالبقرة التي يجرّها العمّ أنطوان خلفه مربوطة إلى طرف الحبل.

سعل الشّيخ فجأة ثمّ راح يشكو المصاعب التي يُعانيها في ربح بعض المال. وبعد هذه الشّكاوى المعتادة، سعل من جديد وأضاف: لو فقط لم يتأخّر مَدينوك في الدفع لك، لكنّا عشنا في سعادة!

وبما أنّ جاك لم يُجبه، أضاف: لن أحصل من ذلك إلاّ على الثّلاثين فرنكاً التي هي من حقّي، لكنّني سأكون سعيداً بها.

- ستحصل عليها غداً، يا عمّاه، قال جاك. سيُؤدَّى لك ثمن نصف البرميل، كن على يقين من ذلك.

- دون شكّ... دون شكّ... لكن هل مع الفوائد التي من المؤكّد أنّهم كانوا سيدفعونها لي في بروفانس، لو كنت سلّمتهم المبلغ؟

- مع الفوائد.

- حسناً، حسناً، حسناً. الحقّ أنّك رجل حقيقيّ.

أخذ جاك يجترّ في نفسه: سيصل المال غداً بكلّ تأكيد، لأنّ موران قد حصل أمس الأوّل على المبالغ التي تعود لي. فهو بأدائه المتأخّرات كما يلزم، وبتسديده للمدينين الأشدّ عناداً، استطاع أن يُوقف عملية المُصادرة التي كانت تتهدّدني. إنّه وضع مُريح؛ فمن المفترض أن أحصل من ذلك على ما يقارب ثلاثمائة فرنك. سيكون لي ما يكفي، قال مُستنتجاً، لأؤدّي ديوني هنا ولأركب قطار بلفور السريع برفقة لويزا، في غضون ثلاثة أيّام أو أربعة.

استخفّته فكرة أنّه سيُغادر أخيراً لوربْس ويعود إلى باريس ويعثر من جديد على بيته وحمّامه وتُحَفه وكتبه؛ لكن ماذا بعد؟ هل سيؤدّي رحيله إلى إسكات أناشيد أفكاره الحزينة وتهدئة ضيق الرّوح هذا الذي يردّه إلى إخلال زوجته بواجباتها؟ كان يشعر بعمق أنّه لن يغفر بسهولة لزوجته لويزا ابتعادَها عنه في الوقت الذي كان هو يسعى فيه إلى الانشداد إليها. كما أنّ المسألة الرّهيبة المرتبطة بالحياة المشتركة كانت حاضرة أيضاً. فهما حتّى ذلك الحين كانا قد عاشا في باريس بحريّة في غرفتين مُنفصلتين، في رحابة، فتجنّبا بذلك الإزعاجَ الذي عادةً ما ينتج عن تفاصيل مُضحكة وعن الخجل من العلاجات المخبوءة. وقد فرضت عليهما ظروف قصر لوربْس أن يظلاّ معاً، يناما ويستيقظان في الغرفة نفسها. وهو يرى الآن، رغم ما في ذلك من غباء، أنّ زوجته صارت واهنة، متضائلة، وكان يعرب عن انزعاج، وحتّى عمّا يُشبه الاشمئزاز من مُلامسة جسدها، في بعض الأيّام.

ما إن يعود إلى باريس، سيبحث عن مسكن متواضع. وشعر أنّ من غير المعقول أن يحصل في المستقبل على غرفة خاصّة به، كما كان الشّأن في الماضي. أرهبه احتمالُ أن لا يستطيع التّنفس في مكان يكون فيه وحيداً في وقت استراحته. ثمّ إنّه كان على يقين من أنّ الرّجل إن كان يستسلم للنّفور من زوجته بسبب مِحَنِها الحميمة، فلأن الشّغف الشّهوانيّ، مثله كمثل وسط يكسر الأشعّة ويُشوّه حقيقة الأشياء، يشمل المرء بالوهم ويجعل من جسد المرأة الأداة الثّرة للمسرّات، حتّى أنّ حالات بؤسه الخفيّة تنتفي.

ما عاد ممكناً الأملُ في الإعراب عن رغبة مع لويزا المريضة والمتعبة والقلقة والباردة. لقد بقيت لويزا مع علّتها الأصلية وحيدة ولا عزاء لها من أيّ نوع.

- هذه الإقامة في لوربْس كان لها نتائج جيّدة، فهي جعلتنا نتبادل مقتَ روحَينا وجسدَينا! أسرّ لنفسه بمرارة. آه! إنّ لويزا تُثبّط عزيمتي!

- ماذا هناك يا ابن الأخ، فأنت ما عدت تتكلّم؟ قال العمّ.

انتبه جاك. كان قد أدرك باب القصر دون أن ينتبه لذلك.

- عِمْ مساءً، يا عمّ، سأراك غداً.

وصعد السلالم ملتحقاً بزوجته فوجدها باكية.

- ما بك؟

فعلمَ أنّ العمّة نورين قد تخلّت عن لباقتها كلّيةً عندما رجتها ابنة أخيها أن تُعيرها بعض الشّراشف. رفضت ذلك قائلةً إنّها هي لا تُغيّر شراشف سريرها، وأنّ شراشف لويزا جديدة وأنّ من الممكن أن يكون لدى الباريسيّين أسباب تجعل شراشفهم تتدهور. ثمّ إنّها طالبت في الأوان نفسه بمُقابل نصف البرميل متحدّثةً عن أناس ليسوا أغنياء غير أنّهم مع ذلك يُبدّدون طعامهم بتقديمه إلى قطّ.

ثمّ أرادت استرداد الحيوان.

- هو لا يصلح إلاّ لأن يُلقى به في بِرْكة! صاحت بها، وقد اقتضى الأمر أن تحول لويزا بينها وبين القطّ الذي مدّ قوائمه فجأة مُخرجاً مخالبه. بكلمة، أضحت العمّة وقحة وفظّة، وقد حصل ذلك بحضور امرأة سافين الحامل والتي كانت، وقد قدِمت برفقة ابنتها لحمل المشتريات، قد ترجّت لويزا في البداية أن تكون عرّابة الطّفل المنتظرَة ولادته، غير أنّها انضمّت إلى العمّة نورين في سبَها، ما إن علمت أنّ المرأة التي تبتزّها هي لم تكن غنيّة.

- لا، أنا لن أحتمل أن يُهينني قرويّون بهذه الطّريقة، قالت لويزا. أريد الرّحيل.

اضطرّ جاك لتهدئتها، فاستعادت رُشدها، لكنّها صرّحت، بطريقة قاطعة، أنّها ستستقلّ القطار ما إن يصل المال.

- ليكن ذلك، قال جاك، فأنا أيضاً مللت من الإقامة في قصر لوربْس، ثمّ إنّه سيّان عندي أن أنصرف يوماً قبل الأوان أو يوماً بعده.

- إنّ ما يُقلقني هو هذا المسكين، قالت لويزا، وهي تربّت القطّ النّاظرَ إليها بهيئة متوسّلة مادّاً قوائمه الشّقية. أنا أخاف أن يقتلاه ما إن نُدير لهما ظهرينا. دعني أصطحبه، قُل.

- أنا أيضاً أرغب في ذلك، لكن كيف نتصرّف؟ لو كان فقط مُعافىً.

فاقترب جاك من الحيوان الذي نهض بصعوبة وأطلق مُواءً باكياً عندما لمسه جاك بأطراف أصابعه.

- الحقّ أنّه، مع كلّ شيء، الكائن الوحيد الذي يملك عاطفة من بين من قابلناهم هنا. وبفضل نورين التي لطالما حرمته من فضلات الطّعام التي كنّا نحتفظ له بها، لم نكد نجد الوقت الكافي لجعله يتعلّق بنا.

12

أنت تنفُخين؟

- أجل، قالت لويزا النّائمة على مقدّمة السّرير وهي تميل كي تُطفئ الشّمعة.

- سيّان، قال جاك وهو يبذل جهداً ليتمدّد في المكان الضّيق الفاضل له من السّرير، فنحن سنعود أخيراً إلى سريرَينا الوثيرَين في باريس. لقد مللت حقّاً هذا الفراش غير المريح وهذه الوسادة المحشوّة بالإبر والتي تخز عنقي كلّما تحرّكت!

وعندما انتهى به الأمر إلى أنِ انحشر بصعوبة في فسحة السّرير المنتهية بالجدار، عمّ الغرفة نواحٌ، نواح بطيء وبهيم، سُرعان ما اتّضح مُنبثقاً في صرخة واضحة مُعربة عن ضيق فظيع.

- إنّه القطّ، قال جاك. يا إلهي، ما به؟

أعادت إشعال الشّمعة فلمَحا الحيوان نائماً أرضاً، مُثبّتاً نظره على بلاط الغرفة. كانت شقوق تنفتح في الكتَل المتجمّعة لشعره الذي غدا متصلّباً، أذناه مُلتصقتان برأسه وخاصرتاه تلهثان كمثْلِ منافخِ مصهر.

خنقه فجأة فُواقه العنيف حتّى بدا وكأنّه يُريد أن يغثو بأحشائه من فمه المنفتح على سعته تاركاً لسانه معلّقاً يمسح طرفُه الأرض. شرع يختنق، عيناه خارجتان من جمجمته، ثمّ استطاع أن

يسترجع أنفاسه مُطلِقاً صرخة يائسة، فانبجست من فمه أمواجٌ من الماء.

استرخى مُنهكاً، أنفه في لُعابه، وهمد.

قفزت لويزا من السّرير، مرتعشة الجسد، وحاولت حمله، لكنّ ارتعاشة عبرت بسرعة قمم شعره ما إن حاولت فقط أن تُمسك به.

استعاد القطّ في الأخير وعيه، مُتردّداً، ناظراً ذات اليمين وذات اليسار، وحاول الثّبات على قوائمه، فانتهى به المطاف إلى أن وقف، يرتعش جسده كلّه، فانجرّ في الغرفة ولبد في زواياها، لكنّه لم يستطع البقاء في مكان بعينه، هارباً كما لو كان خطرٌ يتهدّده، ناظراً إلى مكان في الجدار، بعين متألّمة مرعوبة، ثمّ تراجع فتعثّر، فأطلق مواءَ خوفٍ، ونادت عليه لويزا بلطف:

- ميمي، يا صغيري ميمي! عرفها فتأوّه كمثل طفل وألقى عليها بنظرات حزينة جدّاً جعلت لويزا تنفجر باكية.

أراد أن يصعد عليها، لكنّه لم يستطع إلاّ أن يتسلّق وأن يتشبّث بتنّورتها الدّاخلية بمخالبه، جارّاً وراءه خلفيته التي كانت قد ماتت.

كان يُطلق مواءً بُكائياً مع كلّ مجهود يبذله، ولم تكن لويزا تجرُؤ على مساعدته لأنّ جسده كان يبدو وكأنّه لوحةُ مَلامسَ للألمِ تُطلق أصواتاً في أيّ مكان لمسناها.

عندما استقرّ على رُكبتيها حاول أن يُطلق هريراً ضعيفاً، لكنّه أمسك عنه، وحاول النّزول من جديد، فانزلق ببطء على قوائمه التي انفرجت، وظلّ ثابتاً في مكانه، مُشوّك الشّعر منفوخ الذّيل، أذناه منكّستان، ثمّ عاود الهروب داخل الغرفة وشرع لُهاث خاصرته يتصعّد.

- ستجتاحه نوبة ألمٍ جديدة، قالت لويزا.

وبالفعل، فقد عاوده الفواق والغثيان. شرع يقفز حول نفسه، مُلقياً برأسه إلى الأمام، باذلاً جهداً جبّاراً وكأنّه يُريد أن ينفلت من جلده، ساقطاً من جديد على بطنه، فخرج الزّبد من فمه يغلي، فتمدّد مُجمّداً، الشّفتان مقلوبتان والأسنان عارية.

- هو مريض جدّاً، قالت لويزا مُتنهّدة.

- آه! هي ليست آلامَ مفاصل كما كنّا ظننّا، إنّه الشّلل حقّاً، قال جاك وهو يفحص، خارج السّرير، خطم الحيوان المضطرب وجمودَ جزئه الخلفيّ.

ومن جديد عاد القطّ إلى وعيه فوقف. استعادت قسماته شكلها الاعتياديّ ونزلت الشّفتان على الأسنان، غير أنّ شحوباً ظاهراً جدّاً أغرق وجهه، وعكست عيناه ألماً حقيقياً، مُعربتين عن خيبة كبيرة، وعن ألم فظيع.

فرشت لويزا أسفل السّرير تنّورة داخلية فتمدّد عليها. كان يبدو مُنهكاً، خائر القوّى، شبه نافق، غير أنّه دفع أمامه، مع ذلك، بمخالبه التي جعلت تخرج من قوائمه المتشنّجة وتدخل فيها، سابراً الغرفة بحدقتين سوداوين برّاقتين.

ثمّ تعالت حشرجات في حنجرته التي تشنّجت وانغلقت عيناه.

- انتهت النوبة وستخمد رويداً رويداً، قال جاك. عودي إلى نومك، فأنت ستتألّمين في الأخير إن ظللت مستيقظة.

- لو كان عندي فقط بعض الكلوروفوم أو أيّ شيء للإجهاز عليه، لما كنت تركته يُعاني من هذه الاضطرابات، قالت لويزا.

ظلاّ صامتين، وسط الظّلام، مدهوشين من أن يُعاني حيوان شقيّ هذه المعاناة كلّها.

- أما عدت تسمعينه؟ سأل جاك.

- بلى، اسمع!

كان القطّ قد غادر التّنورة وأخذ يعمل جاهداً على تسلّق الكرسيّ لينتقل منه إلى السّرير. كان يُسمَع نفَسُه العجِل وصوت أظافره يخدش الخشب. ثمّ حلّ الصّمت، فواصل طريقه، بعناد، بعد لحظة استراحة، وعلا اعتماداً على قوائمه، ساقطاً من جديد، ومعاوداً التّسلّق، مُطلقاً حشرجات تقطعها تأوّهات.

أدرك السّريرَ فترنّح ثمّ استعاد توازنه وانحشر بين جاك ولويزا.

ما عاد أيّ منهما يجرؤ على التّحرك، لأنّ أدنى حركة منهما كانت تُؤدّي إلى شكاوى تُمزّق القلب.

بدأ يتشمّمهما، مُحاولاً من جديد إدارة خلفيّته كي يُدلّل لهما على أنّه سعيد بالقرب منهما، ثمّ انتصب، وقد اجتاحته اهتزازة، ومرّ على لويزا، محاولاً النّزول من السّرير، فانقلب وتدحرج على الأرضية، مُطلقاً صرخة حيوان يُذبح.

- انتهى الأمر هذه المرّة، قال جاك، فأطلقا تنهيدة ارتياح. رأت لويزا على ضوء شعاع عود ثقاب، الحيوان مُلتوياً يضرب الهواء بمخالبه، مُغثياً بزبد وغاز.

وفجأة شرعت تسحب زوجها من يده، مرعوبة.

- آه! انظر، إنّها وخزات الآلام المفاجئة!

وبالفعل، كان القطّ يُحرّك قوائمه باهتزازات غير منتظمة، وكانت أدخنة تنساب في وبره الذي كانت ارتعاشات تُدغدغه دون أن يجعله ذلك يتحرّك.

ثمّ أضافت بصوت مُتغيّر: هو مُصاب بها أيضاً، إنّه الشّلل مُقبلٌ!

- كلّا، يا لك من بلهاء! ثمّ شرح بحماسة أنّ هذه الاهتزازات التي تظهر في الجلد لا علاقة لها البتّة بالآلام المفاجئة التي تتحدّث هي عنها. أنت مُصابة بمرض أعصاب، لا أكثر! يا للشّيطان! هناك فرق شاسع بين هذا وبين الاختلاج الكهربائيّ! وفضلاً عن هذا فإنّ أكبر دليل على ما أقول هو هذا: يُعاني القطّ من آلامه منذ دقيقة، وها هو يُحتضر، بينما أنت تُعانين منها منذ أشهر ومع ذلك فإنّ حركتك لا تزال خفيفة! ثمّ يا لها من سخافة أن نبحث عن أوجه شبه بين أمراض الحيوانات وأدواء النّساء!

لكنّ صوته لم يكن واثقاً بالقدر الكافي. وفي التماعة واحدة رأى من جديد الأطبّاء صامتين، وتذكّر هيئاتهم القاطعة ونظراتهم المنسحقة والضّائعة... كلّا! فهم لم يكونوا يعرفون عن المرض شيئاً، لم يكونوا يعرفون عنه أكثر ممّا يعرفه هو! فهو رُحامٌ حسب البعض وعصابٌ حسب البعض الآخر! إنّه أمر لا يعرفونه! هو دفقات دم عصبيّة لا يملك أمامها، في الوقت الحاضر، أعلَمُ العلماء إلاّ أن يُقرّ بعجزه، مُتلعثماً!

حدَس أنّ تفسيراته هذه كانت تفتقد للمهارة، وأنّ هذه العجلة في محاولة تغيير قناعة لويزا كانت شبيهة باعتراف، وأنّ هذه الحاجة إلى المناقشة والإقناع كانت تشي بوضوح بأنّ التّوجّسات حقيقية. اغتاظ من نفسه ثمّ من هذا القطّ الذي كان السّبب غير المقصود في هذه الآلام. أوه! لينفق! أسرّ لنفسه. بعد ذلك فكّر أنّ من غير المجدي أن تحزن لويزا وهي تشهد احتضار هذا الحيوان.

- هيّا! فنحن على أيّ حال لن نقضي ليلة بيضاء بسبب هذا الحيوان، لا سيّما وأنّنا سننصرف غداً. إنّ أيسر شيء، على ما أعتقد، هو أن نلفّه في هذه التّنورة الدّاخلية وأن نحمله إلى المطبخ.

لكنّه اصطدم بالرّغبة العنيدة لزوجته التي غضبت واتّهمته بقسوة القلب.

انحشر تحت ألحفته متذمّراً. هو لم يعد له سوى رغبة واحدة؛ أن ينفق هذا القطّ. هو في الأصل ليس قطّي ونحن لا نعرفه، خاطب نفسه قائلاً، كي يُبرّر قليلاً الطّابع الأنانيّ لرغباته. آه! ثمّ إنّنا سنستقلّ القطار السّريع في غضون ساعات، ويجب وضع حدّ لهذا كلّه!

همد القطّ. كانت لويزا الجاثية على ركبتيها تنظر إلى عينيه اللّتين أضحى ماؤهما مائعاً ومزرقّاً كأنّه مُجمّد ببرد قارس.

عادت إلى النّوم، حزينة، وأطفأت الشّمعة، فتظاهر كلّ منهما بالاستغراق في النّوم تفادياً لتبادل الحديث بينهما.

- لو كانت السّاعة فقط الخامسةَ لكنت نهضت، فكّر جاك. يا إلهي! يا لها من ليلة ليلاء! أنا أخشى من أن تكون لويزا مصابة بمرض لا شفاء منه. وماذا لو كان الأمر دقيقاً، على أيّ حال! ماذا لو كان الأطبّاء قد كذبوا عليّ! ولو كانت هذه الرّفسات أعراضاً مؤكّدة لمرض الاختلاج!

وعلى الفور لمح القسمات المشوّهة لزوجته، الشّفتان مقلوبتان، تلفظان فقّاعاتٍ، فنقل الأعراض المؤلمة التي شاهدها من القطّ إلى لويزا، ورآها كما كان من المفترض أن تكون في تلك اللّحظة مُستغرقة في هلوسات واضحة الفظاظة.

كان على وشك إطلاق صرخة، مُستغيثاً، لكنّه ثاب إلى رشده وتعقّل، مُقرّراً أن يَعُدّ من واحد إلى مائة كي يتعب ذهنُه وينام. مدّ ذراعيه في الهواء وعرّى عنقه حتّى يبرد فيسترخي، لأنّ الانحشار تحت اللّحاف يجعله يدفأ. لكنّه عندما أدرك الرقم عشرين، طفِقت الأرقام تنهمر من تلقاء نفسها، تابعةً المنحدر الذي أطلقها فيه، فعاد، مُعرضاً عنها، إلى حالات تفكيره المرعبة.

- هذا كثير، قال مخاطباً نفسه، وهو يقف من هذه الأرقام موقفاً مُعانداً. سعل بخفوت.

- هل أنت نائمة؟ سأل زوجته، لأنّه كان يأمل أن يعمل ضجيج الكلام على تبديد الكوابيس المستيقظة والمتسلّطة عليه.

- لا، أجابت بصوت بهيم.

عندئذ راح يُحدّث نفسه، ضائعاً في استطرادات لا جدوى منها حول الصناديق التي يجب إعدادها للرّحيل، والأشياءِ التي يجب حملها، مشغولاً بالقدرة الاستيعابية للحقائب، مُحاولاً أن يربح، بشكل ما، بعض الوقت من اللّيل، لكنّ شفتيه كانتا تتلفّظان ببعض الأصوات النّمطية، مُتحرّكتين من تلقاء نفسهما، دون أن تكونا مقودتين بذهنه العائدِ أدراجَه والعاثِر على آثار الطّريق التي كانت مراوغاته قد حاولت سدىً تضليله عنها.

غير أنّه صمت في نهاية المطاف ونام. وهو إن لم يكن استغرق في نومه فهو على الأقلّ كان قد غاب عن آلامه.

وعندما أفاق فجأة، فجراً، عاش من جديد، في ثانية واحدة، ما عاشه ليلاً فقفز من السّرير.

ماذا حلّ بالقطّ؟ رآه ثابتاً لا يتحرّك مُنهكاً على التّنورة، فناداه بصوت خافت. لم يُحرّك الحيوان أيّاً من أطرافه لكنّ ارتعاشة عمّت على الفور وبره.

- زوجتي على صواب، يجب أن نتّصف بقدرٍ من الشّجاعة وأن نُصفّيه، أسرّ لنفسه. كانت الشّفقة قد تسلّلت إلى داخله وهو يُشاهد احتضار هذا الحيوان.

كان يودّ الفرار بسرعة من تلك الغرفة الملعونة. يا لها من ليال عانيتها فيها! فكّر. ليلة أولى رهيبة وأخريات جنونية وأخيرة فظيعة!

نزل وشرع يتجوّل في الحديقة، فجعلت كراهيته للوربْس ورغبته في الرّحيل تتخفّفان، بالموازاة مع تقدّمه في المشي.

كان الجوّ بديعاً على البساط العشبيّ، دافئاً خلف هذه الأسيجة المزيّنة بأوراق النّباتات، وكان الهواء، المُنَخّل بأشجار التّنوب، ينضح بالرّائحة المخفّفة للتّربنتِين والصّمغ. وكانت رائحة عفصية للّحَاءِ تصعد من طحالب الأرض المتحرّكة فتُصبح أقوى شبيهة بانبعاثاتِ أملاح مُستنشقة. والقصر الذي أحيته أشعّة الشّمس تخلّص من مظاهره القبيحة واستعاد شبابه وتزيّن في غنج احتفالاً برحيل جاك. حتّى حمامه البرّيّ الذي لم يكن بالإمكان الاقتراب منه ولمسه شرع يتبختر في الحوش وينظر إليه، ولا يهرب من رؤيته يقترب. كان الأمر شبيهاً، بعض الشّبه، بوداع متغنّج تنضح به هذه الأمكنة المهملة التي عاش هو فيها ساعات حزينة طويلة.

شعر بقلبه ينقبض وهو يمرّ لآخر مرّة تحت قبّة الممرّات الخالية، ناظراً إلى عناقيد العنب الملتفّة حول أشجار الصّنوبر فيغدو شكلها شبيهاً بمعابد متدلّية أجراسُها. انتهى الأمر، هو سيعود هذا المساءَ نفسَه إلى باريس ويتغيّر وجوده.

ومن كثر ما كان أجّل عودته إلى أوقات غير محدّدة، صعقه انشغاله المُفاجئ بمعرفة الطّريقة التي سيعيش بها في باريس. كان يُجيب نفسه: سأرى، مُقترحاً على نفسه طُرقاً مضمونة بهذا القدر أو ذاك، غير أنّه لم يكن ينخدع بإجاباته، وإنّما كان يُسكّن بها قلقه ويُفتّته ويُخفّفه ويشتّته ويُبدّده بأشباهِ حلولٍ يكاد يُصدّقها هو نفسه على الفور.

ثمّ إذْ أصبحت العودة في تلك اللّحظة أكيدة ووشيكة، فقدَ شجاعته كلّها وتخلّى حتّى عن أن يضع لنفسه خططاً لمستقبله.

ما جدوى ذلك؟ فهو كان يلج المجهول، والتّوقعات الوحيدة المنطقية التي يُمكنه أن يجرؤ عليها هي الآتية: يجب البدء في التّحرك بمجرّد الوصول، فيقوم بزيارة هذا وانتظار ذاك ويعيد ربط علاقات بأشخاص يحتقرهم بغرض الحصول على عمل أو منصب جيّد. «يا لها من سلسلة من المواقف المُذلّة، ويا لها من إهانات متتالية سأتعرّض لها، أسرّ لنفسه. آه! لقد حانت لحظة التّكفير عمّا اتّصفتُ به حتّى الآن من استخفافٍ بمصالحي!»

كم كانت الوحدة هنا جميلة! فهو على الأقلّ لم يكن يرى أحداً باستثناء القرويّين! أجل، من أجل ضمان خبزه، سيذهب للرّعي مع الآخرين، وسط الجمهرة الكريهة للجموع!

ثمّ، وعلى افتراض أنّه سيعتاد على الحياة الفقيرة المضطربة، ما الذي ستكون عليه حال لويزا؟ تصوَّرها مريضة وعاجزة، ثمّ استحضر النّتائج المقيتة للاختلاجات الواخزة المفاجئة؛ استحضر الكراسيّ المتحرّكة الخاصّة، والأغطية المشمّعة، وقطع القماش التي توضع بين السّرير

والشّراشف، والملابس المغسولة، وكلّ فظائع الأجساد الهامدة التي يجب أن نكون في خدمتها؛ «لن يكون بإمكاني البتّة إبقاؤها معي، ما دمت سأكون عاجزاً عن تشغيل خادمة. سيكون من الضّروريّ إذن وضعها في دار عجزة»! كان وقع هذه الأفكار عليه شديد القسوة، ما جعله يذرف دموعاً.

غير أنّه من غير المجدي فَقْدُ الأمل سلفاً وبهذه الطّريقة. لكن، في الأخير، حتّى إذا ما استعادت لويزا عافيتها، ألم تنقطع سلفاً الرّوابط التي كانت تجمع بيننا؟ لقد احتككنا فيما بيننا هنا بما يكفي حتّى غدا مُستحيلاً أن يتبدّد انعدامُ تقديرنا أحدنا للآخر! لا، لقد انتهى حقّاً كلّ شيء كان يجمعنا، ومهما حصل، فإنّ وجودَينا قد فقدا ما كانا يتّصفان به من هدوء!

لكن، مهلاً، أسرّ لنفسه وهو يمسح دموعه، فليس هذا هو كلَّ مدارِ اهتمامنا؛ نحن سنرحل خلال ساعات ويجب إعداد الحقائب.

صعد إلى غرفته فوجد زوجته قد استيقظت وشرعت تطوي ملابسها.

- آه لو لم يكن لي هذا القطّ! لكنت سعيدة حقّاً بالعودة إلى باريس.

- ليس أمامه أكثر من ساعتين يعيشهما. انظري، لقد تزجّجت عيناه وجعلت حشرجاته ترتفع.

رتّب أوراقه وأعدّ أموره، بينما أشعلت زوجته النّار لإعداد الغذاء.

تردّدت فجأة أصوات خطوات في السّلّم ودخل ساعي البريد.

- وصلتُ قبل الوقت المعتاد لأنّني أتيتكما ببريد جيّد!... ثمّ أخرج الرّسالة المنتظرة مدموغة بطوابع خمسة.

تجلّل الوجه الملفوح لساعي البريد وبدا شعره شبهُ الرّمادي يكاد يكون مهيباً. كانت أهمّية هذه الرّسالة التي تحوي مالاً قد بدأت تُغيّر ملامح وجهه، صابغةً بالنّبل حتّى ضحكته الصّادرة عن فم السّكير الأدرد الذي يملكه.

جلس، حاكّاً رأسه براحة كفّه، ناظراً إلى استعدادات الأكل التي بدأت، وإلى المائدة، فبدا واضحاً أنّه كان يتأسّف على استعجاله القدوم.

- هذه هي آخر رسالة تأتينا بها، أيّها السّاعي، قال جاك وهو يُمضي على وصل الاستلام. فنحن سنرحل إلى باريس هذا اليوم نفسه.

كاد الشّيخ ينقلب من مقعده.

- أوه، أوه، أوه! وأنا الذي كنت أحسب أنّكما ستمكثان هنا حتّى فصل الشّتاء، أوه، إنّ هذا الخبر جعل قلبي ينقبض حقّاً. صحيح أنّ مجيئي إلى هنا كان يجعلني أمشي أكثر، لكن ماذا كنت أخسر

من ذلك؟ فأنا كنت آتي هنا عند شخصين شهمين معتزّين بنفسَيهما، وقد كنّا حقّاً أصدقاء. آه اسمعا، إنّ بإمكانكما، يا سيّدتي الشّابة، وعلى ذمّتي، أن تقولا إنّني سآسف عليكما، أنتما، واصلَ القول بنبر مشكوك فيه شرعت تُكذّبه على الفور نظرتُه الماكرة الخفية. لكن هل بإمكان هذا الخبر أن يمنعنا من شرب كأس نبيذ أخيرة في صحّتكما؟ ثمّ استرق النّظر إلى القنّينة.

كان جاك يستعجل انصرافه.

- خذ، أيّها الأب مينيو، هذه عشرة فرنكات تعويضاً عن إزعاجنا لك، والآن، في صحّتك، ومدّ الكأس في اتّجاهه.

وضع ساعي البريد بكفٍّ القطع النّقدية في جيبه وألقى بالأخرى في حنجرته بالنّبيذ دفعة واحدة، فطلب الإذن بأن يجتزئ لنفسه قطعة خبز، مُفكّراً، عن حقّ، أنّهما لن يتركاه هكذا يأكل دون شراب.

كرع، بتلك الطّريقة، غالبية لتر النّبيذ، ثمّ نهض ومدّ ساقيه القذرتين، ثمّ قال بلطفٍ إنّه سينتظرهما السّنة المقبلة، وانصرف، مُتعبَ الهيئة وهو يُلقي بالقطعتين النّقديتين في جيب سرواله الدّاخليّ.

- آه! أنتما إذن تُريدان ألّا تأتي رسائل إلى هذا البلد؟ صاح العمّ أنطوان الذي أتى لحظات بعد انصراف ساعي البريد.

- لماذا تقول هذا؟

- لماذا؟ لأنّه سيتوقّف عند أوّل حانة ويشرب إلى أن يفقد وعيه.

- هذا غريب! بلد لا يتلقّى أيّ رسالة لأنّ الباريسيَّين أثملا ساعي البريد. لكن، مهلاً، فنحن لا وقت لنا نُضيعه لأنّنا سنستقلّ القطار السريع، قطار الرّابعة وثلاث وثلاثين دقيقة. لنُصفّ حساباتنا لو تكرّمت.

- القطار السّريع! ستنصرفان! يا إلهي، هل هذا ممكن! كيف حصل هذا؟

- أجل، فقد وصلتني هذا الصّباح أخبار تُجبرني على أن أكون في باريس حوالى السّاعة السّادسة.

- لكن لويزا ستبقى، أليس كذلك يا صغيرتي؟ سأل الشّيخ وهو ينظر بطرف عينه إلى النّقود الموضوعة على المائدة.

- لا، سأرحل أنا أيضاً.

- ما هذا، ما هذا!

- هيّا، قال جاك، بِكَم أنا مدين لك؟

عندئذ أخرج الشّيخ من صدريّته ورقة مدعوكة مطويّة على أربعة.

- هي مليئة بالأرقام، وباريزو هو من قام من أجلي بالحسابات، مع ما يلزم أن آخذه من فوائد. انظر يا ولدي إن كان هذا يُناسبك.

- يناسبني جدّاً، غير أنّني لا أملك قطعاً نقدية صغيرة.

- لا ضير في ذلك، فأنا لديّ هنا بعضٌ منها.

نهض واستخرج من جيب معطفه صرّة طويلة.

لقد وضع الشّيخ كلّ الاحتمالات عندما علم أنّني استلمتُ المال، أسرّ جاك لنفسه.

أعاد الشّيخ لجاك القطع النّقدية، قطعة قطعة، مُحتفظاً بين أصابعه بكلّ واحدة منها، وهو يُهمهم: إنّ ما أسلّمك إيّاه هو ذهب خالص، مُخفياً بصعوبةٍ ارتياحاً شبه هازئ، لأنّه استغفل لتوّه الباريسيِّين، كرّةً ثانية، بجعله الفوائدَ تمتدّ ليس فقط من اليوم الذي أدّى فيه الثمن للتّاجر، وإنّما انطلاقاً من اليوم الذي طلب فيه البرميل.

- حساباتك، هل هي مضبوطة؟

- أجل، يا عمّاه.

- لكن يا ولدي، إن كنت ستنصرف فعليّ أن أُعدّ الحمار والعربة.

- حقّاً ستُسدي لي معروفاً بقيامك بذلك.

- طبعاً... طبعاً، لكنّنا لن نفترق بهذه الطّريقة. عليكما أن تأتيا معي لتناول لقمة في بيتي.

- غدائي جاهز، قالت لويزا.

- هذا ما لا يجب! سأحمله وسنأكله إذن مجتمعين.

استشارت لويزا زوجها بنظرة.

- ليكنْ، قال جاك، أنت على حقّ يا عمّ، أقلّ شيء يُمكننا أن نقوم به قبل الفراق هو أن نتبادل أنخاباً.

حرص العمّ على حمل السّلة المليئة بالأكل، مُفكّراً أنّ من الممكن أن يحتاج إلى ابنة أخيه في باريس، فينزل عندها ليرتاح عندما يذهب إلى شاندلور ليُصفّي حساباته.

- هما ذاهبان! صاح وهو يدخل بيته.

أسقطت نورين من يدها، فجأةً، المقلاة.

- آه، حسناً، ليكن! ثمّ ذرفت دمعة، وخشيةَ أن تزجرها ابنة أخيها التي كانت تُقلقها هيئتُها المحتقِرة مدّت ذراعيها الطويلتين الجافّتين تُجاه جاك، فقبّلته بطريقة آليّة على خدّيه.

- حقّاً! ما العمل إذن؟ هي ذي أخبار غير طيّبة! وأنا التي كنت أقول إنّ عليَّ أن أُعدّ لهما فطائر، أتسمع يا ابن الأخ، فطائر مُحلاّة مقليّة، لا أجود منها! يا له من شقاء! آه! حان الوقت على ما أحسب، فها أنا أراهما منذ الآن بعيدَين!

تمتمت وهي تقترب من المائدة: سنشعر بالفراغ هنا. ثمّ جعلت تذرف دموعاً وهي تغسل الكؤوس.

- لكنّكما ستعودان السّنة المقبلة.

- بالتّأكيد.

أكلوا صامتين. كانت نورين تئنّ مُنحنية على صحنها. ومُنزعجاً من خرس جاك ولويزا اللّذين ظلاّ ساهمين وحزينين، اقتصر الشّيخ على أن قال، وهو يملأ الكؤوس: هيّا، كأساً أخرى يا رجل، فأفرَغ كأسَه مُفرقعاً شفتيه ثمّ مسحهما بظهر كفّه.

- لا يُمكننا أن نتأخّر أكثر من هذا، قالت لويزا، لا تزال لي أمور عليّ ترتيبها في القصر وساعة القطار تقترب.

- ستحملين معَكِ بالتّأكيد أرنباً.

ورغم مُحاولتهما ثنيها عن ذلك، كان لازماً الرّضوخ، فخنقت العمّة نورين أرنباً وحملتها وهي بَعدُ دافئة، ملفوفةً في قشّ.

- أثناء قيّام لويزا بشؤونها سيكون لنا وقت لنشرب كأس كونياك، ثمّ نربطُ الحمار إلى العربة، قال العمّ.

قرعا كأسيهما وتعهّد جاك، دون أن تكون له النّية في الوفاء بوعده، بالكتابة للشّيخ ما إن يصل إلى العاصمة.

أخرج الأب أنطوان في الأخير العربة من الهُري وربط ذراعيها إلى الحمار، فوصلا إلى قصر لورنْس يتمايلان.

- لقد حملت القطّ إلى غرفة بالطّابق العلويّ، وتركت له التّنورة الدّاخلية حتّى لا يشعر بالبرد، كما وضعت له ماءً يشربه إن عطش. أنا أفضّل أن يموت من تلقاء نفسه على أن أعلم أنّ نورين قد صرعته بهراوة، قالت لويزا. هو لم يعد يتألّم، غير أنّه لم يعرفني، المسكين ميمي، إنّه متوتّر جدّاً.

- هل نحن مستعدّون، صاح العمّ أنطوان، وهو يُكدّس الصناديق والحقائب في العربة. هيّا بنا!
فشرعوا يرتجّون ويميلون بعضهم على بعض، في هذه العربة القاسية التي كانت عجلاتها تقفز عند كلّ اصطدام بالحجارة.

كان جاك يجلس في عمق العربة على حزَمِ كلأ وهو يتفحّص هذين المزارعين اللّذين تمنّى ألّا يعود أبداً لرؤيتهما.

- إنّهما يواسيانني في مغادرتي لهذا المرفأ البائس الذي كدتُ أجد فيه مكاناً أفيء إليه، فكّر جاك، فأنا أفضّل، على أيّ حال، عند إبدال أشخاص رذيلين بآخرين مثلهم أن أرتاد من هم أرهف وأكثر ليونة.

- قل لي يا ابن الأخ.

- ماذا، يا عمّة؟

- إن كانت لكما أنت أو لويزا ملابس لم تعودا تستعملانها، فنحن نجعل منها هنا ملابس الآحاد!

- هناك افتقار حقيقيّ للملابس القديمة! قال العمّ.

وعدهما جاك، المتعب، بكلّ ما يُريدانه.

- سنستمرّ طويلاً في التّفكير فيكما!

- ونحن أيضاً.

- فأنتِ مثل ابنتي الحقيقية، واصلت نورين القول، بصوت مُتَباكٍ، ناظرة إلى ابنة أخيها.

- أخيراً! هي ذي المحطّة، تمتم جاك قائلاً. وعندئذ، وبعد أن أُنزلت الأمتعة من العربة، فتح المزارعان ذراعيهما وقبّلا باحتدادٍ جاك ولويزا على خدّيهما، ذارفَين دموعاً.

وبعد أن استقرّ الباريسيّان في المقطورة، ساطا حمارهما وقال الأب أنطوان، بعد لحظة صمت:

- أنا أجيد السّمع، أنا؛ لقد سمعتها تحكي لجاك أنّها تركت تنّورتها للقطّ المحتضر.

- ما هذا الهراء!

- أجل، هي قالت ذلك.

- ليكن إذن.

ومخافة أن يُبليَ القطُّ القماشَ بمخالبه لمدّة أطول، توجّها توّاً، وزحفاً، نحو القصر.

1. لا بْري La Brie، منطقة فرنسية تقع في الجانب الشّرقي من الحوض الباريسيّ. ↑

2. المسماك: وتد من الخشب يُستخدم لإسناد نبتة. (الحواشي هي من إعداد المترجم إلّا إذا وردت بذلك إشارة مخالفة.) ↑

3. ورد في العهد القديم (الآيات 12-17)، من سفر إستير: «... بلغت نَوبة فتاة... للدّخول إلى الملك أحشويروش بعد أن يكون لها حسب سُنّة النّساء اثنا عشر شهراً لأنّه هكذا كانت تكتمل أيّام تعطّرهنّ ستّة أشهر بزيت المرّ وستّة أشهر بالأطياب وأدهان تعطّر النّساء...» انظر تفسير هذا الحلم في صفحات لاحقة، وعلاقته بسفر إستير الوارد في العهد القديم. ↑

4. طائر من صنف البوميّات. ↑

5. باختريا هي منطقة من دول أفغانستان وطاجكستان وأوزبكستان. ↑

6. كبادوكيا (وكذلك قبادوقيا وقبادوقية وقبادِق) هو الاسم التّاريخيّ لإقليم يوجد في آسيا الصّغرى (تُركيا الحديثة). ↑

7. شوشانيون، نسبة إلى مدينة شوشان أو سوسة الإيرانية. وهي من أقدم المدن إذْ كانت عاصمة لإيران في عهد داريوس. ↑

8. يُوظّف ويسمانس هنا سفر إستير في العهد القديم، الذي يحكي أنّ أحشويروش ملك فارس، في ذلك الزّمان، كان قد طلّق زوجته فأُقيمت مسابقة لاختيار زوجة جديدة له، فازت فيها إستير الفتاة اليهودية من بين الفتيات المتقدّمات للمسابقة. وكانت قد تقدّمت لها بإلحاح من مردخاي، عمّها والدّاعية اليهوديّ. وكان هامان عندئذ قد رُقّي فأصبح الرّجل الثّاني في القصر، غير أنّ مردخاي لم يكن يحترمه ولا يسجد له عند دخوله القصر أو خروجه منه، لذلك أضمر لليهود جميعاً غلاً، فأراد إبادتهم عن بكرة أبيهم. استغلّ مردخاي وجود إستير في القصر، فطلب منها أن تتدخّل عند الملك لإنقاذ اليهود من بطش هامان، وبعد تردّد نفّذت

ما أوصاها به، وكانت النّتيجة رضا الملك عنها (مدّ صولجانه لتُقبّله) ونقمته على هامان الذي مات مصلوباً على الخشبة نفسها التي كان نصبها لصلب مردخاي... ويبدو أنّ ويسمانس يُوظّف الواقعة بطريقة توحي أنّ إستير كانت مدسوسة داخل القصر، هدفها أخذ وعد من الملك، عن طريق الإغواء، بحماية بني جلدتها. ↑

9. أرتميدوروس دالديانوس Artemidorus Daldianus، أو أرتميدوروس الإفسيّ Artemidorus d'Ephèse، عاش في القرن الثّاني الميلادي، وهو غير أرتميدوروس الجغرافيّ الذي عاش في القرن الأوّل. ألّف في تفسير الأحلام كتاب تعبير الرؤيا، الذي ظلّ قروناً كتاباً مرجعيّاً في مجاله. ↑

10. الحضون روح شرّيرة والسّقوبة روح شيطانية، حسب المعتقدات الغربية في القرون الوسطى. ↑

11. فلهيلم ماكسميليان فوندت Wilhelm Maximilian Wundt (1832-1920)، عالم نفس وفيلسوف ألماني، هو مُؤسّس أوّل مختبر لعلم النّفس التّجريبيّ. ↑

12. رأس الموريّ La tête du More (كما تُكتب في شكل La tête du Maure) هو شعار يحمل رسم وجهِ رجل موريّ (وكانت التسمية تُطلَق على الأفارقة، المسلمين منهم بخاصّة). ظهر الرّسم في القرن الثالث عشر في ختم بيدرو الثالث عاهل مملكة الأراغون Aragón الإسبانيّة، ويصوّر حسب المؤرّخين القدّيس موريس، وهو قسّ مصريّ من النّوبة مات اغتيالاً. كما ظهر الشعار نفسه في علم كورسيكا في القرن الثامن عشر، وتتضارب التّأويل في سبب اختياره، هل هو لتمجيد انتصار الكورسيكيّين على المسلمين في إحدى المعارك، أم لسبب قريب من ظهوره في ختم ملك الأراغون. ويلعب التعبير «رأس الموريّ» في صفحة ويسمانس هذه دوراً تزيينيّاً لا غير. (المُراجِع) ↑

13. واضح أنّ «العظاءة» تسمية تحبّبيّة يمنحها الشيخ المتكلّم لبقرته. (المُراجِع) ↑

14. نعْت العجل بالجمهوريّ في مزحة أشيل آتٍ على الأرجح من احمرار جفنَي العجل، وكان الجمهوريّون وعموم المتمرّدين في العهد الملكيّ في فرنسا يُنعَتون بالحُمر. (المُراجِع) ↑

15. حمٌّ جمع «حمّة»، وهي كلّ عينِ ماءٍ حارّة تنبع من الأرض يُستشفى بالاغتسال من مائها. ↑

16. Oceanus Procellarum (باللّاتينية)، Océan des tempêtes، محيط العواصف، هو بحر قمريّ يقع في الجهة الغربية من الوجه الظّاهر للقمر، وسيذكر الكاتب بعد قليل بحوراً قمرية أخرى. وهي في الأصل سهول بازلتية شاسعة ومظلمة تقع على القمر، تكوّنت عن طريق انبعاثات بركانية سحيقة، وقد ظنّها الفلكيون القدامى بحاراً لعدم امتلاكهم، آنذاك، مسابر علمية مُقرِّبة. ↑

17. منذ الفيلسوف الإغريقي ديموقريطس، المتوفّى سنة 370 قبل الميلاد، ساد الاعتقاد أنّ هناك سلاسل جبلية توجد على القمر. أمّا أوّل من تفحّص القمر بتلسكوبّ علميّ ورسم خريطة محدودة لسطحه، فهو توماس هاريوت، سنة 1609، فأتى بعده يوهانس هيفيليوس الذي كان أوّل من رسم خريطة تفصيلية لسطح القمر، سنة 1647، ثمّ أتى علماء آخرون بعد ذلك، كانت خرائطهم أكثر دقّة وسمّوا الجبال والفوّهات البركانية بأسماء علماء مرموقين، سيذكر الكاتب هنا عدداً منها. ↑

18. أَخلاط الإنسان في الطب القديم هي أَمزجته الأَربعة: الصَّفراء والبَلْغم والدّم والسَّوداء. (المُراجِع) ↑

19. هايدلبرغ Heidelberg مدينة تقع في الجنوب الغربي من ألمانيا. ↑

20. أطلس Atlas وأونسيلادس Enceladus، عملاقان أسطوريان في الميثولوجيا الإغريقية. ↑

21. يُشير هنا إلى ما سُمّي في فرنسا بالمشروع الكبير (Le grand projet) للويس الرّابع عشر (1638-1715) الذي كان عمل على بناء قصر خارج باريس، بفرساي، يكون في مستوى عظمة حكمه، فأنشأ مع البناية حدائق عمَرَها بمختلف أصناف الأشجار والنّباتات، وحفر أحواضاً وفق حسابات هندسية تخدع الرّؤية فيعتقد من يوجد على باب القصر، مثلاً، أن الأحواض قريبة جدّاً منه. ↑

22. غوتا Gotha مدينة ألمانية. ↑

23. يوهان غيورغ يوستوس بيرت (1749-1816) Johan Georg Justus Perthes، ناشر ألماني مؤسّسٌ لدار نشرٍ تحمل الاسم نفسه. ↑

24. فلهيلم بير (1797-1850) Wilhelm Beer، عالم فلك وباحث في الجغرافيا القمرية. ↑

25. يوهان هاينريش فون مادلر (1794-1874) Johann Heinrich von Mädler، عالم فلك ألمانيّ. ↑

26. سلسلة جبال القوقاز Caucase، من السّلاسل الجبلية القمرية. ↑

27. سلينيه Séléné هي في الميثولوجيا الإغريقيّة إلهة القمر، تصوّرها الأساطير واللوحات التشكيلية فتاة ناصعة البياض تجوب السماء في عربة فضيّة يجرّها جوادان. (المُراجِع) ↑

28. البراهمابوتر Brahmapoutre، ومعناه (ابن البراهما)، نهر بآسيا الجنوبية ينبع من جبال الهيمالايا التيبيتية، يبلغ طوله 2900 كلم. ↑

29. تيشو Tycho فوّهة بركان تقع على الجبال القمرية الجنوبية. وهي تحمل اسم الفلكيّ الدانمركيّ تيشو برا Tycho Brah. ومعروف أنّ فوّهات براكين قمرية كثيرة تحمل أسماء علماء مسلمين وعرب قدامى كابن سينا والبيروني وابن يونس وابن الهيثم وغيرهم. ↑.

30. «السافات» Savate، أو فنّ «السافات» L'art de la savate، نوع من الملاكمة، يعود تاريخه إلى القرن التّاسع عشر، وأصبح يُعرف بعد ذلك، في القرن العشرين بالملاكمة الفرنسية. تقوم على أن يتواجه خصمان يحملان قفّازات في أكفّهما وأحذية بأرجلهما، فيتضاربان بقبضة اليد كما برفسات من الأرجل. وتعني لفظة Savate، في اللّغة الفرنسية العتيقة الحذاء القديم الطراز. ↑.

31. التهاب في الرّحم. ↑.

32. القبلانية (الكابالا) La Kabbale، هي طريقة «صوفية» لدى اليهود لاكتشاف العالم الرّوحيّ ومعرفة الخالق. وهم يُحاولون من خلالها الإجابة عن أسئلة من قبيل: ما هو سبب وجود الإنسان ولماذا ولد ولماذا يعيش وما هو هدفه في الحياة ومن أين أتى وما هي وجهته بعد أن يُكمل حياته في هذا العالم؟، إلخ. ↑.

33. «مذبحة الأبرياء le Massacre des Innocents»، مذبحة ارتكبها الملك هيرودس الكبير، ملك يهودا (37 - 4 ق. م.)، عندما أمر، بُعيد ميلاد المسيح، بقتل المواليد الذّكور الذين يصل عمرهم اثنتي عشرة سنة أو يقلّ عنها، في بيت لحم، خوفاً على مُلكِه. ورد ذكر هذه المذبحة في إنجيل متّى، 2. 16-18. ↑.

34. ملح مستخلص من مياه منطقة باريج Barège في فرنسا. ↑.

35. يشير إلى ثورة يوليو La révolution de Juillet، في 1830، التي مكّنت لويس فيليب Louis-Philippe (1773-1850)، من الصعود على العرش بدلاً من لويس العاشر الذي تميّز عهده بممارسة الملكيّة المطلقة. ↑.

36. إبينال Épinal مدينة فرنسية بدأ فيها طبع الرسوم الشعبيّة الصارخة الألوان المنقوشة على الخشب أو المعدن أو الحجر فحملت الرسوم اسمها. (المُراجِع) ↑.

37. هي الحرب الألمانية-الفرنسية، والتي يُطلقون عليها أحياناً الحرب الفرنسية-البورسية أو حرب 1870. وقد جمعت، من يوم 19 يوليو 1870 إلى 29 يناير 1871، فرنسا بالولايات الألمانية، وانتهت بهزيمة فرنسا. ↑.

38. كتبها كما يُفترض أنّهم نطقوا بها، في مزيج من الفرنسيّة والألمانية: «Papa Antoine; nous capout; capout». ↑.

39. الغبب هو ما يتدلّى مُنتفخاً تحت الحنك من النّاس والدّيكة والشّاء. ↑

40. لعبة البيزيك Le bézique هي لعبة ورق قديمة يُقال إنّ أصلها من مدينة تيخوانا Tijuana في المكسيك. ↑

41. الجيفين ptomaïne، مادّة قلوية تنشأ من انحلال المواد العضوية وتعفّنها. ↑

42. القبلانية، طريقة في التّصوف عند اليهود. (سبقت الإشارة إليها). ↑

43. ساحة سان سولبيس Saint-sulpice، توجد اليوم في الدائرة السّادسة من مدينة باريس، وكانت قد أنشئت في القرن الثّامن عشر (سنة 1767)، عند إنشاء الواجهة الحالية للكنيسة التي تحمل الاسم ذاته. ↑

44. الحضون les incubes، أرواح شرّيرة يُزعم أنّها تحتضن النّساء أثناء نومهنّ (سبقت الإشارة إليها). ↑

45. Disquisitionum magicarum كتاب لمارتان أنطوان دلريّو (Martín Antoine Delrío (1551-1608، والمُنادى بدل ريّو Del Reo أيضاً، الرّاهب والعالم اللّغوي البلجيكيّ. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية أندريه دو شين André Du Chesne، سنة 1611، وعنونَه بـ المناظرات والأبحاث السحرية Les controverses et recherches magiques. ↑

46. ماري أميلي لويزا هيلين دورليان Marie Amélie Louise Hélène d'Orléans المعروفة باسم أميلي دورليان (Amélie d'Orléans (1865-1951 (أميرة فرنسا وملكة البرتغال). ↑

47. تشبيه للكتلة المائية بنهر السّين في باريس. ↑

48. بلاد ما بين النّهرين Mésopotamie، كانت من أولى المراكز الحضارية في العالم، تقع الآن في العراق ما بين نهري دجلة والفرات. أشهر حضاراتها السّومرية والأكّادية والبابلية والأشورية والكلدانية... أمّا سولونيا Sologne، فهي منطقة طبيعية غابيّة توجد في فرنسا في جهة لوار Loire. وقد احتفظت هذه المنطقة دائماً بطابعها المتوحّش والرّطب، أرضها غير خصبة، رطبة شتاء وجافّة صيفاً، فلم تنشأ عليها زراعة، وقد عُدّت دائماً منطقة غير صحّية؛ والكاتب يستثمر هنا هذا التّقابل، بطريقة فنّية ومجازيّة، لتوضيح فكرته. ↑

49. باراسلسه Paracelse (فلبوس تيوفراستوس أورليولوس بومباستوس فون هوهنهايم (1493 أو 1494- 1541) Philippus Theophrastus Aureolus Bombastus von Hohenheim) هو كيميائي وعالم فلك وطبيب سويسريّ. ↑

50. البطرشيل هي قطعة قماش مطرّزة يضعها الكاهن على صدره وقت تقديمه خدماته والكتونة قميص يلبسه الكاهن تحت البذلة الخاصّة به. ↑

51. ببير جاك روليو Pierre-Jacques Roulliot، الملقّب بهيجزيب مورو Hégésippe Moreau (1810-1838)، شاعر وصحافيّ فرنسيّ. ويُلمّح الكاتب هنا إلى قصيدته التي تحمل عنوان «فولزي» «Voulzie»، والتي نقرأ منها: «إن كان وُجد اسمٌ رقيقٌ من أجل الشّعر/ ألا قولوا، أليس هو اسم فولزي**!؟**». ↑

52. السّفاد هو الاتّصال الجنسيّ لدى الحيوانات الثّديية. ↑

Table of Contents